G. K. CHESTERTON | The Napoleon of Notting Hill |

روايـــــــــــــــة

چي كيه تشستيرتون

نابليون في نوتنج هيل

مكتبة ١٦١٨

ترجمة: عماد منصور

المحروسة

نابليون في نوتنج هيل

چي كيه تشستيرتون

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa

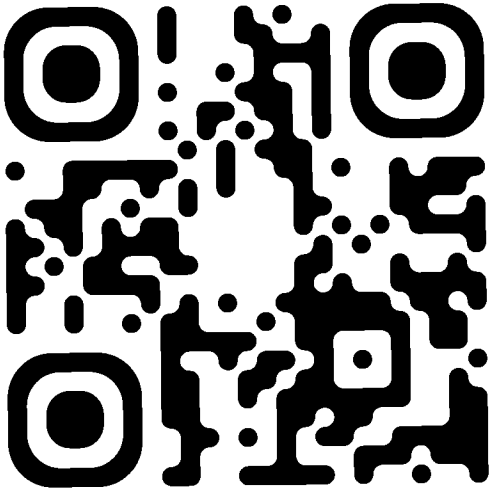

لن ننسى تشرين . . 23

لن ننسى غزة والشهداء

عنوان الكتاب: نابليون في نوتنج هيل
The Napoleon of Notting Hill
المؤلف: جي كيه تشستيرتون G. K. Chesterton
ترجمة: عماد منصور
مراجعة لغوية: محمود شرف

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٧٩٤٣/ ٢٠٢٢
الترقيم الدولي: 978-977-313-918-6

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2022

رواية

مكتبة 1618

نابليون في نوتنج هيل

چي كيه تشستيرتون

ترجمة
عماد منصور

مركز المحروسة
للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

الطبعة الأولى 2022

مكتبة
t.me/soramnqraa
31 12 2023

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

تشستيرتون، چي كيه

نابليون في نوتنج هيل: رواية/ چي كيه تشستيرتون؛ ترجمة/ عماد منصور.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2022

223 ص؛ 14.5×21.5 سم

تدمك 978-977-313-918-6

1 - القصص الانجليزية

2 - القصص التاريخية

أ- منصور، عماد (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2022/17943

إلى هيلير بيلوك[1]

من أجل كل مدينة أو مكان متناهٍ في الصِّغر
خلقَ الرَّبُّ النجوم خصِّيصًا؛
الرُّضَّع ينظرون لأعلى بوجوه البومة
ويرونَها متداخلةً مع شجرة:
رأيتَ قمرًا من ساسكس داونز،
قمرًا من ساسكس، ساكنًا قليل الأسفار،
رأيتُ قمرًا كان قمر المدينة،
المصباح الأكبر على كامبدين هيل.
نعم؛ السماء في كل مكان في الوطن
الغطاء الأزرق يملأ مكانه دائمًا
وهكذا الأمر (اطمئنِّي يا قريحتي الهائمة؛
سيصلون إلى غايتهم يومًا)،
هكذا الأمر مع المسألة البطولية؛
لن تنتهي ولو انتهى العالم

---

(1) Joseph Hilair Belloc (1870-1953): كاتب ومؤرخ وخطيب وهجائي بريطاني- فرنسي، تعاون مع تشيسترتون في عدد من الأعمال.

ومهما تتمايل المجانيق الكابية،
لا تَخَفْ كثيرًا، يا صديقي.
لم تنتهِ المسألة مع موت نيلسون[1]
حين كانت انجلترا تقبع خالدةً-
وحين كان شُبَّانكَ طوالُ القامة
يحتسون الموت بالتناوُب كنبيذ أوسترليتز.
وعندما أرسل المتحذلقون إلينا بعلامةٍ
عن أيِّ أحداث ميكانيكية باردة
حتمًا ستأتي؛ قالت أرواحنا في الظلام،
"ربما، لكن هناك أشياء أكثر احتمالًا".
أكثر احتمالًا عبر تلك المنخفضات البعيدة
تلك السهول المُتجهِّمة، الملساء، الحُرَّة،
التي عليها ستَقرعُ الطبول رقصةَ الحرب
وسيرقص الموت بحُرِّيَّة،
الأكثر احتمالًا أن تُهدَر الاستحكامات
بالذبح في الأسفل والدخان في الأعلى،
ثم يجتمع الموت والكراهية والجحيم ويعلنون
أن الرجال قد وجدوا شيئًا يمنحونه الحُبَّ
بعيدًا عن ذُرى تِلالِكَ المُشمِسة

(1) Horatio Nelson (1758-1805): قائد عسكري استراتيجي ساهم في الكثير من الانتصارات الحربية البريطانية الحاسمة، وخاصة في الحروب النابليونية. (المترجم)

رأيتُ الحُلم، رأيتُ الشوارع التي طرقتُها،
حلمتُ أن الشوارع المستقيمة المضاءة قد انطلقت
وتلاقت مع الشوارع النَّجميَّة التي تتَّجه إلى الرَّبِّ،
هذه الأسطورة لساعةٍ ملحمية.
بطفلٍ حلمتُ، وأحلم ما زِلتُ،
تحت بُرج الماء الرمادي العظيم
الذي يقرع النجوم على كامبدين هيل.

چي كيه تشستيرتون

الكتاب الأول

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

ملاحظات تمهيدية حول فن النبوءة

طالما كان العِرْق البشري، الذي ينتمي إليه كثيرٌ من قُرَّائي، يلعب بألعاب الأطفال منذ البداية، ويُحتمل أن يستمرَّ في ذلك حتَّى النهاية، وهو ما يمثِّل مصدرَ إزعاج لحفنةٍ من الناس البالغين. وأحد الألعاب التي يرتبط بها العِرْق البشري بشدَّة تُسمَّى "أبقِ الغَدَ مُظلِمًا"، والتي تُسمَّى أيضًا (من قِبل الأجلاف في شروبشاير، لا أشك في ذلك) "لنخدع المُتنبِّئ". ينصتُ اللاعبون بانتباه واحترام شديد لكل ما يقوله الرجال الحاذقون حول ما سيحدث في الجيل التالي. ثم ينتظر اللاعبون حتَّى يموت كل الرجال الحاذقين، ويدفنوهم على نحوٍ لائق. ثم ينطلقون ويفعلون شيئًا آخر. هذا كل ما في الأمر. لكن بالنسبة لعِرْقٍ ذي ذائقة بسيطة، فهي متعة كبيرة.

ذلك أن الكائنات البشرية، كونهم أطفالًا؛ يتمتَّعون بالعناد الطفولي والكتمان الطفولي. وأبدًا منذ بداية العالم لم يفعلوا ما يراه الرجال

الحُكَماء أنه لا مفرَّ منه. يرجمون الأنبياء الزائفين -يُقال- لكن كان بمقدورهم رجم الأنبياء الحقيقيين بابتهاجٍ وحماسة أكبر. كأفراد، قد يُقدِّم الرجال مظهرًا عقلانيًّا بعض الشيء: الأكل والنوم، والتآمُر. لكن البشرية في مجموعها مُتبدِّلة، مُلغزة، مُتقلِّبة، مُبتهجة. الرجال هم رجال، لكن الإنسان امرأة.

لكن في بداية القرن العشرين أصبحت لعبة "خداع المتنبِّئ" أكثرَ صعوبةً بكثير ممَّا كانت عليه قبل ذلك. والسبب أنه كان هناك أنبياء كثيرين جدًّا، ونبوءات كثيرة جدًّا، لحدٍّ أنه يصعب الهروب من جميع إبداعاتهم. عندما يفعل الإنسان شيئًا حرًّا وأهوجَ ومن تلقاء نفسه بالكامل، تستولي عليه فكرة مريعة لاحقًا: قد يكون هذا الشيء نبوءةً! عندما يتسلَّق دوقٌ مصباحَ شارع، عندما يثملُ عميد كلية، لا يمكنه أن يكون سعيد حقًّا، لا يمكنه التَّيقُّن أنه لا يُحقِّق نبوءةً ما. في بداية القرن العشرين لم يعد بمقدورك إيجاد تفسير لوجود لرجال الحاذقين. كانوا من الكثرة لدرجة أن الرجال الحمقى كانوا استثناءً مطلقًا تمامًا، وعندما يعثرون على واحد من هؤلاء الحمقى، يتبعونه في حشود عبر الشارع ويثمِّنونه ويمنحونه منصبًا رفيعًا في الدولة. بينما يقبع كل الرجال الحاذقين في عملهم يقدِّمون الروايات عمَّا سيحدث في العصر التالي، جميعهم واضحون جدًّا، جميعهم مُتبصِّرون وقُساة جدًّا، جميعهم متناقضون جدًّا. وبدا أن اللعبة القديمة البارعة لخداع أجدادك لم تعد نافعة حقًّا هذه المرَّة؛ لأن الأجداد تجاهلوا اللحم والنوم والسياسة العملية، حتَّى يمكنهم التأمُّل نهارًا وليلًا حول ما قد يفعله أبناؤهم.

لكن الطريقة التي انطلق بها أنبياء القرن العشرين إلى العمل كانت كالتالي. يأخذون شيئًا موجودًا بالفعل بالتأكيد في زمانهم، ثم يقولون إنه سيستمرُّ أكثر وأكثر حتى يحدث شيء استثنائي. وكثيرًا جدًّا

ما يضيفون أنه في موضعٍ شاذٍّ ما قد حدث ذلك الشيء الاستثنائي، وأن فيه تكمنُ مظاهر العصر.

هكذا، مثلًا، كان لدينا هربرت چورچ ويلز وآخرون، الذين اعتقدوا أن العِلم سيأخذ زمام المستقبل، وأنه كما أن السيارات كانت أسرع من مركبات الأحصنة، كذلك فإن شيئًا جميلًا ما سيكون أسرع من السيارات، وهكذا للأبد. ومن رمادهم ظهر دكتور كويلب، الذي قال إن الإنسان بمقدوره أن يُرسَل على آلته سريعًا جدًّا حول العالم، لحدٍّ أنه يستطيع الاستمرار في محادثة ثرثارة طويلة في قرية ما من العالم القديم عبر قول كلمة من جملة في كل مرة يظهر فيها. وقيل إن التجربة قد تمَّت على ضابطٍ عجوز سريع الغضب، أرسلوه حول العالم بسرعة شديدة، لحدٍّ أنه ظهرَ (لقاطني نجمٍ آخر ما) كحزام مُتَّصل حول الأرض من الشُّعَيرات البيضاء، وبذلات الصوف والبشرة الحمراء: شيء يشبه حلقة زحل.

ثم ظهرت المدرسة المعارضة. كان هناك السيد إدوارد كاربنتر، الذي اعتقد أنه ينبغي لنا أن نعود إلى الطبيعة في أسرع وقت، وأن نعيش ببطء وتكاسُل كما تفعل الحيوانات. وتلا إدوارد كاربنتر چيمس بيكي، (من جامعة بوكوهونتاس)[1]، الذي قال إن الرجال قد تحسَّنوا كثيرًا عبر رعي العشب، أو تناول طعامهم ببطء واستمرارية، على طريقة الأبقار. وقال إنه قد أطلقَ -بأفضل النتائج المُشجِّعة- رجالَ المدينة على أربع في حقلٍ ممتلئ بأضلاع اللحم البقري. ثم جاء تولستوي وأنصار المذهب الإنساني، وقال إن العالم كان يزداد رحمةً؛ وبالتالي لا ينبغي لأيِّ إنسان أن يرغب في القتل. بينما لم يصبح السيد ميك نباتيًّا فحسب، لكنه أعلن في النهاية أن مذهب النباتية قد هلكَ عبر "سفكِ

(1) بوكاهانتس: هي امرأة أمريكية أصلية كانت ابنةً لزعيم قبيلة من الأمريكان القدماء. وُلِدَت حوالي سنة 1595، وكان اسمها عند ولادتها ماتواكا. أُسِرَت أثناء المعارك بين الانجليز والهنود الحُمر سنة 1613 وطلب الانجليز فديةً من قومها. (المترجم)

(كما أسماه برقّة) "الدَّمِّ الأخضر للحيوانات الصامتة"، وتنبَّأ أن الإنسان في زمنٍ أفضل سيعيش على الملح وحده. ثم جاء ذلك الكتيب من أوريجون (حيث اخْتُبِرَت المسألة)، وكان عنوانه: "لماذا ينبغي أن يعاني الملح؟"، وازداد الأمر سوءًا.

ومن الناحية الأخرى، تنبَّأ بعضٌ من الناس أن صِلات القرابة ستصبح أكثر تدقيقًا وتشدُّدًا. هناك السيد سيسيل رودز، الذي كان يعتقد أن أهم شيء في المستقبل هو الامبراطورية البريطانية، وأنه ستوجد هوَّة بين من بين أبناء الإمبراطورية وغير أبنائها، وبين الصينيين في هونج كونج والصينيين خارجها، بين الإسبان على صخرة جبل طارق والإسبان بعيدًا عنها، بما يشبه الهوَّة بين الإنسان والحيوانات الأدنى. وبنفس الطريقة فإن صديقه الأهوج، د. زُوبِّي (قدِّيس الأنجلوسكسونيَّة) اندفع أكثر، واعتقدَ -نتيجة هذه الرؤية- أن أكل لحوم البشر ينبغي أن يعني التهامَ واحد من أفراد الإمبراطورية البريطانية، وليس أفراد شعوبها الخاضعة، الذين يجب -في رأيه- صيدهم على الفور بلا ألم لا داعي له. أظهر رُعبه من فكرة التهام إنسان في جيانا البريطانية إلى أيِّ حدٍّ أُسيءَ فهم رِوَاقيَّته من قِبَل هؤلاء الذين ظنُّوا أنه عديم المشاعر. كان، رغم ذلك، في وضع صعب؛ لأنه قيل إنه أجرى التجربة. ومقيمًا في لندن، اضطرَّ للعيش بالكامل على عازفي الأرغن الإيطاليين. كانت نهايته بشعة؛ ذلك أنه فور أن بدأ في التجربة، قرأ السير بول سويللر بحثه العظيم في الجمعية الملكية، الذي أثبت أن المتوحِّشين ليسوا على حقٍّ فحسب في أكل أعدائهم، لكنهم مُحقُّون أيضًا على أسسٍ صِحِّيَّة وأخلاقية؛ ذلك أنه كان من الحقيقي أن صفات العدو -عند التهامه- تنتقل إلى آكِله. كانت فكرة أن طبيعة عازفي الأرغن الإيطاليين تنمو وتتبرعم داخله بلا رجعةٍ أقوى بعض الشيء ممَّا يحتمله البروفسور العجوز الطيب.

كان هناك أيضًا السيد بنيامين كِيد، الذي قال إن الامتياز المتنامي لعِرقْنا سيتمثَّل في الاعتناء بالمستقبل ومعرفته. صِيغت فكرته بشكل أكثر قوَّةً من قِبَل ويليام بوركر، الذي كتب تلك الفكرة التي يعرفها كل تلميذ عن ظهر قلب، عن رجال في أزمنة مستقبلية يبكون بجوار قبور أحفاد أحفادهم، بينما يستعرض السُّيَّاح مشهد المعركة التاريخية التي ستقع بعد ذلك بعدَّة قرون.

والسيد ستيد -كذلك- كان رائدًا، واعتقدَ أن انجلترا ستتَّحِد في القرن العشرين مع أمريكا، بينما أضاف مساعِدُه الشاب، جراهام بودج، فرنسا وألمانيا وروسيا في الاتحاد الأمريكي، مع اختصار روسيا إلى "را".

كان هناك أيضًا السيد سيدني ويب، الذي قال إن المستقبل سيرى نظامًا وترتيبًا متزايدًا باستمرار في حياة الناس، إلى جانب صديقه البائس فيبس، الذي أصيب بالجنون وهامَ في البلاد بفأسٍ في يده، يقطع فروع الأشجار متى رأى أنها ليست بنفس العدد على كِلا جانبي الشجرة.

كل هؤلاء الرجال الحاذقين كانوا يتنبَّؤون بكل أشكال العبقرية بما سيحدث قريبًا، وكلهم فعلوا ذلك بنفس الطريقة، بتناوُل شيء يرونه "يحدث بقوَّة"، ثم حَمْله بأقصى ما يسمح خيالهم. وهذا، بحسب رأيهم، هو الطريق الحقيقي والبسيط لتوقُّع المستقبل. "تمامًا"، كما يقول دكتور بيلكينز، في فقرة بديعة: "تمامًا عندما نرى خنزيرًا في حظيرة المُخلَّفات أكبر حجمًا من باقي الخنازير، وندرك حينها بموجب قانون (المُبهم الراسخ) أنه سيصبح يومًا ما أضخم من الفيل، تمامًا كما ندرك -عندما نرى الأعشاب والهندباء تنمو بشكل متزايد وتتكاثف في حديقة- أنها حتمًا -رغم كل ما نبذله- ستتطاول حتى تُجاوز المداخن وتحجب المنازل عن الرؤية؛ بالتالي نعرفُ ونُقرُّ

-بتبجيل- أنه عندما تُظهِر أي قوة في السياسة البشرية لأي فترة من الزمن أيَّ نشاط مُعتَبر، فإنها ستستمرُّ في ذلك حتى تصل إلى السماء".

وقد بدا بالتأكيد أن الأنبياء قد وضعوا الناس (المنخرطين في لعبة "لنخدع المُتنبِّئ" القديمة) في وضع صعب غير مسبوق قطُّ. بدا أنه يصعب حقًّا إنجاز أي شيء بدون بعض من نبوءاتهم.

لكن كان هناك، رغم ذلك، في عيون العُمَّال في الشوارع، في عيون الفلاحين في الحقول، في عيون البحَّارة والأطفال، والنساء على الأخص، نظرةٌ غريبة أبقت على الرجال الحُكَماء في حمَّى مُطلقة من الشَّكِّ. لم يتمكَّنوا من فهم المرح الساكن في عيونهم. ما يزال لديهم شيء مُختَفٍ في أكمامهم، ما يزالون يلعبون لعبة "لنخدع المُتنبِّئ".

ثم تحوَّلَ الرجال الحُكَماء إلى أشياء جامحة، تتمايل هنا وهناك صائحةً: "ماذا يمكن أن يكون الأمر؟ ماذا يمكن أن يكون الأمر؟ كيف ستكون لندن بعد قرنٍ؟ هل يوجد أيُّ شيء لم نفكِّر به؟ منازل مقلوبة رأسًا على عقب (أكثر نظافةً، ربما؟)، رجال يسيرون على أيديهم، بأيدٍ مطواعة. ألا تعرف؟ قمر... سيارات... لا رؤوس..."، وهكذا تمايلوا وتساءلوا واندهشوا حتَّى ماتوا ودُفنوا بأناقة.

ثم انطلق الناس وفعلوا ما يحلو لهم. لا تدعني أخفي الحقيقة المؤلمة أكثر من ذلك. كان الناس قد خدعوا أنبياء القرن العشرين. عندما ترتفع الستارة عن هذه القصة، بعد ثمانين عامًا من التاريخ الحالي، ستكون لندن بالضبط تقريبًا كما هي الآن.

الفصل الثاني

الرَّجُل ذو الرِّداء الأخضر

لا يتطلَّب الأمر سوى كلمات قليلة جدًّا لشرح لماذا ستكون لندن، بعد مائة سنة من الآن، مشابهة جدًّا لما هي عليه الآن، أو بالأحرى، لأنه ينبغي لي الانزلاق إلى ماضٍ تنبُّئيٍّ، لماذا كانت لندن -عندما افتتحتُ قصتي- مُشابهةً جدًّا لما كانت عليه في تلك الأيام المثيرة للحسد عندما كنتُ مفعمًا بالحياة ما زلت.

يمكن وضع السبب في جملة واحدة. كان الناس قد فقدوا كل إيمان بالثورات. جميع الثورات دوجمائية، كالثورة الفرنسية، أو الثورة التي جاءت بالمسيحية؛ ذلك أن الحسَّ السليم يقول إنه لا يمكنك زعزعة كل الأشياء والعادات والتكوينات الموجودة ما لم تؤمن بشيءٍ يقع خارجها، شيء حقيقي ومُقدَّس. الآن، فإن انجلترا، خلال هذه القرن، فقدت كل إيمانها بهذا. كانت تؤمن بشيءٍ يُسمَّى التَّطوُّر. وقد قيل: "إن كل التَّغيُّرات النظرية قد انتهت بالدِّماء والملل. إذا تغيَّرنا؛

علينا أن نتغيَّر ببطء وأمان، كما تتغيَّر الحيوانات. ثورات الطبيعة هي الثورات الوحيدة الناجحة. أبدًا لم يوجد ردُّ فِعلٍ معتدل لمصلحة الأرتال والحشود".

وبعض الأشياء تغيَّرَت حقًّا. أشياء لم يُعتقد كثيرًا أنها ستختفي عن الأنظار. الأشياء التي لم تكن تحدث كثيرًا لا تحدث على الإطلاق. بالتالي، مثلًا، فإن القوَّة المادية الحقيقية التي تحكم البلاد، الجنود والشرطة، تضاءلت أكثر وأكثر، حتَّى اختفت في النهاية إلى مجرد نقطة. كان بمقدور أفراد الشعب مجتمعين اكتساحُ حفنة رجال الشرطة المُتبقِّين في دقائق: لكنهم لم يفعلوا؛ لأنهم لم يؤمنوا بأن ذلك سيجلب عليهم أقلَّ خيرٍ مُمكِن. كانوا قد فقدوا الإيمان بالثورات.

كانت الديمقراطية ميِّتةً؛ ذلك أن أحدًا لم يُلقِ بالًا لأن تحكم الطبقة الحاكمة. أصبحت انجلترا الآن دكتاتوريَّةً حرفيًّا، لكنها ليست دكتاتورية وراثية. أحدهم في الطبقة المسؤولة وَضع ملكًا. لم يهتم أحدٌ كيف حدث ذلك: لم يهتم أحدٌ بمَن كان. كان سكرتيرًا عموميًّا فحسب.

بهذه الطريقة، حدث أن كل شيء في لندن صارَ هادئًا جدًّا. أن اعتمادًا مبهمًا وسوداويًّا بشكل ما على الأشياء التي تحدث كما تحدث دائمًا، وهو ما شكَّل مزاجًا لجميع أهالي لندن، قد صارَ ظرفًا وضعيًّا. لم يكن هناك في الحقيقة سببٌ لأيِّ إنسان ليقوم بأيِّ شيءٍ سوى ما فعله في اليوم السابق.

لم يكن هناك بالتالي أيُّ سببٍ، بأي شكل، لماذا أن الشباب الثلاثة، الذين طالما كانوا يذهبون معًا إلى مكتب حكومتهم، لم يذهبوا إليه معًا في هذا الصباح الشتوي المكفهرِّ بالذات. كل شيء في ذلك العصر صارَ ميكانيكيًّا، موظَّفو الحكومة على الأخص. كان كل هؤلاء الموظفين يتجمَّعون بانتظام في مواقعهم. وثلاثة من هؤلاء الموظفين يسيرون معًا دائمًا إلى المدينة. كل الحيِّ يعرفهم: اثنان منهما طَويلَا القامة

والثالث قصير. وفي هذا الصباح بالذات تخلَّفَ الموظف القصير متأخِّرًا لبضعة ثوانٍ على الانضمام إلى الآخرَين بينما يعبران أمام باب منزله: كان بمقدوره اللحاق بهما بثلاث خطوات، كان بمقدوره مناداتهما بسهولة، لكنه لم يفعل.

لسببٍ ما لن يدركه أحد حتَى تُحاكَم جميع الأرواح (هذا إذا حُوكِمَت أبدًا، كانت الفكرة في هذا الزمن مُصنَّفة كعبادة وثنية) لم يلحق برفيقيه، لكنه خطا بثبات وراءهما. كان النهار قاتمًا، كانت ملابسهم قاتمة، كان كل شيء قاتمًا، لكن باندفاعَةٍ غامضة ما كان يسير في شارع بعد شارع، حيٍّ بعد حَيٍّ مُتطلِّعًا إلى ظهْرَيْ الرَّجُلَيْن، اللذين كانا يلتفتان ناحيته أحيانًا. الآن، يوجد قانون مكتوب في أكثر كتب الحياة ظلامًا، وهذا نصُّه: إذا نظرتَ إلى شيء تسعمائة وتسع وتسعين ومرَّة، فأنت في أمان كامل. إذا نظَرتَ إليه للمرة الألف، فقد وقعت في خَطرٍ مُريع بأن تراه للمرة الأولى.

إذن، كان المسؤول الحكومي القصير ينظر إلى ذيلَي مِعطفَيْ المسؤولَين الحكوميَّين الطويلين، وشارعًا إثرَ شارع، وناصية إثرَ ناصية، لم يرَ سوى ذيول المعاطف، وذيول المعاطف، ومجدَّدًا ذيول المعاطف، حينها، لم يدرك أدنى سبب لذلك، وقع شيءٌ لعينيه.

كان التِّنِّينان الأسودان يسيران إلى الخلف أمامه. كان التِّنِّينَان الأسودان ينظران إليه بأعين شرِّيرة. كان التِّنِّينَان الأسودان يسيران بظَهْرَيهما نعم، لكنهما أبقيا أعينهما عليه رغم ذلك. كانت الأعين التي يراها -في الحقيقة- ليست سوى أزرار ظهر المعطف مشقوق الذيل، ربما ذكرى تقليدية ما لشكلها عديم المعنى هي ما منح تحديقَتها هذه الأهمية البلهاء. كان الشقُّ بين الذيلين أنف الوحش: متى رفرفَ الذيلان في رياح الشتاء كان التِّنِّينَان يلعقان شفتيهما. لم يكن ذلك سوى توهُّمٍ لحظيٍّ، لكن الموظف الصغير تشرَّبه في روحه

بعد ذلك للأبد. لم يَعُد قادرًا قطُّ على النظر إلى الرَّجُلَين ذَوَيْ المعطفين مشقوقي الذيل سوى كتَنانينَ تسير بظهرها. فسَّرَ لاحقًا -بمنتهى اللطف واللباقة- لصديقَيْه المسؤولَين أنه كان عاجزًا (رغم الشعور باحترام لا يوصف تجاه كليهما) عن رؤية وجه أيٍّ منهما سوى كذيلٍ. لكنه كانَ -اعترف- ذيلًا جميلًا، ذيلًا مُرتقيًا في الهواء. لكنه إن سُمحَ -قال لهم- لأيِّ صديق حقيقي من أصدقائهم يرغب في رؤية وجهيهما، في النظر إلى أعين روحهما، فإن ذلك الصديق يجب أن يتاح له المشي بهدوء وراءهما؛ حتى يراهما من المؤخِّرة. هناك سيرى التِّنِّينَين الأسودين ذوَيْ الأعين العمياء.

لكن عندما انقضَّ التِّنِّينَان الأسودان خارِجَين من قلب الضباب على الموظف الضئيل، كان لهما تأثير كل معجزات العالَم فحسب: غيَّرا الكون. واكتشف هو الحقيقة التي يدركها كل الرومانتيكيُّين: أن المغامرات تحدث في النهارات القاتمة، وليس في النهارات المُشمسة. عندما يشتدُّ وتر الرتابة، فإنه ينكسر بصوتٍ يشبه الأغنية. كان قد لاحظَ بالكاد الطقس، لكن مع الأعين الأربعة الميتة تتوهَّج في وجهه تطلَّع مِن حوله وأدرك كم كان النهار ميِّتًا وغرائبيًّا.

كان الصباح شتويًّا وكابيًا، ليس ضبابيًّا، لكن مظلمًا بظلِّ السحاب أو الجليد الذي يتسرَّب إلى كل شيء في شفقٍ أخضر أو نحاسيٍّ. لا يبدو الضوء في نهار كهذا أنه يأتي من السماوات الرائقة بقدر ما هو وميض يتقارع مع الأشكال ذاتها. بدا حِمْل السَّماء والسُّحب كحِمْلٍ من المياه، يتحرك فيها الرجال كالأسماك، شاعرين أنهم في قاع البحر. كل شيء في شوارع لندن يُكملُ الفانتازيا، العربات ذاتها تشبه مخلوقات من أعماق البحر بأعينٍ من اللهب. كان قد جَفُلَ في البداية للقاء التِّنِّينَيْن. والآن وجد نفسه بين تنانين بحرية تُهَيمن على أعماق البحر.

خطا الشابَّان في المقدِّمة كالشاب الضئيل ذاته، مُتأنِّقَيْن. خطوط معطفيهما مشقوقَي الذيل وقُبَّعتيهما الحريريَّتين لها ذلك الوقار المُترف الذي يجعل من أيِّ غندور معاصر -رغب قُبحه- تمرينًا مُفضَّلًا للرَّسَّامين المعاصرين، عبر ذلك العنصر الذي عبَّرَ عنه السيد ماكس بيربوم بإعجاب في حديثه عن "تطابُقات مُعيَّنة بين الملابس الداكنة والكمال المتخشِّب للبطانة".

كانت مشيتهم كمشية حلزون كسول، متكلِّف، يتحدَّثون بتوقُّفات طويلة، مُلقين بجملةٍ عند كل ستَّة مصابيح شارع تقريبًا.

كانوا يتباطؤون تحت مصابيح الشارع، وبدا أنهم لا يتحرَّكون البتَّة لحدِّ أن وصفًا خيالي سيكاد يقول إن المصابيح تزحف عابرةً بهم، كما لو في حُلمٍ. ثم هرع الرجل الضئيل بغتةً في إثرهم، وقال:

"أريد أن أحلق شَعري. هل تعرفان متجر حلاقة صغير في أي مكان يحلقون فيه الشَّعر بأناقة؟ أداومُ على حَلْق شَعري، لكنه ينمو بسرعة ثانية".

تطلَّعَ إليه واحد من الرجلين الطويلين كما لو كان عالِم طبيعة مُتألِّمًا.

"عجبًا، ها هو مكان صغير"، هتف الرجل الضئيل، بابتهاج معتوه بعض الشيء، كما لو أن النافذة الناتئة المضيئة لصالون عصري أنيق قد توهَّجَت بغتةً من بين الشفق الضبابي. "كثيرًا ما أجد مُصفِّفي شَعر عندما أتسكَّع في أنحاء لندن. سأتناول الغداء معكم في كيكوناني. تعرفان أنني مغرم بشدَّة بمتاجر مُصفِّفي الشَّعر. إنهم أفضل بأميال من متاجر الجزَّارين". قال ذلك ثم اختفى في المدخل.

استمرَّ الرجل المدعو چيمس في التَّحديق في إثره، بعُوَيناتٍ أُحاديَّة على عينه.

"مـا رأيـك في هـذا الرجـل بحـق الشـيطان؟"، سـأل رفيقَـه، شـابٌ شـاحبٌ بأنـف عاليـة.

تفكَّر الشابُّ الشاحب بإخلاص لبضع دقائق ثم قال:

"تلقَّى ضربةً على رأسه عندما كان طفلًا، أعتقد، ربما".

"لا، لا أعتقـد أن الأمـر كذلـك"، أجـاب الشَّريـف چيمـس باركـر. "أتخيَّـل أحيانًـا أنـه فنـان بشـكلٍ مـا يـا لامـبرت".

"هراء!"، هتف السيد لامبرت باقتضاب.

"أعـترف أننـي لا أفهمـه"، اسـتأنف باركـر حديثـه، شـارد الذهـن: "أبـدًا لا يفتـح فمـه بـدون قـول شيء في غايـة البلاهـة، لحـدٍّ أن دعوتَـه بالأحمـق تبـدو أضعـف محاولـة لتصنيـف شـخصيته. لكـن هنـاك شيءٌ آخـر فيـه يبـدو طريفًـا بعـض الـشيء. هـل تعـرف أن لديـه مجموعـة الورنيـش اليابـاني الوحيـدة في أوروبـا؟ هـل رأيـت كتبـه؟ كل الشـعراء اليونانيـين والأدبـاء الفرنسـيين القروسـطيين، وكُتـب مـن هـذا القبيـل. هـل رأيـتَ منزلـه؟ يبـدو وكأنـه داخـل حَجـرِ الجمشـت الأرجـواني. يهيـم ويتحـدَّث داخلهـا وكأنـه... وكأنـه نبتـة لِفـت".

"حسـنًا، اللعنـة عـلى كل الكُتـب. كتبـك الزرقـاء أيضًـا"، قـال السـيد لامـبرت السـاذج ببسـاطة ودودة. "لا بُـدَّ أنـك تفهـم أشـياء كهـذه. كيـف تـراه؟".

"إنـه يتجـاوز فهمـي"، أجابـه باركـر. "لكـن إذا كنـت تسـألني عـن رأيـي، فسـأقول إنـه رجـل ذو ميـل للهـراء، أو كـما يسـمُّونه "الحماقـة الفنِّيَّـة"، ولـكلِّ مـا شـابه ذلـك. وأعتقـد حقًّـا أنـه يتحـدَّث بالهـراء كثـيرًا لدرجـة أنـه يوشـك عـلى إربـاك عقلـه، ولا يعـرف الفـرق بـين سـلامة العقل والجنـون. أي أنـه تجـاوز العـالم العقـلاني، ووجـد مكانًـا يسـتوي فيـه

الشرق والغرب، والحماقة المطلقة والحكمة. لكنني لا أستطيع شرح هذه الألعاب السيكولوچية".

"لا يمكنك شرحها لي"، أجاب السيد ويلفريد لامبرت بصراحة.

فيما ينطلقان عبر الشوارع الطويلة نحو مطعمها، كان الشفق النحاسي ينزاح ببطء ليتحوَّل إلى الأصفر الشاحب، وعندما وصلا إلى المطعم، وقَفَا بجلاء في ضوء الشتاء النهاري المحتمل. كان الشريف چيمس باركر -واحد من أقوى المسؤولين نفوذًا في الحكومة الانجليزية (بحسٍّ رسميٍّ متصلِّب حينها)- شابًّا نحيلًا وأنيقًا، بوجهٍ وسيم خاوي التعبيرات وعينين زرقاوين كئيبتين. كان يتمتع بقدرٍ هائل من القُدرة الفكرية، من ذلك النوع العجيب الذي يرفع الرجال من عرشٍ إلى آخر ثم يخلِّفهم وراءه ليموتوا مُثقلين بالشرف بدون إمتاعهم أو تنويرهم لعقل رجل واحد آخر. في حين أن ويلفريد لامبرت -الشاب ذا الأنف الذي يبدو أنه يوهن بقيَّة وجهه- قد ساهم قليلًا في تضخيم الروح البشرية، لكنه كان يتمتَّع بالمُبرِّر الفخيم لأن يكون أحمق.

من الأفضل تسمية لامبرت بالرجل المُتبلِّد، المُغفَّل، وتسمية باركر -بكل مهارته- بالرجل الغبيِّ. لكن البلادة والغباء غاصَا تحت بحر من اللا أهمية في حضور الكنوز الغامضة والمريعة للحماقة التي يبدو أنها تراكَمَت في الشكل البشري الصغير الذي يقف في انتظارهما خارج مطعم كيكوناني. كان الرجل الصغير، أوبيرون كوين (Quin)، ذا مظهر يجمع بين الرضيع والبومة. بدا رأسه المستدير وعيناه المستديرتان، وكأنها قد صُمِّمَت من قِبَل الطبيعة عبر تلاعُبها بزوجٍ من البوصلات. كان شَعره الداكن المستوي ومعطفه الطويل بشكل غير معقول شيئًا يشبه منظر "نوح" الطفل. عندما يدلف إلى حجرة من الغرباء، يظنُّونه صبيًّا صغيرًا، ويطلبون وضعه على رُكَبهم؛ حتى يتحدث، وحينها يدركون أن صبيًّا كان ليكون أكثر ذكاءً منه.

"انتظرتكما طويلًا"، قال كوين بوداعة. "كان من المدهش جدًّا أن أراكما قادِمَيْن عبر الشارع أخيرًا".

"لماذا؟"، سأله لامبرت، مُحدِّقًا. "لقد طلبتَ منَّا المجيء إلى هنا بنفسك".

"اعتادت أمِّي أن تطلب من الناس المجيء إلى أماكنٍ ما"، قال الحكيم.

كانوا على وشك الدخول إلى المطعم بحسٍّ مُستسلم، عندما لفت نظرهم شيءٌ في الشارع. كان الطقس -رغم برودته وهموده- صافيًا تمامًا الآن، وعلى طول الرصيف الخشبي، البُنِّيِّ القاتم، وبين الشُّرُفات الرمادية الكابية كان يتحرَّك شيء لا ينبغي رؤيته لأميال من حوله (لا ينبغي ربما رؤيته في ذلك الزمن في انجلترا)، رجل يرتدي ألوانًا بَرَّاقة، وحشدٌ صغير يسير في أعقابه.

كان رجلًا طويلًا بفخامة، يرتدي زيًّا عسكريًّا ذا لون أخضر مُتألِّق، تتناثر عليه تلبيسات فِضِّيَّة كبيرة. من الكتف تتدلَّى عباءة قصيرة من الفرو، تشبه عباءات جنود الهوسَّار الأوربيين بعض الشيء، بطانتها تتوهَّج بين كل لحظة وأخرى بشكل من القرمزي الأغبر. صدره مُرصَّع بالميداليات، وحول عنقه كان الشريطة والنجمة الحمراوان لرُتبةٍ أجنبيَّة ما، وسيف مستقيم طويل، ذو مقبض مُتوهِّج، يزحف ويقعقع على طول الرصيف. في هذا الزمن كان التطوُّر السِّلميُّ والنَّفعيُّ لأوروبا قد أحال كل هذه التقاليد والأزياء إلى المتاحف. كانت القوة المتبقِّيَّة الوحيدة، الشُّرطة الصغيرة لكن المنظَّمة جيدًا، ترتدي أزياءً على طراز صحِّيٍّ وقاتم. لكن حتَّى مَن يتذكر آخر حُرَّاس الحياة ورُماة الرُّمح الذين اختفوا في عام 1912 حتمًا سيدركون من الوهلة الأولى أن هذا الزِّيَّ ليس -وأبدًا لم يكن- زيًّا انجليزيًّا، بل وسيزداد هذا اليقين علوًّا بعد النظر إلى الوجه العُقابيِّ الأصفر، وكأنه دانتي منحوت من البرونز،

يرتفع، متوَّجًا بالشَّعر الأبيض، من الياقة العسكرية الخضراء، صارمًا ومتمايزًا، لكنه ليس وجهًا انجليزيًّا.

الأبَّهة التي سار بها الچنتلمان المتَّشِح بالأخضر عبر منتصف الشارع هي شيءٌ يَصعُب التعبير عنه بلُغةٍ بَشريَّة؛ ذلك أنها كانت بساطةً راسخةً مع عجرفة، شيءٌ ما في الحركة المحضة للرأس والجسد جعل المعاصرين العاديين في الشارع يحدِّقون في إثره، لكنه شيءٌ لا يتصل كثيرًا بالإيماءات أو التعبيرات الواعية الفعلية. في طريقة هذه الحركات الانتقالية فحسب، بدا الرجل فضوليًّا ومهمومًا بالأحرى، لكنه كان فضوليًّا فُضولَ دكتاتور، ومهمومًا بمسؤوليات إله. كان الرجال المتلكِّئون والمتعجِّبون وراءه يتبعونه؛ من ناحية بسبب ذهولهم تجاه زيِّه البَرَّاق، ومن ناحية بسبب تلك الغريزة التي تجعلنا جميعًا نتبع أيًّا من يبدو مجنونًا، لكنهم كانوا يتبعونه أيضًا بدافعٍ من تلك الغريزة التي تجعل كل الرجال يتبعون (ويعبدون) أيًّا مَن يختار التصرُّف كمَلِك. كان قد ارتقى إلى درجة شديدة السُّموِّ من الطَّبع الملكي، لحدِّ ذهوله، بخرَقٍ بعض الشيء، عمَّن يمضون في إثره كما يمضون في إثر الملوك، حتى يروا ما سيكون عليه أول شيء أو أول شخص يلفتُ انتباهه. وطوال الوقت -كما قلنا- على الرغم من بهائه الهادئ، كان يحيط به جوٌّ جعله يبدو كما لو أنه يبحث عن شخصٍ ما، بتعبيرٍ من البحث على وجهه.

اختفى تعبير البحث بغتةً، لم يعرف أحدٌ لماذا، وحلَّ مكانه تعبيرٌ بالازدراء. في قلب الانتباه الذاهل لطغمة المتسكِّعين، انحرف الچنتلمان الأخضر ذو الأبهة عن طريقِه المستقيم في منتصف الطريق وخطا إلى أحد جانبيه. توقَّف قبالة مُلصَق كبير يقول "خردل كولمان" على لافتة خشبية. انقطعت أنفاس مشاهديه.

تناوَلَ من جيبٍ صغير في زيِّه سِكّينًا صغيرًا، وبها أحدَثَ شقًّا في الورقة الممدودة. ثم أكمل بقية العملية بأصابعه، ومزَّق قصاصة أو خرقة من الورقة صفراء اللون ذات الحواف غير المنتظمة. ثم للمرة الأولى خاطب الكائن العظيم جمهور مستمعيه العاشق له:

"هل يستطيع أيُّكم"، قال لهم، بلكنة أجنبية واضحة، "أن يقرضني دَبُّوسًا؟".

أقرضه السيد لامبرت -الذي صادف أنه أقربهم، ويحمل دبابيس لا تُحصَى بغرض تثبيت عروات لا تحصى- واحدًا، وتناول هو منه الدَّبُّوس بانحناءاتٍ مُبالَغ فيها لكن مبجَّلة، واستعارات شُكر كثيرة.

ثم قام الچنتلمان ذو الرداء الأخضر، بكل أشكال الرضا، بل وانتفاخ الذات، بتثبيت الورقة الصفراء على الزخارف الحريرية الخضراء والأبازيم الفضية على صدره. ثم أدار عينيه من حوله مُجدَّدًا، مُفتِّشًا وشاعرًا بالاستياء.

"أي شيء آخر يمكنني فعله يا سيدي؟"، سأله لامبرت، بالتأدُّب العبثي لرجلٍ انجليزي شعرَ بالحرَج ذات مرة.

"أحمر"، قال الغريب بغموض، "أحمر".

"أستميحك عذرًا؟".

"أستميحك عذرًا أنت أيضًا يا سنيور"، قال الغريب، منحنيًا. "أتساءل ما إذا كان أيُّكم لديه أيُّ أحمر من حوله".

"أي أحمر من حولنا؟ حسنًا... لا، لا أعتقد... كنتُ أحمل منديلًا أحمر في السابق، لكن...".

"باركر"، قال أوبيرون كوين بغتةً، "أين ببغاؤكَ الأحمر؟ أين ببغاؤك الأحمر؟".

"مـاذا تعنـي؟"، سـأله باركـر بيـأس. "أي ببغـاء؟ لم تَـرَ معـي أيَّ ببغـاء قـطُّ!".

"أعـرف"، أجابـه أوبـيرون بهـدوء غامـض. "أيـن كان طـوال هـذا الوقـت؟".

استدار باركر مبتعدًا، ليس بدون امتعاض.

"أنـا آسـف يـا سـيدي"، قـال، باقتضـاب لكـن بتهذيـب، "لا يبـدو أن أيًّنـا لديـه أحمـر لإقراضـك إيَّـاه. لكـن لمـاذا، إذا كان لي أن أسـأل...".

"شـكرًا، سـينور، إنـه لا شيء. يمكننـي، حيـث أنـه لا يوجـد حـلٌّ آخـر، الحصـول عـلى مـا أحتاجـه".

وبعـد أن وقـفَ للحظـة مُتأمِّـلًا السِّـكِّين في يـده، طعـنَ راحتـه اليـسرى. تسـاقطت الدمـاء متدفِّقـةً لحـدِّ أنهـا ضربـت أحجـار الرصيـف بـلا تقطُّـر. تنـاول الغريـب منديلـه ومـزَّق قطعـةً منـه بأسـنانه. تشرَّبَـت الخرقـة عـلى الفـور بالقرمـزي القـاني.

"استمرارًا لكرمك الشديد، سنيور"، قال، "دبُّوس آخر، ربما".

منحه لامبرت واحدًا، وعيناه بارزتان كعينَيْ ضفدع.

ثُبِّـتَ الكتَّـان الأحمـر إلى جانـب الورقـة الصفـراء، ثـم انتـزع الغريـب قُبَّعتـه.

"عـليَّ أن أشـكركم جميعًـا يـا سـادة"، قـال لهـم، وبينـما يضمِّـد يـده النازفـة بمـا تبقَّـى مـن المنديـل، اسـتأنف حديثـه بمهابـةٍ جارفـة.

رغـم أن البقيَّـة جميعهـم توقَّفـوا عـن الحديـث، مرتبكـين بشـكلٍ مـا، هـرعَ السـيد أوبـيرون كويـن الضئيـل في إثـر الغريـب وأوقفـه، بقبَّعتـه في يـده. ولدهشـة الجميـع، خاطبـه بإسـبانيَّةٍ نقيـة:

"سنيور"، قال بتلك اللغة، "اعذر ضيافتنا، الفضولية ربما، تجاه من يبدو ضيفًا مُبجَّلًا، لكن وحيدًا في لندن. هل لك أن تُشرِّفَنا أنا وأصدقائي، الذين تحادَثتَ معهم لتوِّكَ، بقبول الغداء معنا في المطعم المجاور؟".

كان الرجل ذو الزِّيِّ الأخضر قد تَحوَّل إلى لونٍ هائج من السعادة عند مُجرَّد سَماعه لصوت لغته الأم، وقَبِلَ الدعوة بوفرة من الانحناءات التي كثيرًا ما كانت تُبرزُ -في حالة الأعراق الجنوبية- زيف الفكرة القائلة بأن الرسميَّات لا علاقة لها بالمشاعر.

"سنيور"، قال، "لغتك هي لغتي، لكن كل حُبِّي لشعبي لن يؤدي بي إلى إنكار امتلاك شعبك لمُضيِّفٍ نبيل ذلك. دعني أقُل إن اللسان أسبانيٌّ، لكن القلب انجليزيٌّ". ثم انطلق مع البقيَّة إلى داخل مطعم كيكوناني.

"الآن، ربما"، قال باركر، وهو يتناول السمك ويحتسي نبيذ الشِّري، بتأدُّب شديد، لكن بفضول لاذع: "ربما من الوقاحة منِّي أن أسألك لماذا فعلت ذلك؟".

"فعلت ماذا يا سنيور؟"، سأله الضيف، بانجليزية مُتقنة، لكن بلكنة أمريكية لا شكَّ فيها.

"حسنًا"، قال الانجليزيُّ، بارتباكٍ بعض الشيء: "أعني تمزيق قصاصة من اللافتة و... إمم... جَرْح نفسك... و...".

"إجابتك عن ذلك، سنيور"، أجاب الآخر، بكبرياءٍ حزين واثق، "لا تحتاج سوى إلى إخبارك مَن أنا. أنا خوان ديل فويجو، رئيس نيكاراجوا".

أبانت له الطريقة التي تراجع بها رئيس نيكاراجوا بظهره واحتسى نبيذه أن هذا التفسير يُغطّي بالنسبة له كل الحقائق المشهودة وأكثر من ذلك بكثير. لكن جبين باركر كان ما يزال مُكفهرًّا قليلًا.

"والورقة الصفراء، "شرعَ في القول، بحميميَّةٍ مرتبكة، "والخرقة الحمراء...".

"الورقة الصفراء والخرقة الحمراء"، قال فويجو، بأبَّهةٍ لا توصف، "هي ألوان نيكاراجوا".

"لكن نيكاراجوا..."شرعَ باركر في القول، بتردُّدٍ كبير، "نيكاراجوا لم تعُد...".

"تعرَّضَت نيكاراجوا لغزو أثينا. أُلحِقَت بها كأورشليم"، هتفَ العجوز، باهتياج مذهل. "دهسها الأمريكان والألمان والقوى الوحشية للزمن المعاصر بحوافر الثيران. لكن نيكاراجوا لم تَمُت. نيكاراجوا فكرة".

ألمحَ أوبيرون كوين على استحياء، "فكرة رائعة".

"نعم"، قال الغريب، مُختطفًا الكلمة. "أنت على حقٍّ، أيُّها الانجليزيُّ الكريم. فكرة رائعة، لاذعة. سنيور، سألتَني لماذا، في خضَمِّ رغبتي لرؤية ألوان بلدي، اقتنصتُ الورق والدماء. ألا تدرك معنى القداسة القديمة للألوان؟ الكنيسة لديها ألوانها الرمزية. فكِّر فيما تعنيه الألوان لنا... فكِّر في وضع رَجُلٍ مثلي، لا يمكنه رؤية شيء سوى هذين اللونين، لا شيء سوى الأحمر والأصفر. بالنسبة لي، كل الأشكال سواء، كل الأشياء النبيلة والوضيعة تجتمع معًا في ديمقراطية. أينما يوجد حقلٌ من الأقحوان الأصفر وعباءة حمراء لامرأة عجوز؛ توجد نيكاراجوا. أينما يوجد حقلٌ من الخشخاش وبقعة رمال صفراء؛ توجد نيكاراجوا. أينما توجد ليمونة وغروب شمس أحمر؛ توجد بلادي. أينما أرى صندوق بريدٍ أحمر وغروب أصفر؛ هناك يخفق قلبي. الدماء وطرطشة الخردل بمقدورها أن تكون شعارَ نَبالتي. إذا

كان هناك طمي أصفر وطمي أحمر في نفس الحفرة؛ فهي أفضل في عينَيَّ من النجوم البيضاء".

"وإن حدثَ"، قال كوين بنفس الحماس، "ووُجِدَ نبيذٌ أصفر ونبيذ أحمر في نفس الغداء، فلا يمكنك الاكتفاء بنبيذ الشَّري. دعني أطلب بعض البورجندي[1]؛ حتى يكتمل شعار النَّبالة داخلك".

كان باركر يعبث بسكِّينه، ومن الواضح أنه يفكِّر في قول شيءٍ ما، بالعصبية المشدودة لرجل انجليزي رقيق الطبع.

"أفهم بالتالي"، قال أخيراً، بكحَّةٍ، "أنك... إحم... كنتَ رئيس نيكاراجوا عندما بدَأت... ممم -يجب أن أعترف بالطبع- مقاومتها البطولية ضد...".

لوَّحَ الرئيس السابق لنيكاراجوا بيده.

"لا حاجة بكَ في أن تتردَّد في مُخاطبتي"، قال. "أنا مدرك تمامًا لما يُكِنُّه العالم بأكمله اليوم ضد نيكاراجوا وضدِّي. وإذا قلت ما تظنُّه في المصائب التي أحالت جمهوريَّتي إلى أطلال؛ فلن أعتبر ذلك تقليلًا بأيٍّ شكل من حُسن ضيافتك الواضح".

بدا باركر متحرِّرًا ومرتاحًا بما لا يُقاس.

"أنتَ في غاية الكرم، فخامة الرئيس"، قال، مُتردِّدًا بعض الشيء بشأن اللقب، "سأستغلُّ كرمك للتعبير عن الشكوك -عليَّ أن أعترف- التي تراودنا نحن المعاصرين تجاه أشياء مثل... ممم... الاستقلال النيكاراجوياني".

"إذن فتعاطُفُكَ"، قال ديل فويجو بهدوء شديد، "هو مع الأُمَّة الكبيرة التي...".

---

(1) البورجندي: شراب ذو لون أحمر قاتم، والشرِّي: نبيذ أسباني يميل للأصفر. (المترجم)

"معذرةً، معذرةً، فخامة الرئيس"، قال باركر بحرارة، "تعاطفي ليس مع أيِّ أُمَّة. أعتقد أنك أسأت فهم الفكر المعاصر. لا نعترض على اندفاع وتهوُّر الجمهوريات مثل جمهوريتك، فقط لتصبح أكثر تهوُّرًا على نطاق أوسع. لا نُدين نيكاراجوا؛ ذلك أننا نعتقد أن بريطانيا يجب أن تكون أكثر نيكاراجوانيَّةً. لسنا ضد معنويات القوميات الصغيرة؛ ذلك أننا نتمنَّى أن تتمتَّع القوميات الكبيرة بكل صِغَرها، بكل تجانسها في التطلُّعات، بكل إسرافاتها في الروح. إذا كان لي أن أختلف مع السِّمة الأكبر لحماسكم النيكاراجويَّاني؛ فهذا ليس لأن أُمَّةً أو عشر أُمَم كانت ضدَّكم؛ بل لأن الحضارة كانت ضدكم. نحن المعاصرين نؤمن بحضارة كوزموبوليتانيَّة عظيمة، حضارة واحدة تضمُّ كل مواهب الشعوب المندمجة معًا...".

"ليسامحني السنيور"، قال الرئيس. "هل لي أن أسأل السنيور كيف يمكنه -في الظروف الاعتيادية- الإمساك بحصان جامح؟".

"لا أمسك أبدًا بالأحصنة الجامحة"، أجاب باركر بكبرياء.

"بالضبط"، قال الآخر، "وهذا ينهي استيعابك ودمجك لكل المواهب. هذا ما أعترض عليه في كوزموبوليتنيَّتِكَ. عندما تقول إنك ترغب في اتحاد جميع الشعوب؛ فأنت تعني في الحقيقة أنك ترغب في اتحاد جميع الشعوب حتَّى يتعلَّموا خُدع وأساليب شعبك. إذا لم يعرف العربيُّ البدويُّ كيف يقرأ؛ فإنه يتوجَّب إرسالُ مُبشِّرٍ أو مُعلِّم انجليزي ما لتعليمه القراءة، لكن لا أحد يقول أبدًا "هذا المعلِّم لا يجيد ركوب الجِمال؛ لندفع إلى البدوي مقابل تعليمه". تقول إن حضارتك ستضمُّ كل المواهب. أليس كذلك؟ هل تعني حقًّا القول إنه في اللحظة التي يتعلَّم فيها الإسكيمو كيفية التصويت لمجلس مقاطعة؛ ستتعلَّم أنت على الفور كيف تصطاد فيل البحر بُرمحٍ؟ لأكرر المثال الذي قدَّمتُه: في نيكاراجوا لدينا طريقة للإمساك بالأحصنة الجامحة،

عبر لَفِّ الأنشوطة على الساقين الأماميَّتَين، وهذه هي أفضل طريقة في أمريكا الجنوبية. إذا كنت ستضمُّ جميع المواهب؛ انطلِقْ وافعَلْ ذلك، وإلَّا فاسمح لي بقول ما أقوله دائمًا: إن شيئًا ما خرجَ من العالَم عندما كانت نيكاراجوا متحضِّرة".

"شيء ما، ربما"، أجاب باركر، "لكن ذلك الشيء ليس سوى مهارة بربرية. لا أعرف إن كان بإمكاني تقطيع حجر الصوان إلى رقاقات كالإنسان البدائي، لكنني أعرف أن الحضارة بإمكانها صنع هذه السكاكين وهي أفضل، كما أنني أثق في الحضارة".

"لديك حُجَّة وجيهة"، أجاب النيكاراجويِّاني. "العديد من الرجال الحاذقين أمثالك يثقون في الحضارة. العديد من البابليِّين الحاذقين، العديد من المصريِّين الحاذقين، العديد من الرجال الحاذقين في نهاية عصر روما. هل بإمكانك إخباري، في عالَمٍ آثمٍ بإخفاقات الحضارات، ما الشيء الخالد بالتحديد لديكم؟".

"أعتقد، فخامة الرئيس، أنك لم تفهم جيدًا ما لدينا"، أجاب باركر. "تحكم على الأمر كما لو أن انجلترا ما تزال جزيرةً فقيرة ومولعة بالقتال. لقد ابتعدتَ عن أوروبا لزمن طويل. أمورٌ كثيرة وقَعَت".

"وماذا ترى"، سأل الآخر، "خلاصةً لكل هذه الأمور؟".

"خلاصة هذه الأمور"، أجاب باركر بحماس كبير، "هي أننا تخلَّصنا من الخرافات، وليس فقط من الخرافات الأكثر تفشِّيًا والموسومة بالحماسة الأكبر. إن خرافات القوميات الكبيرة أمرٌ سيِّئ، لكن خرافات القوميات الصغيرة أكثر سوءًا. خرافة تقديس بلدنا أمرٌ سيِّئ، لكن خرافة تقديس بُلدان الشعوب الأخرى أكثر سوءًا. هكذا الأمر في كل مكان، وبمائة طريقة. خرافة الملَكِيَّة أمر سيئ، وخرافة الأرستقراطية أمر سيئ، لكن خرافة الديمقراطية أسوؤها جميعًا".

فتح الچنتلمان العجوز عينيه مُتفاجئًا بعض الشيء.

"لم تعودوا إذن"، قال، "ديمقراطيَّةً في انجلترا؟".

ضحكَ باركر.

"الموقف يثير مفارقةً"، قال. "نحن بمعنى ما أنقى الديمقراطيات. أصبحنا دكتاتوريَّةً. ألا تلاحظ كيف تتحوَّل الديمقراطية طوال التاريخ إلى دكتاتورية باستمرار؟ يدعو الناس ذلك باضمحلال الديمقراطية. لكنه ليس سوى تحقُّقها. لماذا نتكبَّد العناء لإحصاء وتسجيل ومنح حقِّ الاقتراع إلى كل المُسمَّين "چون روبنسون" الذي لا يُحصَوْن، في حين بمقدورك أخذ چون روبنسون واحد يتمتَّع بنفس ذكاء أو غباء البقيَّة بالضبط، وتكتفي بهذا؟ كان الجمهوريُّون المثاليون القدماء يؤسسون الديمقراطية على فكرة أن كل الرجال أذكياء بنفس القَدْر. صدِّقني، الديمقراطية الحكيمة والراسخة مؤسَّسة على حقيقة أن كل الرجال حمقى بنفس القدر. لماذا ينبغي لنا أن نختار واحدًا منهم بعينه وليس آخر. كل ما نريده للحكومة مجرَّد رجل واحد ليس مجرمًا أو مجنونًا، بمقدوره النظر سريعًا في الالتماسات وتوقيع بعض القرارات. فكِّر في الوقت الذي أضعناه في المجادلات بشأن مجلس اللوردات، المحافظون يقولون إنه ينبغي الحفاظ عليه لأنه كان حاذقًا، والراديكاليُّون يقولون إنه ينبغي تدميره لأنه كان غبيًّا، وطوال الوقت لا يرى أحد أنه كان مناسبًا لأنه كان غبيًّا؛ لأن طُغمة الرجال العاديين الذي تَصادَف أن أُلقيَ بهم هناك بصدفة الدَّم، كانوا احتجاجًا ديمقراطيًّا عظيمًا ضد مجلس العموم، ضد الغطرسة الأبدية لأرستقراطية المواهب. أي أننا أسَّسنا الآن في انجلترا الشيء الذي تتقدَّم نحوه جميع الأنظمة بعَماء، الدكتاتورية الشعبية المتثاقلة بلا أوهام. نريد رجلًا على رأس دولته، ليس لأنه متألِّقًا أو فاضلًا، لكن لأنه رجلٌ واحد وليس حشدًا مُثرثرًا. ولتحاشي الصُّدفة المحتملة للأمراض الوراثية وما شابهها؛ تخلَّينا عن الملكية الوراثية. يتمُّ اختيار ملك انجلترا وكأنه عضو في قائمة مُحلَّفين

دوَّارة رسمية. بخلاف ذلك، فإن النظام بأكمله دكتاتوريٌّ صامت، لم نجد أنه يثير همهمة واحدة".

"هل تعني حقًّا"، سأله الرئيس مُتشكِّكًا، "أنكم تختارون أيَّ رَجُلٍ عاديٍّ تجدونه وتجعلونه دكتاتورًا- أنكم تثقون بصدفة قائمة أبجدية ما...".

"ولِمَ لا؟" هتف باركر. "ألم تضع نصف الأمم التاريخية ثقتها في صُدفَة الأبناء الأكبر للأبناء الأكبر، وألم يستمرَّ نصفهم في حُكمه بشكل معقول؟ النظام ذو الكمال أمر مستحيل، ولا غنى عن وضع نظامٍ ما. جميع الملكيَّات الوراثية كانت مسألةَ حَظٍّ: وكذلك الملكيات الأبجدية. هل بمقدورك أن تجد معنًى فلسفيًّا عميقًا في الفرق بين آل ستيوارت وآل هانوفر؟ صدِّقني، أعِدُكَ بأن أجد معنًى فلسفيًّا عميقًا في التبايُن بين التراچيديا السوداء لحروف (A) والنجاح الراسخ لحروف (B)".

"وتخاطر بالأمر كلِّه؟" سأله الآخر. "رغم أن الرجل قد يكون طاغيةً أو تشاؤميًّا أو مجرمًا".

"سنُخاطر بذلك"، أجاب باركر، بهدوء مطلق. "لنفترض أنه طاغية... ما يزال مانعًا لمائة طاغية. لنفترض أنه تشاؤمي، فمن مصلحته أن يحكم برُشدٍ. لنفترض أنه مُجرم... عبر انتزاع الفقر واستبدال السُّلطة، سنوقف إجرامه. اختصارًا: عبر استبدال الدكتاتورية يمكننا وضع قيدٍ شاملٍ على مجرم واحد، وقيدٍ جزئيٍّ على البقيَّة".

انحنى الچنتلمان العجوز النيكاراجويِّاني بتعبير عجيب في عينيه.

"كنيستي يا سيدي"، قال، "علَّمتْني أن أحترم العقيدة. لا أرغب في التحدُّث بأي سوء عن عقيدتك، مهما كانت خيالية. لكن هل تعني حقًّا أنكم على استعداد لوضع ثقتكم في الرجل العادي، الرجل الذي قد يأتي تاليًا، كديكتاتور صالح؟".

"هـذا مـا أعنيـه"، قـال باركـر ببسـاطة. "قـد لا يكـون رجـلًا صالحًـا. لكنـه سـيكون دكتاتـورًا صالحًـا. لأنـه عندمـا ينخـرط في شـؤون الحكـم المُجـرَّدَة سـيحاول جاهـدًا فـرض العدالـة العاديـة. ألا تفـترض نفـس الـشيء في هيئـة مُحلَّفـين؟".

ابتسم الرئيس العجوز.

"لا أعـرف"، قـال لهـم، "إن كان لـديَّ أي اعـتراض بعينـه عـلى نظـام حكومتـك الممتـاز. اعـتراضي الوحيـد شـخصيٌّ تمامًـا. وهـو، إذا سـألني أحدهـم إن كنـت أرغـب أن أنتمـي إليـه، فعلـيَّ أن أسـأل أوَّلًا: هـل يسـمح لي -بـدلًا مـن ذلـك- أن أكـون ضفدعًـا في حفـرة؟ هـذا كل مـا في الأمـر. لا يمكنـك المجادلـة مـع اختيـار الـروح".

"عـن الـروح"، قـال باركـر، عاقـدًا حاجبيـه، "لا يمكننـي زعـم قـول أي شيء، سـوى التحـدُّث بمـا يخـدم مصالـح العامَّـة...".

نهض السيد أوبيرون كوين واقفًا بغتةً.

"إذا سمحتم لي يا سادة"، قال لهم، "سأخرج إلى الهواء قليلًا".

"آسف جدًّا يا أوبيرون"، قال لامبرت بلُطف، "هل تشعر بسوء؟".

"ليـس بسـوء تمامًـا"، قـال أوبـيرون مُتحفِّظًـا، "لكننـي عـلى مـا يـرام بالأحـرى. بشـكل عجيـب وعميـق. الحقيقـة هـي أننـي أرغـب في التأمُّـل قليـلًا في هـذه الكلـمات الجميلـة التـي قيلـت لتوِّهـا. (التَّحـدُّث)، نعـم، تلـك كانـت العبـارة، (التَّحـدُّث بمـا يخـدم مصالـح العامَّـة). لا يمكـن للمـرء جَنْـيُ العسـل مـن أشـياء كهـذه دون أن ينفـرد بنفسـه قليـلًا".

"هل فقد عقله حقًّا في رأيك؟" سأل لامبرت.

تطلَّع الرئيس العجوز في إثره بعينين مُتربِّصتَين على نحو عجيب.

"أعتقـد أنـه رجـل"، أجابـه، "لا يهتـم بـشيء سـوى بالمَزحـات. إنـه رجـل خطير".

ضحكَ لامبرت بينما يرفع بعض المكرونة إلى فمه.

"خطير!" قال. "لا تعرف كوين الضئيل جيِّدًا يا سيدي!".

"كل رجل هو رجُلٌ خطير"، قال الرجل العجوز دون أن يتحرَّك، "عندما يهتمُّ بشيء واحد فحسب. أنا نفسي كنتُ خطيرًا ذات مرة".

وبابتسامة مبتهجة أنهى قهوته ونهض، منحنيًا بشدَّة، وماضيًا إلى داخل الضباب، الذي كان ازداد كثافةً وقتامةً مجدَّدًا. بعد ذلك بثلاثة أيَّام سمعوا أنه ماتَ بهدوء في المساكن المستأجرة في سوهو.

غارقًا في موضعٍ آخر في بحر الضباب المظلم، كان شكلٌ بشري ضئيل يرتعش ويرتجف، بما يبدو عند النظرة الأولى رعبًا أو حُمَّى: لكنه كان في الحقيقة ذلك المرض العجيب: ضحكة إنسان وحيد. كان يقول لنفسه مرارًا وتكرارًا بنبرة قويَّة... "سوى التحدُّث بما يخدم مصالح العامَّة...".

الفصل الثالث

تلُّ السُّخريات المَرِحة

"في الحديقة المربَّعة الصغيرة ذات الزهور الصفراء، بجوار البحر"، قال أوبيرون كوين، "كان يعيش قسٌّ مُنشقٌّ لم يَزُر ويمبلدون أبدًا. لم تستطع عائلته فهمَ سبب أحزانه أو النظرة الغريبة في عينيه. لكنهم أعلنوا ذات يوم ندمهم على إهمالهم له؛ ذلك أنهم سمعوا أن جُثَّةً قد وُجِدَت على الشاطئ، مُمزَّقة الملابس، لكنها ترتدي حذاءً جلديًّا. اكتشفوا في النهاية أنها لم تكن جُثَّة القسِّ على الإطلاق. لكن في جيب الرجل الميِّت كانت هناك تذكرة عودة إلى ميدستون".

حلَّ صمتٌ لفترة وجيزة فيما يمضي كوين وصديقاه باركر ولامبرت متمايلين عبر العُشب المُوحل لحدائق كنسينجتون. ثم استأنف أوبيرون الحديث.

"تلك القصة"، قال بوقار، "هي اختبار لفن السخرية".

ساروا أبعد وأسرع، خائضين في العُشب المرتفع بينما يشرعون في تسلُّق المنحدر.

"أعتقد"، تابع أوبيرون، "أنكم اجتزتم الاختبار، وأنكم ترون تلك الحكاية طريفة بشكل مُفرِط؛ بما أنكم لم تقولوا شيئًا. وحدها الدعابات الفجَّة تجد تصفيقًا جديرًا بالحانات. لكن هذه الحكاية العظيمة لم تجد غير الصمت، وكأنها تبريكٌ كَنَسيٌّ. تشعر أنك مُبرَّكٌ بشدَّة، يا باركر، أليس كذلك؟".

"أرى ما تعنيه"، قال باركر، بتعالٍ بعض الشيء.

"هل تعرف"، قال كوين، بشكلٍ من ابتهاج الحمقى، "أن لديَّ كثيرًا من القصص الجيدة من هذا النوع. أنصِتْ إلى هذه".

ثم تنحنحَ قليلًا.

"كان دكتور بوليكراب، كما تعرفون جيدًا، مؤيدًا للنظام النقدي الثنائي، شاحبًا بشكل غير معتاد. "ها هو"، كان الناس ذوو الخبرة الواسعة يقولون، "مؤيد النظام النقدي الثنائي الأكثر شحوبًا". قيل هذا ذات مرة حتَّى يسمعه: قيلَ على لسان خبير إحصائي، تحت غروب رمادي، بنفسجي. استدار بوليكارب إليه. "شاحب!"، هاتفًا باهتياج، "شاحب! Quis tulerit Gracchos de seditine querentes"[1]، قيلت بغضبٍ، لحدٍّ أنه لم يجرؤ أي خبير إحصائي أبدًا على السخرية من دكتور بوليكارب ثانيةً".

أومأ باركر بحكمةٍ بريئة. لم يفعل لامبرت سوى أن نخرَ.

---

(1) "من يجرؤ على تحمُّل غضب جراكوس من التمرُّد؟"، من "هزليات" چوفينال، شاعر روماني قديم، والعبارة تشير إلى الاضطراب السياسي الذي تسبَّبَت فيه إصلاحات تيبريوس جراكوس في الجمهورية الرومانية القديمة. (المترجم)

"هاكم أخرى"، استمرَّ كوين الشِّرِه. "في فجوة في التلال الخضراء- الرمادية لأيرلندا المطيرة، كانت تعيش امرأة عجوز جدًّا، كان عمُّها دائم الفوز في سباق القوارب. لكن في فجوتها الخضراء- الرمادية، لم تكن هي تعلم شيئًا عن ذلك: لم تكن تعلم أصلًا بوجود سباق للقوارب. وكذلك لم تعلم أن لها عمًّا. لم تسمع عن أحد عن الإطلاق، باستثناء چورچ الأول (لا أعرف لماذا)،وفي ذاكرته التاريخية وضَعَت ثقتها البريئة. وأخيرًا عندما شاء الرَّبُّ، ظهرَ أن عمَّها لم يكن عمَّها حقًّا، وجاؤوا وأخبروها بذلك. ابتسَمَت من بين دموعها، ولم تَقُل سوى: "خير ثواب للفضيلة فِعْلها"".

غشيهم الصمت مُجدَّدًا، ثم قال لامبرت:

"تبدو غامضة قليلًا".

"غامضة!" هتف الآخر. "الدعابة الحقيقية غامضة. ألا تعرف الواقعة الكبيرة للقرنين التاسع عشر والعشرين؟".

"وما هي؟"، سأله لامبرت باقتضاب.

"إنها بسيطة جدًّا"، أجاب الآخر. "قبل ذلك الزمن كان تدمير النُّكتة يحدث عندما لا يفهمها الناس. الآن فالانتصار السامي لنُكتةٍ هو ألَّا يفهمها الناس. السخرية المرحة، يا صديقَيَّ، هي القداسة الوحيدة المتبقِّية للنوع البشري. هي الشيء الوحيد الذي نخشاه بالكامل. انظرا إلى تلك الشجرة".

تطلَّعَ مُحدِّثاه ببلاهة نحو شجرةٍ تميل نحوهم من حافَّة التَّلِّ.

"لو قلتُ"، قال السيد كوين، "إنكما لا تدركان الحقائق العلمية العظيمة البادية في تلك الشجرة، رغم أنها تحدِّق في أيِّ إنسان ذي عقل في وجهه؛ فماذا ستظنَّان أو تقولان؟ لن تريني سوى مُتحذلق بنظرية عديمة الأهمية حول الخلايا النباتية. لو قلتُ إنكما لم تريا في

تلك الشجرة العشوائيّة القبيحة للسياسة المحلية؛ فحتمًا ستعتقدان أنني اشتراكيٌّ مهووس بتقليعة عجيبة ما حول الحدائق العامة. لو قلتُ إنكما مذنبان بالتجديف الأعظم بنظركما إلى تلك الشجرة وعدم رؤية دينٍ جديدٍ فيها كشْفًا فريدًا من الرَّبِّ؛ فستقولان ببساطة أنني متصوِّف، ولن تفكِّرا بشأني ثانيةً. لكن إذا قلتُ" -ورفع يدًا بابويَّةً- "إنكما عاجزان عن رؤية السخرية المرِحة في تلك الشجرة، وأنني أرى ما فيها من سخرية... يا إلهي! فستتمرَّغان عند قدمَيَّ".

توقَّف لبرهة، ثم تابع حديثه.

"نعم، حسُّ السخرية، حسُّ السخرية العجيب والرفيع، هو الدين الجديد للنوع البشري! وصولًا إليها سيُضني البشر أنفسهم بزُهدِ القدِّيسين. التمرينات، التمرينات الروحانية، ستظهر. سيُطرح سؤال "هل يمكن رؤية سخرية سياج الحديد هذا؟"، أو "هل يمكنك رؤية سخرية حقل الذُّرَة هذا؟ هل يمكنك رؤية سخرية النجوم؟ هل يمكن رؤية سخرية غروبات الشمس؟" كم ضحكتُ حتَّى النوم، تحت غروبٍ بنفسجي".

"هكذا الأمر بالضبط"، قال السيد باركر، بارتباكٍ واضح.

"لأحكي لكما قصَّةً أخرى. كم يحدث كثيرًا أن يكون أعضاء البرلمان عن إيسكس أقل انضباطًا ممَّا يُفترض. ربما كان چيمس ويلسون هو عضو البرلمان في إيسكس الأقل انضباطًا في مواعيده، وقد قال ذات مرة، بينما ينتزع نبتة أفيون...".

استدار لامبرت بغتةً وضرب عصاه على الأرض بأسلوب مُتحدٍّ.

"أوبيرون"، قال له، "كفى. لم أعُد أتحمَّل. كل هذا هراء".

حدَّق كلا الرجلين فيه؛ ذلك أنه كان هناك شيءٌ انفجاريٌّ للغاية في كلماته، كما لو كانت كُبِحَت بشكل مؤلم لفترة طويلة.

"ليس لديك"، قال كوين، "أيُّ...".

"لا أهتمُّ البتَّة"، قال لامبرت باهتياجٍ عنيف، "إن كان لديَّ أيُّ حسٍّ سخرية أم لا. لن أتحمَّل. كل هذا تدليس مَقيت. لا توجد أي نُكتة في كل هذه الحكايات الجحيمية على الإطلاق. تعرف ذلك كما أعرف تمامًا".

"حسنًا"، أجابه كوين ببطء، "صحيح أنني -عبر عملياتي العقلية المتأنِّية نوعًا- لا أرى أي نُكتةٍ فيها. لكنَّ الحِسَّ الأكثر رُقيًّا لدى باركر أدرك وجودها".

تحوَّل وجه باركر إلى الأحمر الصارخ.

"أنت أيُّها الأحمق"، قال لامبرت، "لماذا لا تكون كبقية البشر؟ لماذا لا تقول شيئًا مَرحًا حقًّا، وإلا فلتُمْسِكْ لسانك؟ الرجل الذي يجلس على قُبَّعته في مسرحيةٍ إيمائية أكثر ابتهاجًا منك بأشواط".

نظر كوين إليه بثبات. كانوا قد وصلوا إلى قمة الحافَّة وبدأت الرياح في ضرب وجوههم.

"لامبرت"، قال أوبيرون، "أنت رجل صالح وعظيم، لكن أشكُّ أنك ترى ذلك. أنت أكثر من ذلك. أنت ثوريٌّ أو مُخلِّص عظيم للعالَم، وأتطلَّع لرؤيتك منحوتًا بالرخام بين لوثر ودانتون -إذا أمكن ذلك بمظهرك الحالي- قبُّعتك مائلةً على أحد الجانبين. قلتُ بينما أصعد التَّلَّ إن السخرية الجديدة هي آخر الأديان. جعلتَ منها آخر الخرافات. لكن لأمنحك تحذيرًا جادًّا أخيرًا. كُن حَذِرًا عندما تطلب منِّي القيام بأي شيء شاذٍّ وغرائبي، أو تقليد الرجل في المسرحية الإيمائية، أو الجلوس على قُبَّعتي. لأنني رجل أُفرِغَت روحه من كل شيء عدا الحماقة. مقابل بنسين أرتكبُها".

"ارتكِبْها إذن"، قال لامبرت، مؤرجحًا عصاه بنفاد صبر. "سيكون ذلك أكثر مرحًا من الهراء الذي تتحدَّث به أنت وباركر".

مدَّ كوين، واقفًا على قمَّة التَّلِّ، يده نحو الشارع الرئيسي لحدائق كنسينجتون.

"على بُعد مائتي ياردة"، قال لهما، "يقبع كل معارفك المتأنِّقين بلا شيء يفعلونه سوى التحديق في بعضهم البعض، وفينا. نقف على مُرتفع تحت السماء المفتوحة، ذروة الخيال ربما، سيناء السخرية المرحة. نحن على منبر أو مسرح عظيم، مُضاء بنور الشمس، ونصف لندن يمكنه رؤيتنا. كُن حَذِرًا كيف تُوحي بالأشياء إليَّ؛ ذلك أنني أحوي جنونًا يتجاوز حدود الاستشهاد، جنون رجُلٍ كسول تمامًا".

"لا أعرف عن ماذا تتحدَّث"، قال لامبرت باستهزاء. "لا أعرف سوى أنه من الأفضل لي أن تقف على رأسك العقيم، بدلًا من التحدُّث كثيرًا".

"أوبيرون! بحقِّ السَّماء..." هتف باركر، واثبًا للأمام، لكنه تأخَّرَ كثيرًا. وجوهٌ من كل المقاعد والشوارع استدارت في اتجاههم. توقَّفَت مجموعات وتكوَّنَت حشودٌ صغيرة، وأبرزَ ضوء الشمس الحادُّ المشهدَ بأكمله بالأزرق والأخضر والأسود، كصورة في كتيِّب ألعاب للأطفال. على قِمَّة التَّلِّ الصغيرة كان السيد أوبيرون كوين يقف بأناقةٍ رياضية ملحوظة على رأسه، ويلوِّح بحذائه الجلدي في الهواء.

"بحقِّ الرَّبِّ يا كوين، انهض، ولا تكن أحمق"، هتف باركر، معتصرًا يديه، "سنجد المدينة بأكملها هنا".

"نعم، انهض، انهض يا رجل"، قال لامبرت، مبتهجًا وحانقًا. "كنتُ أمزح فحسب... انهض".

اعتَدَل أوبيرون واثبًا، وطوَّحَ بقُبَّعته أعلى من الأشجار، واستمرَّ في التقافُز بساقٍ واحدة وتعبير جادٍّ على وجهه. كان باركر يضرب بخطواته الأرض مُنفعلًا.

"أوه، لنذهب إلى البيت يا باركر، ونتركه"، قال لامبرت، "بعضٌ من رجال شرطتكم النزيهين والقويمين سيأتون بحثًا عنه. ها هم قادمون!".

ظهرَ رجُلان ذوا مظهر وقور بأزياء خامدة صاعدَين التَّلَّ نحوهم. أحدهما كان يحمل ورقةً في يده.

"ها هو، أيُّها الضابط"، قال لامبرت، مبتهجًا، "لسنا مسؤولَين عنه".

تطلَّعَ الضابط إلى السيد كوين الواثب بعينٍ هادئة.

"لم نأتِ يا سادة"، قال لهم، "بشأن ما أظن أنَّكما تُلمِّحان إليه. أتينا من المخفر الرئيسي لإعلان اختيار جلالته كملك. ينصُّ القانون، الذي ورثناه من النظام القديم، على إبلاغ الملك الجديد بالأخبار فورًا، أينما كان؛ لذلك تبعناكم عبر حدائق كنسينجتون".

كانت عينا باركر تتوهَّجان في وجهه الشاحب. كان مُنهكًا بفعل الطموح طوال حياته. بوفرةٍ باهتة من الحِكمة، كان قد آمن حقًّا بالطريقة العشوائية لاختيار الدكتاتوريِّين. لكن هذا التلميح المباغت (أن الاختيار قد يقع عليه) أنهك أعصابه بالابتهاج.

"أيُّنا..." بدأ في القول، لكن المسؤول المهيب قاطعه.

"لستَ أنت يا سيدي، يؤسفني القول. إذا سُمِحَ لي بالقول، فنحن نعرف خدماتك إلى الحكومة، وشاكرين جدًّا لها. لقد وقع الاختيار على...".

"ليُبارك الرَّبُّ روحي!" قال لامبرت، قافزًا خطوتين إلى الوراء. "ليس أنا. لا تَقُل إنني طاغيةُ كلِّ أرضٍ تُسمَّى "روسيا"".

"لا يـا سـيدي"، قـال الضابـط، بسَـعلَةٍ خافتـة ونظـرة خاطفـة إلى أوبـيرون، الـذي كان في تلـك اللحظـة يضـع رأسـه بـين سـاقَيْن ويُصـدر ضجيجًـا كالأبقـار، "الچنتلـمان الـذي أتينـا لتهنئته يبـدو... إحم... مشـغولًا".

"ليـس كويـن!" صرخ باركـر، هارعًـا نحـوه، "هـذا لا يمكـن. أوبـيرون، بحـقِّ الـرب، تمالَـكْ نفسـك. لقـد نُصِّبـتَ ملـكًا!".

برأسه ما يزال مقلوبًا بين ساقيه، أجابه السيد كوين بتواضُع:

"لا أسـتحقُّ. لا يمكننـي أن أزعـم بعقلانيـة أننـي نـدٌّ للرجـال العُظَـماء الذيـن لوَّحـوا بصولجـان بريطانيـا في المـاضي. الميـزة الوحيـدة التـي قـد أدَّعيهـا هـي أننـي ربمـا أول ملـكٍ سيكشـف عـن روحـه إلى شـعب انجلـترا برأسـه وجسـده في هـذا الوضـع. ربمـا يمنحنـي هـذا بشـكلٍ مـا، ولأقتبـس القصيـدة التـي كتبتهـا في شـبابي:

"مَنصبًا على الأرض، أكثر نُبلًا

ممَّا قد تمنحه الشجاعة، وقوة العقل، والميلاد،

لملوك الزمن القديم المحاربين[1]

كان المُفكِّر يقصد بهذه الحالة المزاجية...".

أبدى لامبرت وباركر ما يشبه الاندفاعة ناحيته.

"ألا تفهـم؟" هتـف لامبرت. "هـذه ليسـت نُكتـة. جعلـوك ملـكًا حقًّـا. يـا إلهـي! لا بُـدَّ أنهـم كانـوا يحتسـون الـرَّمَّ".

"الأسـاقفة العظـماء في العصـور الوسـطى"، قـال كويـن، راكلًا الهـواء سـاقيه، بينـما كان يُجَـرُّ وهـو مقلـوب تقريبًـا، "كانـوا معتادين عـلى رفـض شرف الانتخـاب ثـلاث مـرَّات ثـم قبولـه. مجـرَّد مسـألة شـكلية تفصلنـي عـن هـؤلاء الرجـال العظـماء. سـأقبل المنصـب ثـلاث مـرَّات ثـم أرفضـه

(1) القصيدة لألفريد لورد تينيسون. (المترجم)

لاحقًا. أوه! سأشقى من أجلكم، يا شعبي المُخلِص! ستنالون مأدبةً من السخريات".

في هذه اللحظة كان قد هبط منتصبًا بالطريقة الصحيحة، والرجلان ما يزالان يحاولان -بلا طائل- إقناعَه بخطورة الموقف.

"ألم تَقُل لي، ويلفريد لامبرت"، قال له، "إنني سأحظى بقيمة أكبر لدى العامَّة لو تبنَّيتُ شكلًا أكثر شعبيةً من السخرية؟ وهل هناك أنسب من الآن لتتجذَّر داخلي صورةٌ شعبيةٌ من السخرية، وقد صرتُ معشوقًا للشعب بأكمله؟ أيُّها الضابط"، تابع حديثه، مخاطبًا الرسول المذهول، "ألا توجد شكليات رسمية للاحتفال بدخولي إلى المدينة؟".

"هذه الشكليات"، قال المسؤول مرتبكًا، "ستُهمَل بعض الشيء لوقت قصير، وكذلك...".

شرعَ أوبيرون كوين في انتزاع معطفه ببطء.

"كل الاحتفالات"، قال، "تتكوَّن من معكوس الواضح؛ بهذا فإن الرجال، عندما يرغبون في أن يكونوا قساوسة أو قضاة، يرتدون أزياءً كالنساء. ساعِدني رجاءً في هذا المعطف". ثم ناوله إيَّاه.

"لكن، جلالتك"، قال الضابط، بعد برهة من الحيرة والمناورة، "أنت ترتديه بالذيل في المقدمة".

"معكوس الواضح"، قال الملك بهدوء، "هو أقرب شيء في أيدينا إلى الطقوس بالنظر إلى أدواتنا المنقوصة. تقَدَّمْ الطريق".

كانت بقيَّة تلك الظهيرة وتلك الأمسية بمثابة كابوس بالنسبة لباركر ولامبرت، وهو كابوس كانا عاجِزَيْن عن إدراكه أو تذكُّره بشكل سليم. انطلق الملك، مرتديًا معطفه بطريقة خاطئة، نحو الشوارع التي كانت تنتظره، وقصر كنسينجتون القديم الذي كان مَقرَّ الإقامة الملكية. وفيما يمرُّ بمجموعات صغيرة من الرجال، تحوَّلَت المجموعات

إلى حشـود، وأطلَقَـت أصواتًـا بَـدَت عجيبـة في الترحيـب بمُسـتبدٍّ. كان باركـر يسـير مُتأخِّـرًا، عقلـه يترنَّـح، ومـع ازديـاد الحشـود كثافـةً، ازدادت الأصـوات المُنطلقـة غرابـةً. وعندمـا وصـلَ الملـك إلى مـكان السـوق الكبـير قُبالـة الكنيسـة، أدركَ باركـر ذلـك الوصـول، رغـم أنـه كان متأخـرًا بمقـدار صُلبـانٍ كثـيرة، عـبر صيحـةٍ انطلقـت كـما لم يحـدث مـن قبـل قـطُّ في تحيَّـةِ أيٍّ مـن ملـوك الأرض.

الكتاب الثاني

الفصل الأول

ميثاق المدن

كان لامبرت يقف مذهولًا خارج بوابة بناية الملك وسط معمعمة الاندهاشات والسخريات في الناحية الأخرى من الشارع. كان على وشك عبور الشارع، مدوَّخًا، عندما اندفع چيمس باركر من جواره.

"إلى أين تذهب؟" سأله.

"لإيقاف هذه الحماقة، بالطبع"، أجابه باركر، واختفى إلى داخل القاعة.

دلف إليها مُسرعًا، صافقًا الباب، وخابطًا قبَّعته الحريرية التي لا مثيل لها على المنضدة. انفتح فمه، لكن قبل أن يتمكَّن من التحدُّث، قال له الملك:

"قُبَّعتك، من فضلك".

مُحـرِّكًا أصابعـه بعصبيـة، ومُـدركًا بالـكاد لمـا يفعلـه، مـدَّ السـياسي الشـابُّ قُبَّعتـه.

وضعَها الملك على مقعده، وجلس عليها.

"عـادة قديمـة طريفـة"، قـال مُفـسِّرًا، ومُبتسـمًا مـن فـوق الأنقـاض. "عندمـا يسـتقبل الملـك ممثِّـلي مجلـس باركـر، فـإن قبَّعـة الأخـير يتـمُّ تدميرهـا عـلى الفـور بهـذه الطريقـة. وهـو مـا يمثـل النهائيـة المطلقـة لفعـل المبايعـة الـذي يُعـبِّر عنـه بنزعهـا. يضمـن هـذا أيضًـا أنـه أبـدًا حتـى تظهـر تلـك القبعـة مجـدَّدًا عـلى رأسـك (احتماليـة أؤمـن بقـوَّة أنهـا ضئيلـة للغايـة) لـن يثـور مجلـس باركـر ضـد تـاج انجلـترا".

كان باركر يقف بقبضةٍ مضمومة، وشفتين مُرتعشتَين.

"مَزحاتـك"، شرع في القـول، "وممتلـكاتي..."، ثـم انفجـر بالسـباب، وتوقَّـف مُجـدَّدًا.

"استمِرّ، استمِرّ"، قال الملك، ملوِّحًا بيديه.

"مـاذا يعنـي كل هـذا؟"، هتـف الآخـر، بإيمـاءة مـن العقلانيـة المُتَّقـدة. "هـل أنـت مجنـون؟".

"لا، مُطلقًـا"، أجابـه الملـك مبتهجًـا. "المجانـين عـادةً مـا يكونـوا جادِّيـن، يصابـون بالجنـون بسـبب افتقادهـم لحـسِّ السـخرية. تبـدو جـادًّا للغايـة الآن يـا چيمـس".

"لمـاذا لا يمكنـك فحسـب إبقـاء الأمـر في حياتـك الخاصـة؟" جـادلَ الآخـر. "لديـك الكثـير مـن المـال، الكثـير مـن المنـازل لتلعـب دور الأحمـق داخلهـا، لكـن مصالـح العامَّـة...".

"أبيجراميَّـةٌ لاذعـة"، قـال الملـك، هـازًّا إصبعـه بحـزن ناحيتـه. "ليسـت أيًّـا مـن ومضاتـك الجريئـة هـذه. أمَّـا لمـاذا لا أفعـل ذلـك في الخفـاء، فأُفضِّـل ألَّا أفهـم سـؤالك. الإجابـة واضحـة نسـبيًّا. لا أفعـل ذلـك في الخفاء؛

لأنه من الأظرف فعله في العَلَن. يبدو أنك ترى التسلية في الوقار في قاعات المآدب والشوارع، وبجانب مدفأتي ذاتها (يمكنني تدبير مدفأة) لإبقاء الصُحبة مُبتهجةً. لكن هذا ما يفعله الجميع. الجميع وقور في العلن، ومَرِح في الخفاء. حسُّ السخرية لديَّ يستلزم معكوس هذا، ويستوجب أن أكون مَرِحًا في العلن، ومتجهِّمًا في الخفاء. أتوقُ إلى جعل مهام الدولة، وبرلماناتها وتتويجاتها، وما إلى ذلك، مسرحيةً إيمائيةً صاخبة على الطراز القديم. لكن من الناحية الأخرى، سأنزوي وحيدًا في مستودع صغير لساعتين في اليوم، حيث سأجد الوقار لحدٍّ أنني سأخرج مريضًا تمامًا".

في تلك اللحظة كان باركر يخطو جيئةً وذهابًا في القاعة، ومعطفه مشقوق الذيل يخفق كأجنحة طائر أسود.

"حسنًا، بهذا ستُفسِد البلاد، هذا كل ما في الأمر"، قال باقتضاب.

"يبدو لي"، قال أوبيرون، "أن التقليد الذي استمرَّ لعشرة قرون في طريقه للانقطاع، وأن آل باركر يثورون ضد تاج انجلترا. سيكون مصدر ندمي (ذلك أنني مُعجَب بمظهرك) أن أجد نفسي مضطرًّا لتزيين رأسك عنوةً ببقايا تلك القبَّعة، لكن...".

"ما لا أفهمه"، قال باركر، ملوِّحًا بأصابعه بحركة أمريكية محمومة، "هو لماذا لا تهتمُّ بشيءٍ سوى ألعابك".

توقَّف الملك بغتةً بينما يرفع البقايا الحريرية ويلقيها أرضًا، ثم خطا إلى باركر، وتطلَّع إليه بثبات.

"قطعتُ ما يشبه عهدًا"، قال له، "بأنني لن أتحدَّث بجدِّيَّة، بما في ذلك حتمًا الإجابة على الأسئلة السخيفة. لكن الرجل القوي يبقى متساهلًا دومًا مع السياسيين:

(الشكل الذي تزدريه نظراتي الممتعضة احتاجَ إلى ربٍّ لتصويره)[1]، إذا كان لي أن أُعبِّر عن نفسي لاهوتيًّا. ولسبب لا يمكنني فهمه البتَّة، أشعر أنني مُجبَرٌ على إجابة سؤالك، وعلى أن أجيب بطريقةٍ كما لو أن هناك مواضيع جادَّة في العالم حقًّا. تسألني لماذا لا أهتمُّ بأي شيء آخر. هل يمكنك إخباري، باسم كل الآلهة التي لا تؤمن بها، لماذا ينبغي أن أهتم بشيءٍ آخر؟".

"ألا تدرك الضرورات العامَّة المشتركة؟"، هتف باركر. "هل يمكن لرجلٍ في ذكائك ألَّا يعرف أنه من مصلحة الجميع أن...".

"ألا تؤمن بزرادِشْت؟ هل من الممكن أنك تتجاهل اللا معنى؟"، أجابه الملك، بحماسٍ مباغت. "هل يأتي إليَّ رجلٌ في ذكائك حاملًا معه الأخلاقيات الڤيكتورية البدائية اللعينة؟ إذا اكتشفتَ -بتأمُّلِكَ لملامحي وطريقتي- أيَّ تشابُه بعينهِ مع الأمير كونسورت، فتأكَّدْ أنك مُخطئ. هل أقنعكَ هربرت سبنسر قطُّ، أو هل أقنع أي إنسان؟ هل أقنع نفسه للحظة مجنونة واحدة أنه من مصلحة الفرد حتمًا أن يشعر بروح العامَّة؟ هل تؤمن، إذا حكمتَ دائرتكَ على نحو سيئ، أنك ستصادف أي فرصة، أو نصف فرصة، لإعدامك بالمقصلة، وأن مُدبِّر مكائد قد يُجَرُّ إلى النهر بمنخسٍ قوي؟ امتنع هربرت سبنسر عن السرقة لنفس سبب امتناعه عن ارتداء الريش في شَعره؛ لأنه كان چنتلمانًا انجليزيًّا بذائقات مختلفة. أنا چنتلمان انجليزي بذائقات مختلفة. كان يحب الفلسفة. أنا أحب الفن. كان يحب كتابة عشرة كتب عن طبيعة المجتمع البشري. أنا أحب رؤية اللورد تشامبرلين يمشي أمامي بقطعة ورقة مثبَّتة على ذيل معطفه. إنه حسُّ السخرية لديَّ. هل أجبتُ سؤالك؟ على أيِّ حال، لقد قلتُ آخر كلماتي الجادَّة اليوم، وآخر كلماتي الجادة حتمًا في بقية حياتي في جنَّة الحمقى هذه.

---

(1) تنويعة على قصيدة "الدودة" لتوماس جيسبورن: "لا تسْحق تلك الدودة العاجزة؛ فالشكل الذي تزدريه نظراتك المتعالية احتاج إلى ربٍّ لصُنعه". (المترجم)

بالنسبة لبقية محادثتي معك اليوم، التي ستكون طويلة ومثيرة حتمًا، أقترح أن نجريها بلغة جديدة من اختراعي، ذات حركات سريعة ورمزية من الساق اليسرى". وبدأ في الدوران ببطء في أرجاء القاعة بتعبيرٍ مُستغرقٍ.

هرع باركر في إثره، ممُطرًا إيَّاه بالطلبات والالتماسات. لكنه لم يتلقَّ غير إجابات باللغة الجديدة. خرجَ صافعًا الباب مجدَّدًا، وسقيمًا كرجل طرحه البحر. بينما يخطو عبر الشوارع وجد نفسه بغتةً قُبالة مطعم كيكوناني، ولسبب ما انتصب أمامه هناك الشكل الفانتازيُّ الأخضر للچنرال الإسباني، واقفًا، كما رآه آخر مرَّة، عند الباب، بالكلمات جاهزةً على شفتيه، "لا يمكنك التجادل بشأن اختيارات الروح".

انتهى الملك من رقصه بسيماء رجل أعمال يحقُّ له الشعور بالإرهاق. ارتدى معطفًا، أشعل سيجارًا، وانطلق خارجًا إلى الليل الأرجواني.

"سأنطلق"، قال لنفسه، "لأختلط بالشعب".

انطلق مُسرعًا عبر شارعٍ في حيٍّ نوتنج هيل، عندما شعر بغتةً بشيءٍ صلب يندفع داخل صدريَّته. توقَّف، وضع عويناته الأحادية، ولمح صبيًّا بسيفٍ خشبي وقبعة من الورق المنبعج، على وجهه تعبيرٌ من الرضا الخائف الذي يتأمَّل به الأطفال إنجازهم بعد ضرب أحدهم بشدَّة. حدَّقَ الملك متفكِّرًا لبعض الوقت في مُهاجِمِه، وانتزع ببطء مُفكِّرةً من جيبه الداخلي.

"لديَّ بعض الأفكار"، قال، "لخطاب احتضاري"، وبدأ في تقليب الأوراق. "خطاب الاحتضار في حالة الاغتيال السياسي، مُكرَّر، إذا كان على يد صديق سابق... همم، همم. خطاب الاحتضار في حالة الموت على يد زوجٍ مجروح (نادم). خطاب الاحتضار في نفس الحالة (ساخر). لستُ متأكدًا تمامًا أي حالة تسري على هذا...".

"أنا ملك القلعة"، قال الصبي، مشاكسًا، ومبتهجًا جدًّا دون سبب بعينه.

كان الملك رجلًا طيِّبَ القلب، ومُغرمًا بالأطفال، ككل الناس المغرَمين بالضحك.

"يا طفلي"، قال له، "يسعدني أنك مُدافع مِقدام عن نوتنج هيل المنيعة العتيقة. تَطلَّعْ عاليًا في الليل إلى تلك الذروة، يا طفلي، حيث تهيم بين النجوم، قديمة جدًّا، وحيدةً جدًّا، غارقة في "نوتنج" جدًّا. ما دُمتَ مستعدًّا للموت في سبيل الجبل المقدَّس، حتى لو كان محاطًا بكل جيوش بايزووتر...".

توقَّف الملك بغتةً، والتمعت عيناه.

"ربما"، قال، "ربما هذه أنبل أفكاري جميعها: إحياء كبرياء المدن القروسطية القديمة في ضواحينا المجيدة. كلافام بحرَّاسٍ حولها. ويمبلدون بسور حولها. سربيتون بقرع جرسٍ لإيقاظ مواطنيها. ويست هامبستيد بدخولها إلى المعارك تحمل رايتها فحسب. سيُنجز الأمر. أنا، الملك، قلتُ ذلك". وبعدها، مناولًا بسرعةٍ الصَّبيَّ نصفَ كراون، ومضيفًا "من أجل صندوق الحرب لنوتنج هيل"، هرعَ بحماس بسرعة شديدة لحدِّ أن الحشود تَبِعَته لأميال. عند وصوله لمكتبه، طلب كوب من القهوة، واستغرقَ في تأمُّل عميق حول المشروع. في النهاية استدعى سلاحداره المفضَّل، كابتن باولر، الذي كان يحمل تجاهه عاطفةً عميقة، بسبب شكل شاربه في المقام الأول.

"باولر"، قال له، "ألا توجد جمعية ما للبحث التاريخي، أو شيءٌ ما يمكنني أن أكون عضوًا شرفيًّا فيه؟".

"نعم يا سيدي"، قال الكابتن باولر، داعكًا أنفه، "أنت عضو في "مُشجِّعي النهضة المصرية" و"نادي المقابر الجرمانية" و"جمعية استرداد آثار لندن"، و...".

"هـذا مُدهِـش"، قـال الملـك. "آثـار لنـدن سـتفي بغـرضي. اذهـب إلى جمعيـة اسـترداد آثـار لنـدن وتحـدَّثْ إلى سـكرتيرها ونائـب سـكرتيرها، ورئيسـها ونائـب رئيسـها، وقُـلْ لهـم: "إن ملـك انجلـترا فخـور بنفسـه، لكـن العضـو الـشرفي في جمعيـة اسـترداد آثـار لنـدن أكـثر فخـرًا مـن الملـوك. أودُّ أن أخبركـم باكتشـافات مُعيَّنـة توصَّلـتُ إليهـا تمـسُّ التقاليـد المهمَلـة لأقاليـم لنـدن. قـد تتسـبَّب هـذه الإلهامـات في بعـض الاسـتثارة، وتُقلِّـب ذكريـات لاذعـة وتمـسُّ جروحًـا قديمـة في أجـمات شـيبرد وبايزووتـر، وفي بيمليكـو وسـاوث كنسـينجتون. يـتردَّد الملـك، لكـن العضـو الـشرفي راسـخ دائمًـا. أتقـرَّب إليكـم بعهـود تكريـسي، في جمعيـات "القطـط السـبعة المقدَّسـة"، و"بوكـر الكـمال"، و"محنـة اللحظـات التـي لا توصَـف" (سـامحوني إن اختلـط عـليَّ الأمـر مـع "قبيلـة الغايـل"[1] أو أي نـادٍ آخـر أنتمـي إليـه)، وأطلـب منكـم السـماح لي بقـراءة ورقـة في اجتماعكـم القـادم حـول "حـروب أقاليـم لنـدن". أخـبر الجمعيـة بـكل هـذا يـا باولـر. تذكَّـرْه جيـدًا؛ فهـو في غايـة الأهميـة، ونسـيتُه تمامًـا لتـوِّي، وأرسِـلْ لي كوبًـا آخـر مـن القهـوة وبعـض السـيجار الـذي نحتفـظ بـه للأنـاس الناجحـين الأجـلاف. سـأكتب الورقـة".

انعقَـدَت جمعيـة اسـترداد آثـار لنـدن بعدهـا بشـهرٍ في قاعـة مـن الحديـد الصـاج عـلى مشـارف واحـدة مـن ضواحـي لنـدن الجنوبيـة. كان عـدد كبـير مـن النـاس قـد احتشـد تحـت منافـث الغـاز الصـادح والمتوهِّجـة عندمـا وصـل الملـك، مُتعرِّقًـا ومبتهجًـا. أثنـاء انتزاعـه معطفـه العمـلاق، لوحـظ أنـه كان في زيٍّ سـهرة، مرتديًـا ربـاط السـاق. أثـارَ ظهـوره بينهـم عـلى المائـدة الصغـيرة، المزيَّنـة بكـوب ميـاه لا غـير، ابتهاجًـا وقـورًا.

قـال الرئيـس (السـيد هاجنـس) إنـه عـلى يقـين أنهـم جميعًـا قـد ابتهجـوا بإنصاتهـم لتلـك المحـاضرات الراقيـة التـي سـمعوها حتَّـى الآن

(1) Clan-na-Gael: منظمـة جمهوريـة أيرلنديـة ظهـرت في الولايـات المتحـدة في أواخـر القـرن التاسـع عـشر، وهـي شـقيقة لجماعـة الأخويـة الغاليَّـة- (المترجـم)

(أنصتوا، أنصتوا). السيد بيرتون (أنصتوا، أنصتوا)، والسيد كامبردج، وبروفسور كينج (هتافات متتابعة أعلى)، وصديقنا القديم بيتر يسوب، والسير ويليام وايت (ضحكات أعلى)، ورجال مبجَّلون آخرون، قد شرَّفوا المجلس بمغامراتهم الصغيرة (صيحات ابتهاج). لكن هناك كانت ظروف أخرى أضفت سمةً فريدةً بعينها على مناسبتنا هذا (أنصِتوا أنصتوا). لكن مهما ابتعدت ذاكرته، وكانت تبتعد كثيرًا فيما يتصل بجمعية استرداد آثار لندن (صيحات ابتهاج أعلى)، إلَّا أنه لا يتذكَّر البتَّة أن أيًّا من مُحاضريها حَملَ لقب الملك. ويودُّ لذلك استدعاء الملك أوبيرون على وجه السرعة لمخاطبة الاجتماع.

بدأ الملك بالقول إن خطابه قد يُعتبر الإعلان الأول عن سياسته الجديدة من أجل الأمَّة. "في هذه الساعة العظيمة من حياتي أشعر أنه لا يمكنني فتح قلبي سوى لأعضاء جمعية استرداد آثار لندن (صيحات ابتهاج). إذا انقلب العالم على سياستي، وإذا انطلَقَت عواصف العداء الشعبي (لا، لا)؛ فهنا أشعر -مع أعضاء الاسترداد الشجعان من حولي- أن بمقدوري مواجهة كل هذا، بأخذهم سيفًا في يدي" (صيحات ابتهاج أعلى).

ثم شرع جلالته في تفسير كيف أنه -الآن والشيخوخة تتسلَّل إليه- يقترح تكريس ما تبقَّى من قوَّته لخلق شعور أكثر حماسةً وقوَّة بالوطنية المحلِّيَّة في أقاليم لندن المختلفة. كيف أن قِلَّةً منها تعرف أساطير بلداتها ذاتها! كيف أن كثيرًا من قاطنيها لم يسمعوا قطُّ عن الأصل الحقيقي لوينك أوف واندزوورث! أيَّ نسبة مهولة من الجيل الصغير في تشيلسي أهمَلَت أداء نفثات تشيلسي القديمة الصاخبة! بيمليكو لم تَعُد تضخُّ مَن يحمل اسم بيمليس. باتيرسي نسيت منذ زمنٍ اسم بليك.

غشيهم صمتٌ قصير، ثم قال صوتٌ "يا للعار!".

تابع الملك: "بدعوتي، رغم أنني غير جديرٍ بها، إلى هذا المكان الرفيع، قرَّرتُ -بأقصى ما يمكن- أن يتوقَّف هذا الإهمال. لا أتوقُ إلى أيِّ مجدٍ عسكري. لا أطالب بأيِّ مساواة دستورية مع جوستينيان أو ألفريد. لو ذكَّرتني كتبُ التاريخ بأنني الرجل الذي أنقذ من الانقراض بضعة عادات انجليزية قديمة، لو أمكن لذرِّيَّتنا اللاحقة أن تقول إنه بسبب هذا الرجل، المتواضع دومًا، ما زلنا نأكل "ثمار اللفت العشر" في فولهام، وأن مستشار أبرشية بوتني ما يزال يحلق نصف رأسه، فسأنظر إلى وجوه آبائي العظام بوقار وليس بخوف عندما أنحدر إلى آخر سلالات الملوك".

توقَّف الملك، متأثِّرًا كما يبدو، لكن بعد استجمع شتات نفسه، استأنف حديثه مجدَّدًا.

"أثق أنني أحتاج إلى قليل جدًّا منكم على الأقل؛ للتأمُّل في الأصول العظيمة لهذه الأساطير. أسماء أقاليمكم نفسها تشهد عليها. ما دامت هامرسميث تُسمَّى هامرسميث، سيعيش شعبها دومًا في ظلِّ بطلها الأول، بلاكسميث (الحدَّاد)، الذي قاد ديمقراطية برودواي وحارب من أجلها حتى دفعَ فرسان كنسينجتون أمامه وألقى بهم في ذلك المكان الذي ما يزال يُسمَّى -على شرف أرقى دماء الأرستقراطية المهزومة- كنسينجتون جور (دماء كنسينجتون المتخثِّرة). لن يخفق رجال هامرسميث في تذكُّر أن اسم كنسينجتون ذاته قد نشأ من شفتَيْ بطلهم؛ ذلك أنه في مأدبة المصالحة العظيمة التي أقيمت بعد الحرب، عندما رفضت الأقلية المترفِّعة المؤيِّدة للحكومة الانضمامَ إلى أغاني رجال برودواي (التي ما زالت حتى يومنا هذا ذات سمة شعبوية فجَّة)، قال القائد الجمهوري العظيم، بسخريته القاسية، تلك الكلمات التي كُتبت بالذهب على ضريحه، (الطيور الصغيرة التي بمقدورها أن تُغنِّي لكن ترفض الغناء، ينبغي إجبارها على الشدو بالأغنيات "Sings")؛ وبهذا أصبح الفرسان الشرقيُّون يُسَمَّون كانسينجس أو

كينسنجس بعدها للأبد. لكن لديكم أيضًا ذكريات عظيمة، أنتم يا رجال كنسينجتون! أظهرتم أن بمقدوركم الغناء، بل والتغنِّي بأناشيد الحرب العظيمة. حتى بعد اليوم المُظلم لكنسينجتون، لن ينسى التاريخ الفرسان الثلاثة الذين أمَّنوا انسحابكم العشوائي من هايد بارك (من اختبائكم "hiding" هناك)، أولئك الفرسان "Knights" الثلاثة الذي سُمِّي جسر نايتسبريدج على اسمهم. ولن ينسى أيضًا ظهوركم الثاني، مُطهَّرين بنار الكارثة، ومتخلِّصين من فساد الأقلية داخلكم، وحينها، بالسيوف في أياديكم، أجبرتم امبراطورية هامرسميث على التراجُع ميلًا بعد ميل، وصولًا إلى برودواي التي جاءت منها، وانخرطتم في النهاية في معركة طويلة ودامية لحدِّ أن الطيور الجارحة تركت اسمها عليها. أطلق عليها الرجال، بسخرية مُتقشِّفة، اسم راڤين كورت (ساحة الغربان). أثق أنني لن أجرح وطنية بايزووتر، أو الكبرياء الوحيد لبرمتون، أو كبرياء أيِّ مدينة تاريخية أخرى، بطرح هذين المثالين بعينهما. اخترتهما، ليس لأنها الأكثر مجدًا من البقية، لكن من ناحيةٍ بدافع من رابطة شخصية (أنا نفسي منحدر من أحد أبطال كنسينجتون الثلاثة)، ومن ناحية بدافع من الوعي بأنني أثريٌّ هاوٍ، ولا يمكنني التعامل مع أزمنة وأماكن أكثر بعدًا وغموضًا. لستُ مؤهَّلًا لتسوية الخلاف بين رجُلَيْن مثل بروفسور هاجّ والسير ويليام ويسكي ما إذا كانت نوتنج هيل تعني "ناتنج هيل Nutting Hill" (إشارةً إلى الغابات الكثيفة التي لم تعد تغطِّيها)، أم أن الأمر فحسب يتعلَّق بخراب ناثنج- إيل (Nothing ill)، بالإشارة إلى سُمعتها بين القُدَماء كجنّةٍ أرضية. عندما يعترف أبناء بودكينس وجوسي بشكوكهم بشأن حدود ويست كنسينجتون (يقال إنها رسمت بدماء الثيران)، فلن أخجل من الاعتراف بشكوكٍ مشابهة. سأطلب منكم معذرتي في الابتعاد عن التاريخ، ومساعدتي بتشجيعكم على التعامل مع المشكلة التي تواجهنا اليوم. هل هذه الروح القديم لبلديات لندن في طريقها

للموت؟ هل مُقدَّر لسائقي حافلاتنا ورجال شرطتنا أن يفقدوا بالكلِّيَّة ذلك الضوء الذي نراه كثيرًا في أعينهم، الضوء الحالم

(لأشياءَ نائيةٍ، قديمة وتعيسة، ومعاركَ منذ زمن بعيد)

اقتباسًا من شاعر مجهول كان صديقًا لشبابي. لقد قرَّرتُ، كما قلت، بأقصى ما يمكن، الحفاظ على عيون رجال الشرطة وسائقي الحافلات على حالتها الحالمة الراهنة؛ ذلك أنه ما الدولة دون أحلام؟ والعلاج الذي أقترحه سيكون كما يلي:

"غدًا صباحًا في العاشرة وخمس وعشرين الدقيقة -إذا لم تأخذ السماء حياتي- أنتوي إصدار نداءٍ عامٍّ. طالما كان الشاغل الأكبر في حياتي، انتهيتُ من نصفه تقريبًا. بمساعدة الويسكي والصودا، سأنهي النصف الآخر الليلة، وسيتلقَّاه شعبي غدًا. كل تلك الأقاليم التي فيها وُلِدتُم، وفيها تأملون أن ترقد عظامكم، ستُعاد إلى مكانتها القديمة المهيبة: هامرسميث، كنسينجتون، بايزووتر، تشيلسي، باترسي، كالفام، بالهام، ومئات غيرها. كلٌّ منها ستنال على الفور سور مدينة وبوَّابات تنغلق عند غروب الشمس. كلٌّ منها ستنال حُرَّاس مدينة، مُسلَّحين حتى رؤوسهم. كلٌّ منها سيكون لديها راية، وشعارُ نبال، وإذا أمكن، صرخة احتشاد. لن أدخل في التفاصيل الآن، قلبي يغصُّ بها. ستجدونها في النداء العام نفسه. ستخضعون جميعًا، رغم ذلك، للانخراط في حرس المدينة المحلِّيِّ، واستدعائكم عبر شيءٍ يُسمَّى توكسين (Tocsin)، ما زلتُ أدرس معناه في أبحاثي عن التاريخ. عن نفسي، أعتقد أن التوكسين ربما يكون مسؤولًا رسميًّا بأجرٍ مرتفع. لذلك، إذا حدث أن حاز أيُّكم على شيءٍ من قبيل رمح المِطرَد[1] في منزله، فأنصحكم بالتدرُّب عليه في الحديقة".

(1) المِطرَد هو سلاح قديم مزيج من الرُّمح والفأس. (المترجم)

هنـا دَفـنَ الملـك وجهـه في منديلـه وغـادر المنصّـة مُسرعًـا، تغلبـه عواطفـه.

نهـض أعضـاء جمعيـة اسـترداد آثـار لنـدن في حالـة لا توصـف مـن الالتبـاس. البعـض كان مُحمـرًّا بالامتعـاض، وحفنـة مـن المفكِّريـن مُحمَرِّين مـن الضحـك، والأغلبيـة العظمـى قـد وجـدت عقولهـا خاويـة. يظـلُّ هنـاك تقليـد بـأن يُبقـي وجـهٌ شـاحب واحـد، بعينـين زرقاويـن متوهِّجتَـيْن، نظـرَه مُثبَّتًـا عـلى المُحـاضِر، وبعـد المحـاضرة هـرع صبـي أحمـر الشَّـعر خارجًـا مـن القاعـة.

الفصل الثاني

مجلس رؤساء المقاطعات

استيقظَ الملك مبكرًا الصباح التالي وهبطَ الدَّرج من غرفته بثلاث درجات في كل قفزة كصبيٍّ مدرسة. بعد أن تناول إفطاره على عجلة، لكن بشهية، استدعى واحدًا من كبار مسؤولي القصر، ومنحه شلنًا. "اذهب واشترِ لي"، قال له، "علبة ألوان بشِلِن، ويمكن الحصول عليها -ما لم تكن ضبابات الزمن قد ضلَّلتني- في متجر في زاوية الشارع الثاني والأقذر الذي يخرج من روشستر رو. طلبتُ بالفعل من مالِك كلاب لصيد الغزلان أن يزوِّدني بلوح كرتوني. بدا لي (لا أعرف لماذا) أن الأمر يقع ضمن اختصاصه".

كان الملك سعيدًا طوال ذلك الصباح بلوحه الكرتوني وعلبة ألوانه. انغمس في تصميم الأزياء وشعارات النَّبالة من أجل مقاطعات لندن المختلفة. منحه ذلك أفكارًا عميقة وليست تافهة. شعرَ بعبء المسؤولية.

"لا أعرف بالضبط"، قال، "لماذا يعتقد الناس أن أسماء الأماكن في الريف أكثر شاعريةً منها في لندن. ينطلق الرومانسيون الأضحال بعيدًا في القطارات إلى أماكن تُسمَّى (أحضان-في-الحفرة)، أو (ارتعاشات-في-البركة). وطوال الوقت يكون بإمكانهم، إذا شاؤوا، أن ينطلقوا ويعيشوا في مكان ذي اسم قاتم وإلهي مثل (غابة القدِّيس چون). أبدًا لم أزُرْ (غابة القدِّيس چون). لا أجرؤ. أخاف بالتأكيد من الليل الذي لا ينتهي لأشجار التِّنُّوب، أخاف أن أصادِفَ كأسًا مُترَعًا بالدماء أو خفقات أجنحة النسور. لكن كل تلك الأشياء يمكن تخيُّلها عبر البقاء بوقار في القطار ناهِبِ الطريق".

ثم أضفى مُتأمِّلًا الرتوش النهائية على تصميمه لقُبَّعة حامل المِطَرد في غابة القديس چون، تصميم بالأسود والأحمر، يتألف من شجرة صنوبر وريشة نَسر. ثم استدارة إلى لوحٍ آخر. "لنفكِّر في المسائل الأقل أهمية"، قال. "طريق لاڤندر هيل (تلِّ اللاڤندر)! هل بمقدور أيٍّ من زرِّيعاتكم وأوديتكم الضَّيِّقة وكل ما جاورها أن تنتج فكرةً فوَّاحةً بهذا الشكل؟ فكِّروا في جبل من اللاڤندر يرتفع بحدَّةٍ أرجوانية إلى السماوات الفضِّيَّة ويملأ خياشيم الرجال بأنفاس حياة جديدة- تلٌّ أرجوانيٌّ من البخور. من الحقيقي أنه في تجوالاتي الاستكشافية القليلة في الترام ذي تذكرة النصف بنس أنني أخفقت في الوصول إلى البُقعة الصحيحة. لكنها هناك حتمًا؛ دعاها أحد الشعراء باسمها. هناك على الأقل ضمان كافٍ بوجود الريشات الأرجوانية المقدَّسة (التي تَعقُب تكوُّن اللاڤندر) التي سأُلزِم الشعب بارتدائها في حي كلافام جانكشن (مفرق كلافام) المجاور لذلك الطريق. هكذا الأمر في كل مكان على أيِّ حال. أبدًا لم أزُر ساوثفيلدس (حقول الجنوب)، لكنني أفترض أن شكلًا من الليمون والزيتون سيمثِّل غرائزها الجنوبية. أبدًا لم أزُر بارسونز جرين (بستان الكاهن)، ولم أرَ البستان ولا الكاهن، لكن حتمًا فإن القبعات الجاروفيَّة (التي سيرتديها رجال الدين) ذات الأخضر

الشاحب التي صمَّمتُها ستناسب روح البستان بشكلٍ أو بآخر. عليَّ أن أعمل في الظلام وأدع غرائزي تقودني. الحبُّ الكبير الذي أحمله تجاه شعبي سيمنعني حتمًا من إقلاق روحهم النبيلة أو انتهاك تقاليدهم العظيمة".

فيما كان يتأمَّل بهذه الحالة المزاجية، تطوَّح الباب مفتوحًا، وأعلن الحاجب وصول السيد باركر والسيد لامبرت.

لم يندهش السيد باركر والسيد لامبرت كثيرًا عندما وجَدَا الملك جالسًا على الأرض وسط فوضى الرسومات المائية. لم يندهشا كثيرًا لأنهما في آخر مرَّة زاراه فيها وجداه جالسًا على الأرض، محاطًا بأحجار أطفال مبعثرة، وفي المرَّة التي سبقت ذلك وجداه محاطًا بمحاولات فاشلة تمامًا لصنع سهام ورقية. لكن أسلوب الملاحظات التي أبداها الطفل الملكي، منطوقةً وسط هذه الفوضى الطفولية، كان أمرًا مختلفًا بعض الشيء.

تركاه يثرثر قليلًا، واعيان بأن ملاحظاته لا تعني شيئًا. ثم سرعان ما بدأت فكرةٌ مريعة في التسلُّل إلى عقل چيمس باركر. بدأ يراوده اعتقادٌ بأن ملاحظات الملك لم تكن بلا معنى تمامًا.

"باسم الرَّبِّ يا أوبيرون"، رمى كلماته بغتةً، مُحطِّمًا صمت البهو الهادئ، "لا تنوي حقًّا أن تضع حُرَّاسًا وجدرانًا وأشياء كهذه على هذه المدن؟".

"سأفعل، حقًّا"، قال الطفل، بصوتٍ هادئ. "لماذا ينبغي ألَّا أفعل؟ لقد أعَدتُ تصميمها بحسب مبادئكم السياسية بالضبط. هل تعرف ما فعلته يا باركر؟ لقد تصرَّفت كباركريٍّ حقيقي. لقد... لكن ربما لن يهمَّكَ هذا، حكاية سلوكي الباركريِّ".

"أوه، استمِرَّ، استمِرَّ"، هتف باركر.

"حكايـة سـلوكي الباركـريِّ"، قـال أوبـيرون برزانـة، "لا يبـدو أنهـا سـتثير اهتمامـك فحسـب، لكنهـا سـتثير دهشـتك أيضًـا. مـع ذلـك فهـي بسـيطة جـدًّا. تتألَّـف فحسـب مـن اختيـار جميـع رؤسـاء المقاطعـات في اسـتراتيچيتي الجديـدة حسـب نفـس المبـدأ الـذي تعيِّنـون بـه الدكتاتـور المركـزي. كل رئيـس لـكل مقاطعـة، في مُخطَّطـي، سـيتمُّ تعيينـه بالتدويـر. اسـتغرِقٍ، إذن، عزيـزي باركـر، في نـومٍ ورديٍّ".

توهَّجَت عينا باركر الحرونتان.

"لكـن، باسـم الـرَّبِّ، ألا تـرى يـا كويـن، أن الأمـر مختلـف تمامًـا؟ في جوهـره لا يهـمُّ كثـيرًا، فالغايـة النهائيـة مـن الدكتاتوريـة هـو تحقيـق شـكل مـن أشـكال الوحـدة ليـس إلَّا. لكـن إذا حصـل أي رجـل لعـين عـلى أيِّ أبرشـية لعينـة...".

"أرى مشـكلتك"، قـال الملـك أوبـيرون بهـدوء. "تشـعر أن مواهبـك قـد أُهمِلَـت. "اسـمع!" ثـم نهـض بوقـار هائـل. "أمنـحُ رسـميًّا لمواطنـي المخلِـص، چيمـس باركـر، إحسـاني الشـخصي والفخيـم، والحـقَّ في تعطيـل النـص الواضـح لميثـاق المـدن، وفي أن يكـون، باسـتقلالية شـخصية تامَّـة، رئيـس مقاطعـة كنسـينجتون عـالي المقـام. والآن، عزيـزي چيمـس، أنـت عـلى مـا يـرام. نهـارك طيِّـب". مكتبة سُر مَن قرأ

"لكن..."، شرعَ باركر في القول.

"انتهت المقابلة، يا رئيس المقاطعة"، قال الملك، مبتسمًا.

كانـت ثقتـه هـذه عصيَّـةً عـلى التفسـير والوصـف بعـض الـشيء. لكـن في ذلـك الصبـاح ظهـر "النـداء العظيـم لميثـاق المـدن الحـرَّة" كـما ينبغـي، وُوضِعَـت الملصقـات التـي تعلنـه عـلى جميـع واجهـات القـصر، وسـاعدَ الملـك في ذلـك بتوجيهـات حرَكيـة، واقفًـا في منتصـف الطريـق، برأسـه مائـلًا مُتأمِّـلًا النتيجـة. حُمـلَ النـداء العظيـم أيضًـا إيابًـا وذهابًـا عـبر الشـوارع الرئيسـية مـن قِبَـل رجـال يحملـون لافتـات عـلى ظهورهـم

وصدورهم كالشطائر، ومُنعَ الملك بصعوبة من الانطلاق بتلك الصفة بنفسه، بعد أن وجده وصيفه اللصيق وكابتن باولر يعاني بين لوحَين، واضطرًا في نهاية الأمر إلى تهدئة استثارته وكأنه طفل.

ربما يوصف استقبال "ميثاق المدن" لدى العامَّة على أنه استقبالٌ ذو مشاعر مختلطة. بأحد المعاني كان شعبويًّا. في بيوت سعيدة كثيراً قُرِئَت تلك الوثيقة القانونية المذهلة بصوتٍ عالٍ في المساءات الشتوية وسط صيحات الاستحسان الصاخبة، وحفظَ كلماته عن ظهر قلب ذلك الكلاسيكي العجوزُ العجيب لكن الخالد، السيد دبليو دبليو ياكوبس. لكن عندما اكتشفوا أن الملك لديه نيَّة واضحة جدًّا بوضع نصوصه موضع التنفيذ الصارم، وإصرارٌ على أن تظهر للوجود حقًّا تلك المدن العجيبة، مع حُرَّاسها وتوكسيناتها (Tocsins)، تحوَّلَت المشاعر إلى ارتباك غاضب جدًّا. لم يكن أهالي لندن يحملون اعتراضًا بعينه أن يجعل الملك من نفسه أحمق، لكنهم امتعضوا عندما أدركوا أنه يسعى إلى جعلهم جميعًا حمقى؛ وحينها بدأت الاحتجاجات.

كتبَ الرئيس عالي المقام لمقاطعة ويست كنسينجتون، تلك المدينة الصالحة والشجاعة، خطابًا توقيريًّا إلى الملك، مبيِّنًا أنه في مناسبات الدولة، سيكون من واجبه بالطبع مراعاة الرسميَّات التي يرى الملك أنها ملائمة، لكنه سيكون من المُحرج حقًّا ألَّا يسمح لربِّ منزلٍ محترم بالانطلاق ووضع بطاقة بريدية على في صندوق البريد دون أن يصاحبه خمسة حرَّاس، يعلنون -بصيحاتٍ رسمية وانفجارات من الأبواق- أن رئيس المقاطعة عالي المقام يرغب في وضع رسالة في البريد.

بينما كتب رئيس مقاطعة نورث كنسينجتون عالي المقال -الذي كان تاجِرَ أقمشة موسِرًا- مُلاحظةً عملية مقتضبة، كرجُلٍ يشتكي شركة السكك الحديدية، قائلًا إنه قد تعرَّض لانزعاج شديد بسبب وجود حاملي المَطارِد، الذين اضطرُّوا لمصاحبته أينما ذهب. عندما

حاولَ اللحاق بالباص المتَّجه إلى المدينة، اكتشفَ أنه رغم عثوره على مساحة شاغرة لنفسه، وجد حاملو المَطارِد صعوبةً في الدخول إلى العربة- وختم ملاحظته بجملة، "المُخلص دائمًا".

وذكر رئيس مقاطعة شيبرد بوش أنه زوجته لم تحبَّ أن يحيط بها الرجال متسكِّعين في المطبخ.

دائمًا ما كان الملك يبتهج عند سماعه هذه الشكاوى، مُقدِّمًا ردودًا ملكيَّةً ومتساهِلةً، لكن مُصرًّا دائمًا، كشرط لا غنى عنه، أنه ينبغي تقديم الشكاوى الشفهية إليه بكامل أبَّهة الأبواق والريش والمَطارِد، فقط حفنة أرواح ذوات عزمٍ كانت على استعداد لاجتياز محنة الصبيان الصغار في الشارع هذه.

بينهم يبرز -رغم ذلك- ذلك الجنتلمان الجلف شبه العمليِّ الذي يحكم نورث كنسينجتون. وكان قبل زمن طويل أن تقابلَ مع الملك بشأن مسألة أوسع وأكثر إلحاحًا من مشكلة حاملي المَطارِد وباص المدينة. كانت تلك هي المسألة العظيمة التي جلبت حينها ولزمن طويل بعد ذلك الاهتياج والاحمرار إلى دماء وخدود جميع البنَّائين المُستغرقين في التأمُّل ووكلاء المنازل من شبردز بوش إلى ماربل آرك، ومن ويستبورن جروف إلى هاي ستريت، كنسينجتون. أشيرُ هنا إلى القضية العظيمة بشأن تحسينات نوتنج هيل. أُنجزَ الجزء الأكبر من المخطَّط على يد السيد بَكْ، زعيم نورث كنسينجتون الجِلف، وعلى يد السيد ويلسون، رئيس مقاطعة بايزووتر. كان من المقرر أن يُشقَّ طريق كبير عبر ثلاث مقاطعات، ويست كنسينجتون، ونورث كنسينجتون، ونوتنج هيل، يبدأ من ناحيةٍ من هامرسميث برودواي، وينتهي عند ويستبورن جروف. استغرقت المفاوضات، وعمليات الشراء والبيع، والإرهاب والرشاوي، عشر سنوات، وبانتهائها، نجح بَكْ، الذي أنجز كل شيء بمفرده تقريبًا، في إثبات أنه رجل ذو دبلوماسية وقوَّة كبيرتين.

لكن فور أن حقَّق له صبره الفخيم ونفاد صبره الأكثر فخامةً النَّصرَ في نهاية المطاف، وشرعَ العُمَّال في هدم المنازل والحوائط على طول الخط العظيم من هامرسميث، ظهرت عقبة مفاجئة لم تخطر على البال ولا حتى في الأحلام، عقبة صغيرة وغريبة، كانت سببًا، كلطخة شحم في آلة هائلة، في اهتزاز المخطَّط العظيم بأكمله وتوقُّفه تمامًا، وحينها أسرع السيد بَكْ، تاجر الأقمشة، مرتديًا رداءه الرسمي بنفاد صبر ومستدعيًا حاملي المَطارِد بامتعاض لا يوصف، ليتحدث مع الملك.

لم تكن عشر سنوات كاملة قد استهلكت مَزحة الملك. كانت ما تزال هناك وجوهٌ جديدة يمكن رؤيتها تتطلَّع من الخوذات الرمزية التي قام بتصميمها، تُحملق فيه من بين الأوشحة الريفية لشيبردس بوش أو من تحت القلنسوات الكابية لبلاكفرايرز رود. استغرق في انتظار المقابلة التي وُعِد بها مع رئيس مقاطعة نورث كنسينجتون بابتهاجٍ عجيب؛ ذلك أنه "أبدًا لم يستمتع"، كما يقول، "بالثراء الكامل للأردية القروسطية ما لم يكن الناس المجبرون على ارتدائها بغضبٍ شديد وبحسٍّ عملي".

كان السيد بَكْ مصابًا بكليهما. بناءً على أمر الملك انفتح باب حجرة المقابلات على اتِّساعه وظهر مُنادٍ بالألوان الأرجوانية المميَّزة لجمهورية السيد بَكْ مزخرفةً بالنسر العظيم الذي كان الملك منحه لنورث كنسينجتون، في ذكرى غائمة لروسيا؛ ذلك أنه دائمًا ما كان يصرُّ على اعتبار نورث كنسينجتون حيًّا مجاورًا شبه قطبي-شمالي. أعلن المنادي أن رئيس تلك المقاطعة يرغب في لقاء الملك.

"من نورث كنسينجتون؟" قال الملك، ناهضًا بوقار. "أيُّ أخبار سيجلبها من أرض التلال العالية والنساء الجميلات تلك؟ مرحبًا به".

تقدَّم المُنادي إلى القاعة، وتبعه على الفور اثنا عشر حارسًا متَّشحون بالأرجواني، يتبعهم خادمٌ يحمل راية النسر، يتبعه خادم

آخر يحمل مفاتيح المدينة على وسادة، يتبعه السيد بَكْ باندفاع كبير. عندما رأى الملك وجهه الحيواني القوي وعينيه الثابتتين؛ أدرك أنه في حضرة رجُل أعمال عظيم، وهيَّأ نفسه مُنتبهًا.

"حسنًا، حسنًا"، قال، هابطًا بابتهاج درجتين أو ثلاثًا من على السُّدَّة، وضاربًا يديه معًا بخفَّة، "تسعدني رؤيتك. لا تشغل بالك، لا تشغل بالك. الاحتفاليات ليست كل شيء".

"لا أفهم جلالتك"، قال رئيس المقاطعة، بتبلُّد.

"لا تشغل بالك، لا تشغل بالك"، قال الملك، بمَرح. "معرفة البلاطات الملكية لا تتأتَّى بسهولة أبدًا؛ ستفعلها في المرة القادمة، بلا شكٍّ".

تطلَّعَ رجل الأعمال إليه بعبوسٍ من تحت حاجبيه الأسودين، وقال مُجدَّدًا دون إظهار أيِّ تأدُّب:

"لا أفهمك".

"حسنًا، حسنًا"، بحماسةٍ حانية، "إذا سألتني لن أمانع في إخبارك، ليس لأنني أُضفي أي أهمية على هذه الشكليات مقارنةً بالقلب الأمين. لكنها أمر معتاد... معتاد جدًّا... هذا كل ما في الأمر؛ ذلك أنه عندما يدخل رجلٌ إلى حضرة ملكية، عليه أن يستلقي أرضًا على ظهره ويرفع قدمه نحو السماء (منبع السلطة الملكية) ويقول ثلاث مرَّات (المؤسسات الملوكية تُهذِّب الأخلاق). لكن هذه، هذه... هذه الأبَّهة هي أقلُّ جلالًا بكثير من طيبتك البريئة".

احمرَّ وجه رئيس المقاطعة غضبًا، وحافظ على صمته.

"والآن"، قال الملك، لا مباليًا، بالحسِّ الساخط لرجلٍ يحاول جاهدًا تهدئة آخر غاضب، "يا له من طقس جميل اليوم! لا بُدَّ أنك تجد رداءك الرسمي دافئًا يا سيدي. قمت بتصميمه من أجل أرضك الغارقة في الجليد".

"إنه حارٌّ كالجحيم"، قال بَكْ، باقتضاب. "أتيتُ إلى هنا لإنجاز الأعمال".

"صحيح"، قال الملك، مُومئًا لمرَّات كثيرة بوقار هادئ غامض، "صحيح، صحيح، صحيح. العمل، كما قال الفارسيّ العجوز الحزين ذات مرَّة، هو العمل. كُن دقيقًا في مواعيدك. استيقِظْ مُبكِّرًا. احتَفِظْ بالقلم معك دائمًا. احتفِظْ بالقلم معك دائمًا؛ ذلك أنك لا تعرف من أين ستأتي أو لماذا. احتفِظْ بالقلم معك دائمًا؛ ذلك أنك لا تعرف متى سترحل أو إلى أين".

جذب رئيس المقاطعة بضع أوراق من جيبه وخفقها بشدَّة ليفتحها.

"ربما تناهى إلى سمع فخامتك"، شرع في القول بسخرية، "أخبارٌ بشأن هامرسميث وشيءٌ يُسمَّى الطريق. انخرطنا في العمل عشر سنوات من أجل شراء الممتلكات والحصول على القوى اللازمة ومنح التعويضات وتسوية المصالح المُستحقَّة، والآن فور انتهائنا من ذلك، توقَّفَ المشروع على يد أحد الحمقى. كان براوت العجوز، الذي كان رئيسًا لمقاطعة نوتنج هيل، رجل أعمال، وتعاملنا معه بشكل مُرضٍ تمامًا. لكنه الآن ميِّت، وحلَّ النصيب الملعون على شاب يُدعى واين، يحيك مؤامرة لا أستوعبها على الإطلاق. عرضنا عليه سعرًا أفضل ممَّا يحلم أيُّ شخص، لكنه يرفض شَقَّ الطريق. ويبدو أن مجلسه يدعِّمه في هذا. إنه جنون منتصف الصيف".

لم يسمع الملك، الذي كان منغمسًا بشرود في رسم أنف رئيس المقاطعة بإصبعه على حافَّة النافذة، سوى آخر كلمتين.

"يا لها من عبارة مُنمَّقة!"، قال له. "جنون منتصف الصيف!".

"المغزى هنا"، تابعَ بَكْ، بإصرار "أن الجزء الوحيد الذي يعاني من مشكلة حقًّا هو شارع قذر صغير -شارع بامب- شارع لا يضمُّ شيئًا

سوى حانة شعبية ومتجر ألعاب رخيصة، وما إلى ذلك. كل الأناس المحترمين في نوتنج هيل قَبلوا تعويضاتنا. لكن وايـن العَصيَّ عن الوصف يستولي على شارع بامب. يقول إنه رئيس مقاطعة نوتنج هيل. لكن ليس سوى رئيس شارع بامب.

"فكرة حسنة"، أجابه أوبيرون. "تعجبني فكرة وجود رئيس لشارع بامب. لماذا لا تدعه وشأنه؟".

"وأتنازل عن المخطَّط بأكمله!؟" هتف بَكْ، بانفجار روح وحشية. "لتحلَّ عليَّ اللعنة إذا فعلنا ذلك. لا. سأرسل في طلب العُمَّال لهدم الشارع بلا تأخير".

"ناضل من أجل النسر الأرجواني!"، هتف الملك، مهتاجًا بتداعيات تاريخية.

"سأخبرك ما هو الأمر بالضبط"، قال بَكْ، وقد فقد أعصابه تمامًا. "إذا قضيت جلالتك وقتًا أقلَّ في إهانة الأناس المحترمين بشعارات نَبالَتِكَ السخيفة، ووقتًا أكثر في شؤون الأُمَّة...".

تغضَّنَ جبين الملك بتأمُّل.

"الموقف ليس في غاية السوء"، قال له، "لكن المواطن المتغطرس يتحدَّى الملك في قصره. ينبغي أن يطوِّح المواطن رأسه للوراء ويمدَّ الذراع الأيمن، وربما يرفع الذراع الأيسر نحو السماء، لكنني أترك ذلك لمشاعرك الدينية الشخصية. سأغرق ثانيةً في هذا الكُرسي، مصعوقًا بغضب ذاهل. والآن كرِّر كلامك رجاءً".

انفتح فم بَكْ كفم كلب، لكن قبل أن يتمكَّن من التحدُّث ظهر مُنادٍ آخر عند الباب.

"رئيس مقاطعة بايزووتر عالي المقام"، قال المنادي، "يطلب مقابلةً".

"أدخِلْه"، قال أوبيرون. "هذا يوم بهيج حقًّا".

كان حاملو المَطارِد في بايزووتر يرتدو زيًّا أخضر مُوحَّدًا، ورايتهم محمولة في إثرهم، مزخرفةً بإكليل كستنائي مُخضرًّا على خلفيَّة فضيَّة. كان الملك، في سياق أبحاثه عن قنينة شمبانيا، قد اكتشف أنها تمثِّل التَّميُّز القديم والعجيب لمدينة بايزووتر.

"إنه رمز مناسب"، قال الملك، "إكليلكم الكستنائي الخالد هذا. ربما تسعى فولهام إلى الثروة، وكنسينجتون إلى الفن، لكن متى كان رجال بايزووتر يتوقون لأي شيء سوى المجد؟".

على الفور خلف الراية، ومحتجبًا بها تمامًا تقريبًا، خطا رئيس المقاطعة إلى الأمام، مُتَّشِحًا بالأردية الفخيمة ذات الأخضر والفضِّيِّ مع الفرو الأبيض والتاج الكستنائي. كان رجلًا ضئيلًا مرتبكًا بشَعر أحمر في وجهه، في الأصل مالك لمتجر حلويات صغير.

"ابن عمومتنا من بايزووتر"، قال الملك بابتهاج؛ "ماذا في وسعنا أن نقدِّمه لك؟"، سُمِع الملك وهو يغمغم بوضوح أيضًا، "لحم بقري بارد، لحم حمَل بارد، دجاج بارد"، ثم تلاشى صوته في الصمت.

"جئتُ لرؤية جلالتكم"، قال رئيس مقاطعة بايزووتر، الذي كان اسمه ويلسون، "بشأن مسألة شارع بامب".

"كنتُ أشرح الموضوع لجلالته"، قال بَكْ باقتضاب، لكن مُستعيدًا تأدُّبه. "لستُ متأكدًا، رغم ذلك، أن جلالته يدرك إلى أيِّ حدٍّ تؤثِّر عليك المسألة أيضًا".

"إنها تؤثِّر على كلينا، كما ترى جلالتك، حيث إن هذه المخطط قد بدأ لفائدة الحيِّ القديم؛ لذلك وضعنا السيد بَكْ وأنا رأسينا معًا...".

صفَّق الملك بيديه.

"رائـع!" صـاحَ في نشـوة. "رأسـاكما معًـا! يمكننـي رؤيـة ذلـك! هـل يمكنكـما فعـل ذلـك الآن؟ أوه، افعـلاه الآن!".

بـدا وكأن صـوت اسـتمتاع مختنـق قـد صـدرَ عـن حامـلي المَطَـارِد، لكـن السـيد ويلسـون بـدا مذهـولًا، فيـما بـدا السـيد بَـكْ بملامـح شـيطانية محضـة.

"أعتقـد"، أوشـكَ عـلى التكلُّـم بمـرارة، لكـن الملـك أوقفـه بإيمـاءة إنصـات.

"صمتًـا"، قـال لـه، "أعتقـد أننـي أسـمع أحدهـم قادمًـا. يـتراءى لي أننـي أسـمع مُناديًـا آخـر، مُناديًـا بأحذيـة تطقطق".

فيما يتحدَّث صاح صوتٌ من المدخل:

"رئيس مقاطعة ساوث كنسينجتون عالي المقام يرغب في مقابلة".

"رئيـس مقاطعـة سـاوث كنسـينجتون عـالي المقـام!"، هتـف الملـك. "عجبًـا، هـذا صديقـي القديـم چيمـس باركـر! مـاذا يريـد يـا تُـرى؟ إذا لم تكـن ذكريـات الصداقـة الجميلـة قـد صـارت غائمـةً، فأعتقـد أنـه يريـد شـيئًا لنفسـه، أمـوالًا ربمـا. كيـف حالـك يـا چيمـس؟".

اندفـع السـيد چيمـس باركـر، الـذي كان حارسـه مُتَّشـحًا بـالأزرق الفخيـم، ورايتـه تحمـل ثلاثـة طيـور ذهبيـة شـاديةً، في ردائـه الأزرق والذهبـي، إلى القاعـة. رغـم عبثيـة كل هـذه الأزيـاء، كان مـن المُهـمِّ ملاحظـة أنـه يرتـدي رداءه بشـكل أفضـل مـن البقيـة، رغـم أن اشـمئزازه منـه لا يقـلُّ عـن اشـمئزاز الآخريـن. كان چنتلمانًـا، في غايـة الوسـامة، ولم يكـن بوسـعه سـوى أن يرتـدي لا شـعوريًّا رداءه المسـتحيل هـذا كـما ينبغـي. تحـدَّث بسرعـة، لكـن بالـتردُّد الأولي الطفيـف الـذي كان دائمًـا مـا يُظهـره عنـد مخاطبـة الملـك؛ بسـبب قمعـه لرغبـةٍ غريزيـة بـأن يخاطـب صديقـه القديـم بالطريقـة القديمـة.

"جلالتك... اعذُر تطفُّلي. إن الأمر بشأن ذلك الرجل في شارع بامب. أرى أنك تستضيف بَكْ هنا؛ بالتالي ربما سمعتَ ما ينبغي فعله. أنا...".

مسحَ الملك الحجرة بعينيه بانتشاء، ثم توهَّجَتا برؤية مصائد المدن الثلاثة.

"هناك شيء ضروري واحد فحسب"، قال لهم.

"نعم، جلالتك"، قال السيد ويلسون رئيس بايزووتر، بحماس شاحب. "ما هو الضروري في نظر جلالتك؟".

"قليلًا من الأصفر"، قال بثبات. "أرسلوا في طلب رئيس ويست كنسينجتون".

وسط بعض الاحتجاجات الجسدية أُرسلَ في طلبه، ثم وصل مع حاملي مَطارِدِه الصُّفْر بردائه الزعفراني، ماسحًا جبهته بمنديل. أيًّا كان الأمر، وبالنظر إلى منصبه، كان لديه الكثير ليقوله في المسألة.

"مرحبًا، ويست كنسينجتون"، قال الملك. "طالما تمنَّيتُ أن أراك تتعامل مع موضوع الأرض الممتدة من هامرسميث إلى جنوب راوتون هاوس. هل ستمنعها بدافع العداءات الإقطاعية عن رئيس هامرسميث؟ ليس عليك سوى تقديم الولاء له عبر وضع ذراعه الأيسر في معطفه ثم المسير إلى البيت بشكل رسمي".

"لا، جلالتك، أفضِّل ألَّا أفعل"، قال رئيس ويست كنسينجتون، الذي كان شابًّا شاحبًا بشارب جميل ولحية، ويمتلك مصنع ألبان ناجح.

ضربه الملك بحميميَّةٍ على كتفه.

"دماء ويست كنسينجتون الحرون القديمة"، قال له؛ "ليس من الحكمة أن تطلب منها تقديم الولاءات".

ثم ألقى نظرة خاطفة في أرجاء القاعة. كانت تغصُّ بألوان غروب صارخة، واستمتع بالمشهد، الممكن من قِبل قِلَّة من الفنَّانين فحسب- مشهد أحلامه ذاتها تتحرك وتتوهَّج أمامه. في المقدِّمة أصفر أزياء ويست كنسينجتون يؤكِّد نفسه ضد الأزرق القاتم لأجواخ ساوث كنسينجتون. سطَعَت حواشي هذه الأخيرة مُجدَّدًا بغتةً وتحوَّلَت إلى الأخضر فيما ارتفعت ألوان بايزووتر ذات اللون الشجريِّ الفاتح وراءها. وأعلى وفوق كل هذا تَمَظهَرَت الريشات الأرجوانية الهائلة لنورث كنسينجتون فيما يشبه الأسود الجنائزي.

"ينقصنا شيءٌ ما"، قال الملك، "هناك شيءٌ مفقود. ماذا يمكن... آه، أن يكون! أن يكون!".

عند مدخل الباب كان قد ظهر شكل بشري جديد، منادٍ بأحمر ملتهب. صاح عاليًا لكن بصوت غير انفعالي:

"رئيس نوتنج هيل عالي المقام يرغب في مقابلة".

الفصل الثالث

المجنون يظهر

لا بُدَّ أن ملك الجنِّ -الذي يُفترض أنه الأب الروحي للملك أوبيرون- كان منحازًا بشدَّة في هذا اليوم بالذات لطفله الروحي الفانتازيِّ؛ ذلك أنه مع دخول حارس رئيس نوتنج هيل ازداد ابتهاج أوبيرون بشكل مُعيَّن لا يمكن تفسيره. كان العُمَّال البائسون ورجال الشطائر الذين يحملون ألوان بايزووتر أو ساوث كنسينجتون، قد انغمسوا طوال النهار في إشباع الهواية الملكية ودلفوا إلى القاعة مُترهِّلين بحسٍّ خجول بعض الشيء، وجزء كبير من متعة الملك الفكرية كانت يتمثَّل في التناقض بين عنجهية سيوفهم وريشاتهم وبؤسِ وجوههم الخانعة. لكن حاملي مَطارِد نوتنج هيل هؤلاء بسُتْراتِهم الحمراء ذات أحزمة الذهب كانوا يتمتَّعون بحسٍّ وَقور عَبَثيٍّ. بَدوْا، في حقيقة الأمر، وكأنهم يشاركون في النُّكتة. ساروا واتَّخذوا أماكنهم بانضباط ومهابة مُجفلة بعض الشيء.

كانوا يحملون رايةً صفراء عليها أسَدٌ أحمر هائل، أطلق عليها الملك اسم خاتم نوتنج هيل، على اسم حانة صغيرة في الحيِّ، كان يتردَّد عليها فيما مضى.

بين طابورَيْ أتباعه تقدَّم ناحية الملك شابٌّ طويل، أحمر الشعر، بملامح متطاولة وعينين زرقاوين جسورتين. كان من الممكن تسميته بالوسيم، لولا ذلك الحسُّ الغامض بأن أنفه كبير جدًّا على وجهه، وأن قدميه كبيرتان جدًّا على ساقيه، وهو ما أضفى عليه منظرًا أخرقَ وشبابًا متطرِّفًا. كان رداؤه أحمر اللون، بحسب أسلوب الشعارات الذي وضعه الملك، وبخلاف بقيَّة الرؤساء، كان على خصره سيفًا هائلًا. ذلكَ كان آدم واين، رئيس نوتنج هيل الحرون.

تطوَّح الملك عائدًا إلى كُرسيِّه، وفَرَكَ يديه.

"يا له من يوم، يا له من يوم!"، قال لنفسه. "الآن سيكون هناك صخبٌ. لم أتخيَّل أن الأمر سيكون طريفًا هكذا. هؤلاء الرؤساء ناقمون جدًّا، عقلانيون جدًّا، مُحِقُّون جدًّا. صديقي هذا، عبر تلك النظرة في عينيه، أكثر امتعاضًا ونقمة من البقيَّة. لا علامة في هاتين العينين الزرقاوين على أنه سمع نُكتةً في حياته. سيعترض على البقيَّة، وسيعترضون عليه، وسيبتهجون جميعهم باعتراضهم عليَّ".

"مرحبًا يا سيدي"، قال بصوتٍ عالٍ. "أيُّ أخبار لديك من تلِّ المائة أسطورة؟ ماذا لديك من أجل أُذن الملك؟ أعرف المشاكل التي وقعت بينك وبين هؤلاء الآخرين، أبناء عمومتنا، لكن من دواعي فخرنا أن نسوِّي هذه المشاكل. لا أشكُّ، ولا يمكنني أن أشكَّ، أن حبَّكَ لي ليس أقلَّ رقَّةً، وليس أقلَّ حماسًا، من حُبِّهم".

أبدى السيد بَكْ وجهًا متألِّمًا، وانبعج مِنخَرَا چيمس باركر، وبدأ ويلسون في الضحك بخفوت، وأعقبهم رئيس ويست كنسينجتون

بطريقة مختنقة. لكن العينين الزرقاوين الكبيرتين لآدم واين لم تتبدَّلا أبدًا، بل صاح بصوتٍ صبيانيٍّ، عجيب، عبر القاعة:

"جئتُ لتقديم المبايعة والوفاء لمليكي. لم أجلب سوى الشيء الوحيد الذي أملكه... سَيفي".

وبحركةٍ مهيبة طوَّحَ به على الأرض، وركع على ركبةٍ واحدة وراءه.

غشيهم صمتٌ مُميت.

"أستميحك عذرًا"، قال الملك بلا اهتمام.

"تحدَّثتَ حسنًا يا سيدي"، قال آدم واين، "كما تتحدَّث دومًا، عندما قلتُ إن حُبِّي لا يقلُّ عن حُبِّ هؤلاء. لكنه أقلُّ ما يمكنني تقديمه من حبٍّ؛ ذلك أنني وريث مخطِّطِك... طفل الميثاق العظيم. أقف هنا دفاعًا عن الحقوق التي منحني إيَّاها الميثاق، وأقسم -بتاجك المُقدَّس- أنني حيث أقف، سأقف راسخًا".

جحَظَت أعين الرجال الخمسة في رؤوسهم.

ثم تحدَّث بَكْ، بصوته الناشز، المرح: "هل جُنَّ العالم بأكمله؟".

اندفع الملك واقفًا، بعينين متوهِّجَتَيْن.

"نعم"، هتف، بصوت مُنتَشٍ، "لقد جُنَّ العالم بأكمله، سوايَ أنا وآدم واين. حقيقيٌّ كالموت ما أخبرتك به منذ زمن طويل يا چيمس باركر، الجدِّيَّة تبعث بالرجال إلى الجنون. أنت مجنون؛ لأنك تهتمُّ بالسياسة، تمامًا كجنون رجل يجمع تذاكر الترام. بَكْ مجنون؛ لأنه يهتم بالمال، تمامًا كرجل يعيش على الأفيون. ويلسون مجنون؛ لأنه يظنُّ نفسه على صواب، تمامًا كرجُلٍ يظنُّ نفسه الرَّبَّ كُلِّيَّ القُدرة. رئيس ويست كنسينجتون مجنون؛ لأنه يظنُّ نفسه جديرًا بالاحترام، تمامًا كجنون رجل يظنُّ نفسه دجاجة. كل الرجال مجانين باستثناء اللعوب الساخر، الذي لا يهتم بشيء ويملك كل شيء. كنتُ أظنُّ أن

هنـاك سـاخرًا واحـدًا في انجلـترا كلهـا. يـا حمقـى! يـا مُغفَّلـين! افتحـوا عيـون الأبقـار التـي في رؤوسـكم؛ هنـاك اثنـان! في نوتنـج هيـل... في تلـك الهضبـة غـير الواعـدة... هنـاك وُلـدَ فنَّـان! أردتـم إفسـاد مَزحتـي، وانتزاعـي منهـا عنـوةً، بـأن تصبحـوا معاصريـن أكـثر وأكـثر، عَمَليِّـين أكـثر وأكـثر، عقلانيـين ومجتهديـن أكـثر وأكـثر. يـا لـه مـن سرور أن أجيبكـم عـلى ذلـك بـأن أصبـح نبيـلًا أكـثر وأكـثر، عطوفًا أكـثر وأكـثر، قديمًـا ومرحًـا أكـثر وأكـثر! لكـن هـذا الشـابَّ قـد عـرفَ كيـف يدحرجنـي برشـاقة؛ ذلـك أنـه أجابنـي، تبجُّحًـا بتبجُّـح، بلاغـةً ببلاغـة. رَفـعَ الـدرع الوحيـد الـذي لا يمكننـي كسـره، درع الاختيـال المنيـع. أنصتـوا إليـه. هـل جئـت، يـا سـيدي، بشـأن شـارع بامـب؟".

"بشـأن مدينـة نوتنـج هيـل"، أجابـه وايـن، مزهـوًّا، "التـي يُمثِّـل فيهـا شـارع بامـب جـزءًا حيويًّـا ومبتهجًـا".

"ليس جزءًا كبيرًا جدًّا"، قال باركر بنبرة احتقار.

"إنـه كبـير بمـا يكفـي ليطمـع فيـه الأثريـاء"، قـال وايـن، رافعًـا رأسـه، "كبـير بمـا يكفـي ليُدافـع عنـه الفقـراء".

خبطَ الملك ساقيه معًا، ولوَّح بقدمه لثانية في الهواء.

"كل إنسـان شريـف في نوتنـج هيـل"، اقتحـم بَـكْ الحديـث، بصوتـه البـارد، الخَشِـن، "يقـف في صفِّنـا ضـدَّك. لـديَّ الكثـير مـن الأصدقـاء في نوتنـج هيـل".

"أصدقـاؤك هـم هـؤلاء الذيـن أخـذوا ذَهبَـك لبنـاء أحجـار مواقدهـم، عزيـزي السـيد بَـكْ"، قـال الرئيـس وايـن. "يمكننـي تصديـق أنهـم أصدقاؤك حقًّا".

"أبـدًا لم يبيعـوا ألعابًـا قـذرة، عـلى أيِّ حـال"، أجابـه بَـكْ، ضاحـكًا باقتضـاب.

"لقد باعوا أشياء أكثر قذارةً"، قال واين بهدوء: "باعوا أنفسهم".

"لا فائدة، صغيري بَكْ"، قال الملك، معتدلًا في كرُسيِّه. "لا يمكنك مجاراة هذه البلاغة الفروسية. لا يمكنك مجاراة فنان. لا يمكنك مجاراة فنان نوتنج هيل. أوه، *Nunc dimittis* (لنرحل الآن)... بعد أن عشتُ لأرى هذا اليوم! أيُّها الرئيس واين، هل تقف راسخًا؟".

"دعهم ينتظروا ويروا"، قال واين. "إن كنتُ وقفتُ راسخًا من قبل، فهل تظنُّ أنني سأضعف الآن وقد رأيتُ وجه الملك؟ ذلك أنني أحارب من أجل شيءٍ أعظم، إذا كان هناك شيء أعظم، من أحجار مواقد شعبي وسُلطان الأسد. أحارب في سبيل رؤاكَ الملكية، في سبيل الحُلم العظيم الذي راوَدَكَ عن عُصبة المدن الحُرَّة. منحتَني هذه الحرية. لو كنتُ متسوِّلًا لطوَّحتَ لي بقطعة نقود، لو كنتُ فلَّاحًا في رقصة وطوَّحتَ لي بحسنة، فهل تظنُّ أنني سأدعها تسقط في يدِ أيِّ همجيٍّ على الطريق؟ هذه القيادة والراية لنوتنج هيل هي عطيَّةٌ من جلالتك، وإن انتُزِعَت منِّي، فيا إلهي! لن تُنتزع إلَّا في معركة، وسيصل ضجيج تلك المعركة حتى مسامع القاطنين في تشيلسي ومساكن سانت چون وود".

"هذا كثير جدًّا... هذا كثير جدًّا"، قال الملك. "الطبيعة ضعيفة. عليَّ أن أتحدَّث إليك، أخي الفنان، دون أي مواربة. دعني أسألك سؤالًا مُقدَّسًا. آدم واين، ألا تظنُّ أن هذا جليل؟".

"جليل!" هتف آدم واين. "بل يحمل جلال الرَّبِّ".

"تُدحرجني برفق مجدَّدًا"، قال الملك. "ستحافظ دومًا على وقفتك. إنه طريف، بشكل جدِّيٍّ بالطبع. لكن جدِّيًّا، أليس الأمر طريفًا؟".

"ماذا؟" سأله واين، بعينَيْ رضيع.

"أوقف كل شيء، لا مزيد من العبث. المسألة بأكملها... ميثاق المدن. أليس هائلًا؟".

"هائل ليست كلمة غير جديرة بذلك المُخطَّط العظيم".

"أوه، حسبك! لكن، بالطبع، أرى ماذا تقصد. تريدني أن أنظِّف القاعة من هذه الخنازير العقلانية. تريد الساخريَن معًا بمفردهما. غادرونا يا سادة".

ألقى بَكْ بنظرةٍ غاضبة على باركر، وبإشارة واجمة زحفَ كامل مهرجان الأزرق والأخضر، والأحمر، والذهبي، والأرجواني، خارجًا من القاعة، تاركين وراءهم اثنين فحسب في البهو العظيم: الملك جالسًا في كرسيِّه على السُّدَّة، والشكل البشري المُتَّشح بالسواد راكعًا ما يزال على الأرض أمام سيفه الساقط.

وثبَ الملك درجتين هابطًا وخبطَ الرئيس واين على ظهره.

"قبل أن تُخلق النجوم"، هتف، "خُلقنا لبعضنا البعض. إنه أمر جميل جدًّا. فكِّر في تلك الاستقلالية البطولية لشارع بامب. هذا هو الشيء الحقيقي. إنه إضفاء الألوهية على ما هو هزليٌّ".

اندفع الشكل البشري الراكع ووقف على قدمية بتمايُلٍ مُهتاج.

"هزليٌّ!" هتف، بوجهٍ هائج.

"أوه، بربِّكَ"، قال الملك، بنفاد صبر، "لا حاجة بك لأن تُجاريني. لا بُدَّ للمُتنبِّئين أن يغفوا أحيانًا من التعب البحت لجفون العين. دعنا نستمتع بهذا لنصف ساعة، ليس كممثِّلين، لكن كنُقَّاد دراما. أليس الأمر كله نُكتة؟".

خفض آدم واين بصره كصبي، وأجاب بصوتٍ مرتبك:

"لا أفهم جلالتك. لا أستطيع تصديق أنه بينما أحارب من أجل ميثاقك الملكي، تهجرني جلالتك من أجل كلاب صيد الذهب هذه".

"أوه، اللعنة عليك... لكن ما هذا؟ ما هذا بحقِّ الشيطان؟".

حدَّقَ الملك في وجه الرئيس الشَّابِّ، وفي غبش القاعة بدأ في رؤية أنه وجهه قد ابيضَّ تمامًا وأن شفتيه ترتعشان.

"ما الأمر بحقِّ الرَّبِّ؟"، صاح أوبيرون، ممسكًا برسغه.

طوَّح واين بوجه للوراء، والتمعت الدموع في عينيه.

"لستُ سوى صبيٍّ"، قال، "لكن هذا حقيقي. سأرسم الأسد الأحمر على درعي، فقط لو تحصَّلتُ على دمائي".

تركَ الملك أوبيرون اليد ووقف بلا حراك، مصعوقًا.

"إلهي الذي في السماء!" قال؛ "هل يعقل أن يوجد في بحار بريطانيا الأربعة رجلٌ يأخذ نوتنج هيل بهذا الجدِّيَّة؟".

"وإلهي أيضًا الذي في السماء!" قال واين بحماسة مُتَّقدة، "هل يُعقَل أن يوجد في بحار بريطانيا الأربعة رجلٌ لا يأخذها بجدِّيَّة؟".

لم يَقُل الملك شيئًا، لكنه خطا متراجعًا فحسب على درجات السُّدَّة، كرجُلٍ خادِر العقل. تراجع في كُرسيِّه مُجدَّدًا وركل الأرض بعقبَيه.

"إذا استمرَّ هذا الشيء"، قال بضعف، "فسأبدأ في الشَّكِّ في سيادة الفن على الحياة. بحقِّ السماء، لا تتلاعب بي. هل تعني حقًّا أنك... ليساعدني الرَّبُّ! بطل من نوتنج هيل، أنك...؟".

أبدى واين إيماءة حادَّةً، وحاول الملك تهدئته بشرود.

"حسنًا... حسنًا... أرى أنَّكَ... لكن دعني أستوعب الأمر. تقترح حقًّا أن تحارب هؤلاء المُحسِنين المعاصرين بهيئاتهم ومُفتِّشيهم وماسحي أراضيهم وكلِّ ما تبقَّى منهم؟".

"أليسوا في غاية الشناعة؟"، سأله واين باحتقار.

استمرَّ الملك في التحديق فيه كما لو كان أعجوبةً بشرية.

"وأفترض أيضًا"، قال، "أنك تعتقد أن أطباء الأسنان وصغار التُّجَّار والخادمات الذي يقطنون نوتنج هيل، سيحتشدون مع أناشيد الحرب إلى صفِّكَ؟".

"إذا كانت لديهم دماء سيفعلون"، قال الرئيس.

"وأفترض أيضًا"، قال الملك، برأسه متراجعًا على الحشيَّات، "أنه لم يخطر على بالك قطُّ أن..."، بدا صوته وكأنه يتلاشى بنعومة، "أن أحدًا قد اعتقد أبدًا أن فكرة مثالية نوتنج هيل هي... ممم... سخيفة بعض الشيء؟".

"بالطبع يعتقدون ذلك"، قال واين. "وإلَّا فما فائدة السخرية من المُتنبِّئين؟".

"من أين"، سأله الملك، مُنحنيًا للأمام. "من أين بحقِّ السماء واتَتكَ هذه الفكرة العقيمة بهذا الشكل الإعجازي؟".

"طالما كنتَ مُعلِّمي يا سيدي"، قال الرئيس، "في كل ما هو سامٍ وشريف".

"أها؟"، قال الملك.

"كان جلالتك مَن أثارَ لأول مرَّة حِسَّ الوطنية الخافت داخلي وحوَّله إلى لهيب. قبل عشر سنوات، عندما كنتُ صبيًّا (عمري الآن تسعة عشر عامًا فحسب)، كنتُ ألعب على منحدر شارع بامب، بسيفٍ خشبيٍّ وخوذة ورقية، أحلم بحروب عظيمة. في نوبة غضب طوَّحتُ بسيفي، ووقفت مصعوقًا؛ ذلك أنني اكتشفتُ أنني ضربتك بسيفي، سيدي ومليكي، فيما كنتَ تتجوَّل بخفاءٍ نبيل، تراقب أحوال شعبك. لكن لم يكن عليَّ أن أخاف. ثم تعلَّمتَ فهم الملوكية. لم تتراجع ولم تُقطِّب جبينك. لم تستدعِ حُرَّاسَكَ. لم تُوقِع عقابًا. لكن بكلماتٍ نبيلة وقويَّة، حُفِرَت في روحي ولن تُمْحَ أبدًا، أخبَرتَني أن أوجِّه سيفي

للأبد ضد أعداء مدينتي المنيعة الطاهرة. كقسٍّ يشير بإصبعه إلى المذبح، أشرتَ إلى تلِّ نوتنج. (وداعًا)، قُلتَ، (بما أنك على استعداد للموت في سبيل الجبل المقدَّس، حتى لو كان محاطًا بكل جيوش بايزووتر). أبدًا لم أنسَ تلك الكلمات، وأجد سببًا الآن لتذكُّرها؛ ذلك أن الساعة قد حانت من أجل تحقيق نبوءتك. صارَ التَّلُّ المقدَّس مُحاطًا بجيوش بايزووتر، وأنا على استعداد للموت".

كان الملك يستلقي متراجعًا في كُرسيِّه، وكأنه حطام.

"أوه، يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي"، غمغم قائلًا، "يا لها من حياة! يا لها من حياة! كل ما صبوتُ إليه! يبدو أنني أنجزته بالكامل. إذن فأنت الصبي ذو الشعر الأحمر الذي ضربني في صدريَّتي؟ ماذا جنيتُ؟ يا إلهي، ماذا جنيتُ؟ ظننتُ أنني سأكون مَزحةً، لكنني خلقتُ شغفًا. حاولتُ أن أرسم كاريكاتيرًا ساخرًا، ويبدو أنه تحوَّل في منتصفه إلى ملحمة شعرية. ماذا أفعل بعالَم كهذا؟ باسم الربِّ، ألم تكن المزحة واضحة وصريحة بما يكفي؟ تخلَّيتُ عن حسِّي الساخر من أجل تسليتك، ويبدو أنني أجريتُ الدموع في عينيك. ماذا سيحدث للشعب عندما تَكتب مسرحيةً إيماءية من أجلهم... هل نُسمِّي حبال النقانق أكاليل كَنَسية، ليأتي رجال الشرطة وينشطروا إلى نصفين في مأساة الواجب العام؟ لكن لماذا أتحدَّث؟ لماذا أطرح أسئلة على چنتلمان لطيف جُنَّ عقله تمامًا؟ ما الفائدة من ذلك؟ من الفائدة من أيِّ شيء؟ أوه، يا إلهي! أوه، يا إلهي!".

اعتدل بغتةً في جلسته.

"ألا تعتقد حقًّا أن مسألة نوتنج هيل المقدَّسة هذه عبثٌ في عبث؟".

"عبث؟" سأله واين بصراحة. "لماذا قد أعتقد ذلك؟".

بادله الملك التَّحديق بصراحة مُماثِلة.

"أستميحك عذرًا"، قال له.

"نوتنج هيل"، قال الرئيس، ببساطة، "هي مساحة عالية مرتفعة من الأرض العادية، عليها شَيَّد الرجال منازلَ ليعيشوا فيها، فيها يولدون، ويقعون في الحب، ويتلون صلواتهم، ويتزوجون، ويموتون. لماذا قد أعتقد أنها عبثٌ في عبث؟".

ابتسم الملك.

"لأنه، عزيزي ليونيداس[1]"، شرعَ في القول، ثم اكتشف بغتةً، لا يعرف كيف، أن عقله كان خاويًا تمامًا. أيًّا كان، لماذا كان الأمر عبثًا؟ لماذا كان عبثًا؟ شعرَ كما لو أن أرضية عقله قد تداعت. شعرَ بما يشعر به جميع الرجال عندما تتعرَّض مبادئهم الأولى لضربة قاسية بفعلِ سؤالٍ ما. كان باركر يشعر دائمًا هكذا عندما يسأله الملك، "لماذا تُرهق نفسك بالسياسة؟".

كانت أفكار الملك في حالة انحدار وهزيمة. لم يَعُد قادرًا على استجماعها.

"طالما كان الأمر مرحًا بعض الشيء"، قال بضبابية.

"أفترض إذن"، قال آدم، مستديرًا إليه بمفاجئة مهتاجة، "أنك ترى الصَّلْب مسألةً جادَّة؟".

"حسنًا..."، شرع أوبيرون في القول، "أعترف أنني عادةً ما أرى فيه جانبًا جادًّا".

"إذن فأنت مُخطئٌ"، قال واين، بحدَّة لا تُصَدَّق. "الصَّلْب هزليٌّ. إنه ملهاة بارعة. شكل عبثي وقبيح من الخوزقة محجوز للناس الذين خلقوا ليثيروا الضحكات: للعبيد والسُّذَّج، لأطبَّاء الأسنان

(1) Leonidas: هو ملك أسبرطة السابع عشر، كان من أبطال معركة ألثرموبايلي، وقُتل فيها هو وجميع الأسبرطيين الذي كانوا معه في العام 480 قبل الميلاد على يد الفُرس. (المترجم)

وصغار التُّجَّار، كما تقول. رأيتُ ذات مرة شكل المشانق العجيبة، الذي كان الصبيان الرومان المُشعَّثين يرسمونه على الحوائط كنُكتةٍ مبتذَلة، تتأجَّج على أعمدة معابد العالَم. هل أتوقَّف؟".

لم يُجبه الملك.

تابعَ آدم حديثه، صوته يصدح في سقف القاعة.

"هذه الضحكة التي مارس بها الرجال استبدادهم ليست بالقوَّة الهائلة التي تظنُّها. لقد صُلبَ بطرس، صُلِب ورأسه مقلوبة. ما الشيء الأكثر طرافةً من فكرة حواريٍّ عجوز وقور مقلوبًا رأسًا على عقب؟ ما الشيء الأكثر مُجاراةً لأسلوب سخريتك المعاصرة؟ لكن ما فائدة ذلك؟ مقلوبًا رأسيًّا أم أفقيًّا، بطرس هو بطرس في أعين النوع البشري. مقلوبًا ما يزال متدلِّيًا على أرجاء أوروبا، الملايين يتحركون ويتنفَّسون في ظلِّ حياة كنيسته وحدها".

نهض الملك أوبيرون بشرود.

"هناك شيءٌ ما فيما تقوله"، قال. "يبدو أنك انغمستَ في التفكير طويلًا، عزيزي الشاب".

"هي مشاعر فحسب يا سيدي"، أجابه الرئيس. "وُلِدتُ، كأيِّ رجُلٍ آخر، في بقعة من الأرض أحببتها لأنني فيها لعبتُ ألعاب الصبيان، ووقعت في الحب، وتحدَّثتُ مع أصدقائي عبر ليالٍ هي ليالي الآلهة. وفيها شعرت بالأُحجية. تلك الحدائق الصغيرة التي حكينا فيها قصص حُبِّنا. تلك الشوارع التي استعرضنا فيها أمواتَنا. لماذا ينبغي أن تكون مبتذَلة؟ لماذا ينبغي أن تكون عبثية؟ لماذا ينبغي أن يكون من الشاذِّ أن نقول إن صناديق البريد تتمتَّع بالشَّاعريَّة في حين أنه طوال عامٍ كامل لا أتمكَّن من رؤية صندوق بريد أحمر على خلفية من المساء الأصفر في شارع بعينه دون أن أتحطَّم بفعل شيءٍ ما يحجبُ الرَّبُّ سرَّه، لكنه شيءٌ أقوى من الحزن أو البهجة؟ لماذا ينبغي لأيِّ أحد أن

يكون قادرًا على إطلاق ضحكة بعد قوله (قضية نوتنج هيل)؟ نوتنج هيل حيث الآلاف من الأرواح الخالدة تصطلي بالأمل حينًا والخوف حينًا".

كان أوبيرون ينفض الغبار عن كُمَّيه بجدِّيَّة جديدة على وجهه، تختلف كثيرًا عن وقار البومة الذي كان يتكلَّفه في سخريته القديمة.

"الأمر في غاية الصعوبة"، قال أخيرًا. "إنه شيء صعب لعين. أرى ما تعنيه؛ أتَّفق معك تمامًا باستثناء شيء واحد... أو بالأحرى ينبغي أن أتَّفِق معك، هذا لو كنتُ شابًّا بما يكفي لأن أكون نبيًّا أو شاعرًا. أشعر بالحقيقة في كل شيء تقوله حتى وصلتَ إلى الكلمات (نوتنج هيل). بالتالي يؤسفني القول إن آدم العجوز سيستيقظ جائرًا بالضحكات، ويقضي سريعًا على آدم الجديد، الذي اسمه واين".

للمرة الأولى كان الرئيس واين صامتًا، ويقف مُحدِّقًا بشكل حالم في الأرض. كان المساء يقترب، والظلام يزداد حُلكةً في القاعة.

"أعرف"، قال بصوت عجيب، ناعس تقريبًا، "أن هناك حقيقة فيما تقوله أيضًا. يصعب ألَّا يضحك المرء على الأسماء المبتذلة... لا أقول سوى إننا يجب ألَّا نفعل. لديَّ فكرة عن علاج، لكن أفكار كهذه مريعة بعض الشيء".

"أيَّة أفكار؟" سأله أوبيرون.

بدا رئيس نوتنج هيل وكأنه سقط فيما يشبه غيبوبة انتشاء، في عينيه كان ضوء جِنِّي.

"أعرف ما هي العصا السحرية، لكنها عصا يمكن لشخص أو شخصين فحسب استخدامها على نحو صحيح، ونادرًا فحسب. إنها عصا جنِّ الخوف العظيم، أقوى من هؤلاء الذين يستخدمونها... مُرعِبةً غالبًا، شرِّيرة غالبًا عند استخدامها. لكن أيًّا ما يُلمس بها لا

يُعدُّ مبتذلًا بالكامل ثانيةً أبدًا، أيًا ما يُلمس بها يتلقَّى سحرًا من خارج العالم. إذا لامستُ، بعصا الجانِّ هذه، السكك الحديدية والطُّرُق في نوتنج هيل، سيقع الرجال في حبِّها، ويخافونها للأبد".

"عن ماذا تتحدَّث بحق الشيطان؟" سأله الملك.

"لقد حوَّلَت الحدائق العادية إلى مروج بديعة، وجعَلَت الأكواخ تبقى قرونًا بعد زوال الكاتدرائيات"، تابع المجنون حديثه. "لماذا لا نستخدمها لجعل أعمدة المصابيح أجمل من المصابيح الإغريقية، وركوب الباصات كسفينة مرسومة؟ لَمسَتُها هي إصبع الكمال العجيبة".

"وما هي عصاك؟" هتف الملك، بنفاد صبر.

"ها هي"، قال واين، وأشار إلى الأرض، حيث يستلقي سيفه مستويًا ومتألِّقًا.

"السيف!" صاح الملك، واندفع واقفًا على السُّدَّة.

"نعم، نعم"، هتف واين، ببحَّةٍ في صوته. "الأشياء التي يلمسها لا تُعَدُّ فجَّةً أو متبذِّلَة، الأشياء التي يلمسها...".

أبدى الملك أوبيرون إيماءة رعب.

"ستُسفكُ الدماء من أجل هذا!"، صاح. "من أجل وجهة نظر ملعونة...".

"أوه، أنتم أيُّها الملوك، أنتم أيُّها الملوك!"، هتف آدم، في انفجار من الازدراء. "كم أنتم إنسانيُّون، عطوفون، مُنصفون! تشنُّون حروبًا من أجل الحدود، أو غنائم ميناء أجنبي، تسفكون الدماء من أجل الضرائب على أربطة الأحذية، أو تحيَّاتِ أدميرال. لكن من أجل الأشياء التي تجعل الحياة ذاتها شريفة أو يائسة- كم أنتم إنسانيُّون! أقول، وأعرف جيدًا ما أتحدَّث عنه، أنه لم توجد قَطُّ أيُّ حروب

ضروريـة باسـتثناء الحـروب الدينيـة. لم توجـد قَـطُّ أيُّ حـروب عادلـة سـوى الحـروب الدينيـة. لم توجـد قـطُّ أيُّ حـروب إنسـانية سـوى الحـروب الدينيـة؛ ذلـك أن أولئـك الرجـال كانـوا يحاربـون مـن أجـل شيءٍ يزعمـون أنـه يُقـدِّم -عـلى الأقـل- سـعادةَ الإنسـان، فضيلـة الإنسـان. اعتقـدَ محـاربٌ صليبـيٌّ واحـد -عـلى الأقـل- أن الإسـلام يوجـع روح كل إنسـان أو ملـك أو عامـل سـمكري متـى اسـتطاع الاسـتيلاء عليهـا بحـقٍّ. بينـما أعتقـد أنـا أنَّ بَـكْ وباركـر وتلـك الصقـور الثَّريَّـة هـم مَـنْ يُوجِعـون روح كل إنسـان، يُوجِعـون كل إنـش مـن الأرض، كل حجـر في المنـازل، يمكنهـم الاسـتيلاء عليه حقًّا. هـل تعتقـد أنـه لا يحـقُّ لي أن أحـارب في سـبيل نوتنـج هيـل، أنـتَ مَـن حارَبَـت حكومتـه الانجليزيـة كثـيرًا جـدًّا في سـبيل الحماقـات؟ إذا لم تكـن هنـاك آلهـة وأظلمـت السـماوات مـن فوقنـا -كـما يقـول أصدقـاؤك الأثريـاء- فمـن أجـل مـاذا عـلى الإنسـان أن يحـارب، إن لم يكـن مـن أجـل المـكان الـذي عـرفَ فيـه جنَّـة الطفولـة والنعيـم القصـير للحـب الأول؟ إذا لم تكـن المعابـد والكتـب السـماوية مُقدَّسـةً، فـما المُقـدَّس إن لم يكـن شـباب الإنسـان ذاتـه؟".

خطا الملك، جازعًا بعض الشيء، جيئةً وذهابًا على السُّدَّة.

"يَصعُـب"، قـال، عاضًّـا شـفتيه، "قبـول نظريـة يائسـة جـدًّا... مسـؤولة جـدًّا...".

بينـما يتحـدث، انفتـح بـاب قاعـة المقابـلات، وعـبر فتحتـه جـاءَ، كشـدو طـير مُباغـت، الصـوت الصـادح، الأنفـي، لكـن المُهـذَّب، لباركر.

"قلت له بوضوحٍ تام... إن المصالح العامة...".

استدار أوبيرون إلى واين بحدَّة.

"مـا كل هـذا بحـقِّ الشـيطان؟ مـاذا أقـول؟ مـاذا تقـول؟ هـل قمـت بتنويمـي مغناطيسـيًا؟ اللعنـة عـلى عينيـك الزرقاويـن العجيبتَـين! أطلـق سراحـي. أعـد إليّ حـسّ سـخريتي. أعـده إليّ - أعـده إليّ، أقـول لـك!"

"أؤكد لك بأغلظ الأيمان"، قال واين، بإيماءةٍ مضطربة، كما لو أنه فقد ثبات روحه، "أنني لم آخذه".

تراجع الملك في كُرسيِّه، وانغمس في معمعةٍ من الضحك البذيء اللاذع.

"لا أعتقد أنك فعلت"، هتفَ قائلًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكتاب الثالث

الفصل الأول

الحالة العقلية لآدم واين

بعد فترةٍ قصيرة من اعتلاء الملك العرش ظهرَ كتاب قصائد صغير، بعنوان "أناشيد على التَّلِّ". لم تكن قصائد جيدة، ولا الكتاب ناجحًا، لكنه اجتذب اهتمامًا معيَّنًا من مدرسة نُقَّاد بعينها. الملك نفسه -الذي كان عضوًا في تلك المدرسة- راجعه بصفته ناقدًا أدبيًّا وصنَّفه على أنه "قادم مباشرةً من الاصطبلات"، يوميًّات رياضية. كانت هذه المدرسة معروفة باسم (مدرسة الأراجيح الشَّبَكيَّة)؛ لأنه ذاعَ بشكل خبيث على لسان أحد أعدائها أنه ما لا يَقِلُّ عن ثلاث عشرة من مقالاتها النقدية الرفيعة كانت تبدأ بالكلمات، "قرأت هذا الكتاب على أرجوحة: نصف نائم في ضوء الشمس الناعس، وأرى..."، وبعدها تظهر التبايُنات الهامَّة في الآراء. في ظلِّ هذه الظروف كان أعضاء المدرسة يُعجَبون بكل شيء، لكن على الأخص بكل شيء ساذج ومبتذل. "بجانب الجودة الأصيلة في كتاب"، كانوا يقولون، "بجانب

الجودة الأصيلة في كتاب (وهو كتاب، وا أسفاه! لا نجده أبدًا) نتوق إلى رداءة ثريَّة". بالتالي حدثَ أن مديحهم (الذي يشير إلى رداءةٍ ثريَّة) لم يكن غايةً كونية، وأن المؤلفين أصبحوا أقلُّ اكتراثًا عندما يكتشفون أن عين مدرسة الأراجيح الشَّبكية قد وقعت عليهم بإحسانٍ غريب.

كانت غرابة "أناشيد على التَّلِّ" تتمثَّل في الاحتفال بشِعر لندن تمييزًا له عن شِعر الريف. هذه الشعور أو الانفعال لم يكن، بالطبع، غير شائع في القرن العشرين، ولم يكن بأيِّ شكل، رغم المبالغة فيه واصطناعِه أحيانًا، بلا حقيقة عظيمة في جذوره؛ ذلك أنه هناك جانب واحد يجب أن تكون فيه المدينة أكثر شاعريَّةً من الريف، بما أنها أكثر قُربًا من روح الإنسان؛ فلندن، رغم أنها ليست واحدة من روائع الإنسان الفنية، إلَّا أنها واحدة من خطاياه على الأقل. الشارع أكثر شاعريةً حقًّا من المرج؛ لأن الشارع يحمل سرًّا. الشارع يؤدِّي إلى مكانٍ ما، والمرج إلى لا مكان. لكن في حالة الكتاب المُعَنوَن "أناشيد على التل"، يوجد وجه غرابة آخر، أشار إليه الملك بحصافةٍ كبيرة في مراجعته. كان من الطبيعي أن يهتمَّ بالمسألة؛ ذلك أنه كان نَشرَ مُجلَّدًا من القصائد الغنائية حول لندن تحت الاسم المستعار "حُلم يقظة الأقحوان".

هذا الفرق الذي أشار إليه الملك، يكمُن في حقيقة -رغم أن المُتصنِّعين من أمثال "حُلم يقظة الأقحوان" (الذي كان الملك، بتوقيعه باسم مستعار آخر، "الوعيد الصاخب"، شديد القسوة على أسلوبه المُسهِب) قد انغمسوا في مديح لندن عبر مقارنتها بالريف، باستخدام الطبيعة كخلفيَّة تنبثق منها كل الصور الشاعرية حتمًا- أن المؤلف الأكثر فجاجةً لقصائد "أناشيد على التل" قد قدَّمَ مديحًا للريف، أو الطبيعة، عبر مقارنته بالمدينة، واستخدمَ المدينة نفسها كخلفية. "خُذ مَثَلًا"، يقول الناقد، "الأسطر الأنثوية لحُلم يقظة الأقحوان:

(إلى مخترع عربة الأحصنة:

الشاعر، الذي نحتت براعته هذه الصَّدَفة الشَّبقيَّة، حيث يسكن اثنان ربما)".

"بالتأكيد"، كتبَ الملك، "لا أحد سوى امرأة يمكنها كتابة هذه السطور. دائمًا ما تتمتَّع المرأة بضعفٍ تجاه الطبيعة، وفنُّها لا يكون جميلًا إلَّا كصدى أو ظلٍّ للطبيعة. إنها تمدح عربة الأحصنة في الموضوع والنظرية، لكن روحها ما تزال طفلةً تجمع الصَّدَفات بجوار البحر. لا يمكنها أبدًا أن تكون ابنة المدينة بالكامل، كما يمكن لرجُل، في الحقيقة، ألا نتحدث دومًا (بملاءمة مُقدَّسة) عن (رجل في مدينة)؟ مَن يتحدَّث أبدًا عن امرأة في مدينة؟ مهما كانت تلك المرأة (ابنة المدينة) بشكل جسدي، فإنها تقتدي دومًا بنموذج الطبيعة، تحاول أن تحمل الطبيعة معها، تستجدي الأعشاب أن تنمو على رأسها، والحيوانات ذات الفرو أن تعضَّ عنقها. في قلب المُدن الكابية، تضع قبَّعتها على شكل حديقة أزهار تحيط بكوخ مُتماوج. بينما نضع نحن قُبَّعاتنا، بشاعريَّتِنا المتحضِّرة الأكثر نُبلًا، على نموذج قدور المداخن، رايات الحضارة. وحتَّى لا تفتقد صُحبة الطيور؛ فهي على الاستعداد لارتكاب مذبحة، إلى حدِّ تحويل رأسها إلى شجرة، بطيور ميِّتة تشدو عليها".

استمرَّ هذا الأسلوب من النقد الأدبي لصفحات كثيرة، ثم تذَكَّرَ الناقد الموضوع الرئيسي، وعاد إليه.

"الشاعر، الذي نحتت براعته هذه الصَّدَفة الشَّبقيَّة، حيث يسكن اثنان ربما".

"إن غرابة هذه الأسطر الرفيعة والأنثوية مع ذلك، استمرَّ "الوعيد الصاخب"، تكمنُ -كما قلنا- في أنها تمدح عربة الأحصنة عبر مقارنتها بالصَّدَفة، بشيءٍ طبيعي. والآن، لنستمع إلى مؤلف "أناشيد على التل"،

ونَـرَ كيـف تعامـل مـع نفـس الموضـوع. في مقطوعتـه الحالمـة الرفيعـة، المعنونـة "البـاص الأخـير" نجـد أنـه يُحـرِّر الكآبـة الثَّريَّـة والحـادَّة للموضوع عـبر حـسٍّ مفاجـئ مُندفـع في النهايـة:

"الريـح تسـتدير حـول زاويـة الشـارع القديـم، تتطـوَّح بغتـةً وسريعًـا كعربـة أحصنـة"".

"هنـا نـرى الفـرق واضحًـا. يعتقـد "حلـم يقظـة الأقحـوان" أنـه مـن الإطـراء العظيـم لعربـة الأحصنـة أن تُقـارَن بواحدة مـن الفجـوات الدَّوَّاميَّة للبحـر. بينـما يعتقـد مؤلِّـف "أناشـيد عـلى التـل" أنـه مـن الإطـراء العظيـم للعاصفـة الخالـدة أن تُقـارن بعربـة أحصنـة متهالِكَـة. إنـه حتـمًا المُعجَـب الحقيقـي بلنـدن. لا مجـال لدينـا للتحـدُّث عـن كل اسـتخداماته المُتقنـة للفكـرة، تلـك القصيـدة، مثـلًا، التـي نجـد فيهـا عينَـي امـرأة تقارنـان، ليـس بالنجـوم، لكـن بمصباحـي شـارع بديعَـين يرشـدان العابريـن. لا مجـال لدينا للتحـدُّث عـن الغنائيـة الرفيعـة، التـي تُذكِّرنـا بـروح العـصر الإليزابيثـيِّ، وفيهـا يقـول الشـاعر -بـدلًا مـن قولـه إن الزهـرة والزنبقـة تتزاحـمان في جلـد المـرأة، بحداثيَّـةٍ أكـثر نقـاءً- إن البـاص الأحمـر لهامرسـميث والبـاص الأبيـض لفولهـام يتقاتـلان هنـاك عـلى السـيادة. كـم هـي متقنـة صـورة الباصـين المتحاربَـين هـذه!".

هنـا، بغتـةً بعـض الـشيء، تنتهـي المراجعـة، ربمـا لأن الملـك اضطـرَّ إلى إرسـالها في تلـك اللحظـة؛ ذلـك أنـه في حاجـة إلى بعـض المـال. لكـن الملـك كان ناقـدًا بارعًـا بحـقٍّ، أيًّـا مـا كان كملـك، وقـد أصـاب -إلى حـدٍّ معقـول- كبـد الحقيقـة. لم تكـن "أناشـيد عـلى التَّـلِّ" عـلى الإطـلاق كالقصائـد التـي تُنـشر في الأصـل في مديـح شـعر لنـدن. والسـبب أنهـا كُتِبَـت في الحقيقـة عـلى يـد رجـل لم يكـن رأى شـيئًا آخـر سـوى لنـدن، ويعتبرهـا -بالتـالي- الكـون بأكملـه. كتبـت عـلى يـد شـابٍّ أصهـب، جلـف، في السـابعة عـشرة مـن عمـره، اسـمه آدم وايـن، كان وُلـد في نوتنـج هيـل. منعتـه حادثـة في

السابعة من عمره من انتزاعه بعيدًا ليعيش بجوار البحر؛ وبالتالي قضى حياته بأكملها في شارع بامب، وما يحيط به. كانت النتيجة أنه يرى مصابيح الشوارع كأشياء خالدة تمامًا كالنجوم، واختلطت النار ان معًا. يرى المنازل كأشياء دائمة، تمامًا كالجبال؛ ولذلك كتب عنها كما يكتب المرء عن الجبال. تضع الطبيعة قناعًا عندما تتحدَّث إلى الرجل العادي، مع هذا الرجل وضَعَت قناع نوتنج هيل. في عينَيْ رجل وُلِدَ في تلال كامبرلاند، فإن الطبيعة تعني أفقًا عاصفًا وصخورًا مباغتة. ولشاعر وُلدَ في مساكن إسيكس، ستعني مخلَّفات المياه الفخيمة وغروبات الشمس الباهرة. بذلك فإن الطبيعة لهذا الرجل المدعو واين كانت صفًّا من الأسقف البنفسجية والمصابيح الليمونية، جلاء وقتامة المدينة في آنٍ. لم يعتقد أنه من الطرافة أو الحَذق في شيء أن يمدح ظلال وألوان المدينة، لم يكن رأى أي ظلال أو ألوان أخرى؛ لذلك مَدَحها؛ لأنها كانت ظلالًا وألوانًا. رأى كل هذا لأنه كان شاعرًا، رغم أنه شاعر رديء عَمليًّا. كثيرًا ما ننسى أن الرجل يظلُّ رجلًا مهما كان طالحًا، كذلك فإن الشاعر يظلُّ شاعرًا مهما كان رديئًا.

كان الكتاب الشِّعري الصغير للسيد واين فشلًا ذريعًا، واستسلم هو لقرار القدَر بتواضُعٍ عقلاني بحت. عاد إلى عمله، أي مساعد تاجر الأقمشة، ولم يكتب أيَّ شيء آخر. احتفظ مع ذلك بشعوره تجاه مدينة نوتنج هيل؛ لأنه لا يعرف أيَّ شعور آخر ببساطة؛ لأن ذلك الشعور هو خلفية وأساس عقله. لكنه لم يُبدِ أيَّ محاولة بعينها للتعبير عن ذلك الشعور أو الإصرار عليه.

كان متصوِّفًا طبيعيًّا أصيلًا، واحدًا من هؤلاء الذين يعيشون على تخوم أرض الجانِّ. لكن ربما كان أول من أدرك أن تخوم أرض الجانِّ كثيرًا ما تمضي عبر مدينة مزدحمة. على بُعد عشرين قدمًا منه (ذلك أنه كان قصير النظر جدًّا) كانت تحتشد الشموس الحمراء والبيضاء

والصفـراء لمصابيـح الغـاز وتـذوب فيـما بينهـا كبسـتان مـن الأشـجار المتوهجـة، بوَّابـة إلى غابـات أرض العفاريـت.

لكـن مـن الغريـب أنـه لم يصـل إلى انتصـاره العجيـب والوحيـد إلَّا لأنـه كان شـاعرًا صغـيرًا. ولأنـه كان فاشـلًا في الأدب أصبـح أعجوبـةً في التاريـخ الانجليـزي. كان واحـدًا مـن هـؤلاء الذيـن تمنحهـم الطبيعـة رغبـة التعبـير الفنِّـيِّ لكـن ليـس القـدرة عليـه. طالمـا كان شـاعرًا أحمـقَ منـذ المهـد. ربمـا يظـلُّ كذلـك حتـى قـبره، ثـم يُحمـل مكتومًـا إلى قلـب الظـلام ككنـزٍ مـن الأغـاني الجديـدة والاسـتثنائية. حـدثَ أنـه كان عـلى رأس حيِّـه شـديد القـذارة في زمـن حادثـة الملـك الهزليـة، في الزمـن الـذي أُمِـرَت فيـه جميـع الأحيـاء بغتـةً بالاحتفـال الصاخـب بالشـارات والأزهـار. في قلـب المسـيرة الطويلـة للشـعراء الصامتـين، وهـي مسـيرة مسـتمرَّة منـذ بـدء العـالم، وجد هـذا الرجـل نفسـه في قلـب رؤيـة شِـعارية، فيهـا كان بمقـدوره التَّـصرُّف والتحـدُّث والعيـش عـلى نحـو غنـائي. وبينـما تعامـل المؤلـف والضحايـا عـلى السـواء مـع المسـألة عـلى أنهـا تمثيليـة مُصطنَعـة سـخيفة مـن قِبـل الجمهـور، انبثـق هـذا الرجـل وحـده بغتـةً، ناظـرًا إلى الأمـر بجدِّيَّـة، إلى عـرشٍ مـن الجـبروت الفنِّـيِّ. أُلقيـت أمامـه الـدروع والموسـيقى والرايـات ومشـاعل الحُـرَّاس وضجيـج الطبـول وكل التجهيـزات المسرحيـة. بـدأ واضـع القـوافي البائـس هـذا، بعـد أن أحـرق قوافيـه، في عيـشِ حيـاة الهـواء الطلق وصـكَّ شـعرًا طالمـا حَلُـمَ بـه كل شـعراء الأرض هبـاءً؛ حيـاةً مـا الإليـاذة إلا بديـلًا مُتبـذلًا لهـا.

خارجًـا مـن طفولتـه القصـيرة الذاهلـة، ترعـرعَ آدم وايـن بقـوةٍ وصمـتٍ، حاملًا سـمةً أو قـدرةً يُنظـر إليهـا في المُـدن الحديثـة عـلى أنهـا مُصطنَعـة بالكامـل تقريبًـا، لكنهـا قـد تكـون طبيعيـةً، وكانـت بالفعـل طبيعيـةً بشـكل وحـشي وجوهـري داخلـه، تلـك السـمة أو القـدرة التـي تُدعـى الوطنيـة. وهـي سـمةٌ تظهـر، كالفضائـل والرذائـل الأخـرى في واقـع نقـيٍّ مُعـيَّن، غـير مُختلطـةٍ مـع كل أنواع الأشـياء الأخـرى. إن طفـلًا يتحدَّث

عـن بلـده أو قريتـه قـد يرتكـب كل خطـأ في ماندفيـل أو ينطـق بـكل كذبـةٍ في مونشاوسـن، لكـن في أحاديـث شـاعرنا هـذا لا توجـد أيُّ أكاذيـب نفسـية أكـثر مـمَّا يوجـد في أي أغنيـة عذبـة. كان آدم وايـن، كصبـيٍّ، يحمـل لشـوارعه الكئيبـة في نوتنـج هيـل ذلـك الشـعور المطلـق والعتيـق الـذي انطلـق مُتمظهـرًا مـن أجـل أثينـا أو أورشـليم. كان يعـرف سرَّ الحماسـة والانفعـال، تلـك الأسرار التـي تجعـل الأناشـيد الوطنيـة القديمـة الحقيقـة تبـدو غريبـة جـدًّا عـلى حضارتنـا. كان يـدرك أن الوطنيـة الحقيقـة تميـل للتغنِّـي بالأحـزان والآمـال اليائسـة أكـثر مـن الانتصـارات. كان يعـرف أنـه في أسـماء الأعـلام ذاتهـا تكمـن نصـف أشـعار كل القصائـد الوطنيـة. الأهـمُّ مـن ذلـك، أنـه كان يعـرف الحقيقـة السـيكولوچية الأسـمى بشـأن الوطنية، بيقـينٍ كاليقـين بـأن عـارًا رفيعًـا يلحـق بجميـع العُشَّـاق، أن الوطنـيَّ أبـدًا لا يتباهـى تحـت أيِّ ظـروف بكِـبَر بـلاده، لكنـه دائمًـا وبالـضرورة، يتباهـى بصِغَرِهـا.

كل هـذا كان يعرفـه، ليـس لأنـه كان شـاعرًا أو عبقريًّـا؛ لكنـه لأنـه كان طفـلًا. أيُّ مَـن يبـالي بالسـير في حـيٍّ فقـير حـدوديٍّ مثـل شـارع بامـب، يمكنـه رؤيـة آدم صغـير يدَّعـي أنـه مَلـكُ حَجَـرِ رصيـف. وأنـه دومًـا سـيكون في غايـة التباهـي إذا كانـت الحَجَـر في غايـة الضيـق عـلى أن يحتـوي قدمـه داخلـه.

كان فيـما هـو غـارق في حلُـم المعـارك الدفاعيـة ذلـك، يضـع العلامـات عـلى بقعـة مـن الشـارع أو قلعـة مـن الأدراج الحجريـة كحـدٍّ لمملكتـه المزعومـة المختالـة، أن قابلـه الملـك، وببضـع كلـمات تطايَـرَت في محـاكاة سـخرية، صـادقَ للأبـد عـلى الحـدود العجيبـة لروحـه. ومـن بعدهـا صارت الفكـرة الخياليـة للدفـاع عـن نوتنـج هيـل بالحـرب بالنسـبة لـه راسـخةً كفكـرة الأكل أو الـشرب أو إشـعال غليـون. تخلَّـص مـن وجبـات طعامـه مـن أجلهـا، بـدَّل خططـه مـن أجلـه، اسـتلقى مسـتيقظًا في الليـل وراجعهـا مـرةً تلـو الأخـرى. متجريـن أو ثلاثـة كانـت بالنسـبة لـه ترسـانة أسـلحة،

بقعة أرض صغيرة بمثابة خندق مائي، زوايا الشُّرفات وانحناءات الأدراج الحجرية بمثابة نقاط تَمَركَز للمدافع ورُماة السهام. يستحيل تقريبًا على أيِّ خيال عادي أن يستوعب الدرجة التي كان قد حوَّل بها المنظر العام الرصاصي الكابي للندن إلى ذهبٍ رومانتيكي. بدأت العملية تقريبًا عندما كان رضيعًا، وصارت عادةً تشبه الجنون الحقيقي. كان يشعر بها بحدَّة في الليل، عندما تكون لندن ذاتها بحقٍّ، عندما تسطع مصابيحها في الظلام كعيون قِطَطٍ لا تُحصى، وتتمتَّع حدود المنازل المُظلمة بالبساطة الجريئة للتلال الزرقاء. لكن في عينيه كان الليل كاشفًا وليس حاجبًا؛ ذلك أنه كان يقرأ كل الساعات الجوفاء الهامدة للصباح والظهيرة، بتعبيرات مُتناقضة، في ضوء ذلك الظلام. في عينَيْ هذا الرجل، كان المُحال قد حدث. صارت المدينة الاصطناعية بالنسبة له هي الطبيعة، واستشعرَ أحجار الرصيف ومصابيح الغاز أشياء قديمةً قِدَم كالسماء.

مثال واحد يكفي. كالسير عبر شارع بامب مع صديقٍ ذات يوم، وقوله، فيما يحدِّق بشكل حالم في السور الحديدي لحديقة أمامية صغيرة، "كم تُهيِّج هذه القضبان دماء المرء!".

يتطلَّع صديقه، الذي كان مُريدًا عقلانيًّا كبيرًا، إلى القضبان بألم، لكن دون أيِّ انفعال في عينيه. يشغله الأمر كثيرًا لحدِّ أنه يعود مرَّاتٍ كثيرة في الأمسيات الهادئة ويُحملقُ في القضبان، مُنتظرًا أن يحدث شيءٌ لدمائه، لكن بلا نجاح. في النهاية يلجأ إلى سؤال واين نفسه. يكتشف أن النشوة تكمنُ في النقطة الوحيدة التي لم يلاحظها أبدًا في القضبان حتَّى بعد زياراته السِّتَّة... في حقيقة أنها كانت -كمعظم الأشياء الأخرى في لندن- مُشكَّلة في قِمَّتها على هيئة رُمح. كطفل، كان واين، بلا وعي بعض الشيء، يقارنها بالرِّماح في لوحات لانسلون والقدِّيس چورچ، وترعرع تحت ظلِّ هذا الربط الرُّسوميِّ. والآن، متى تطلَّع إليها، فهي ببساطة الأسلحة المُتراصَّة المُثلَّمة التي تَصنعُ سورًا

من الصُلب حول البيوت المُقدَّسة لنوتنج هيل. لم يكن بمقدوره تطهير عقله من ذلك المعنى حتَّى لو حاول. لم تكن مقارنةً توهُّميَّة، أو أي شيء من هذا القبيل. لن يكون من الصدق القول إن القُضبان العادية تُذكِّره بالرماح، لكن الأكثر صدقًا القول إن الرماح العادية تُذكِّره أحيانًا بالقُضبان.

بعد بضعة أيَّام من لقائه بالملك، كان آدم واين يخطو كأسدٍ حبيس أمام خمسة متاجر تشغل نهاية الشارع المُتنازَع عليه. كانت متجر بقالة، وصيدلية، وحلَّاق، ومتجر تُحف قديمة ومتجر ألعاب يبيع الصحف القديمة أيضًا. كانت هذه المتاجر الخمسة هي ما اختارتها دِقَّته المفرطة الطُّفوليَّة في البداية كأساس لحملة نوتنج هيل العسكرية، قلعة المدينة. إذا كانت نوتنج هيل هي قلب الكون، وشارع بامب هو قلب نوتنج هيل، فهذه المتاجر هي قلب شارع بامب. حقيقة أنها جميعًا كانت صغيرة ومتراصَّة جنبًا إلى جنبًا خلقَت ذلك الشعور بالارتياح والتضامُن الهائلين، وهو ما كان بمثابة، كما قلنا، القلب من وطنيَّته، ومن أي وطنية. أشركَ البقَّال (الذي لديه رخصة نبيذ ومشروبات كحولية) لأنه كان بمقدوره إمداد الحامية بالزاد، ومتجر التحف القديمة لأنه يضمُّ ما يكفي من السيوف، والمسدَّسات والرماح والأقواس والنُّشَّابة والبنادق لتسليح كتيبة غير نظامية بأكملها، ومتجر الألعاب والصُّحف لأن واين يؤمن بأن الصحافة الحُرَّة تُمثِّل المركز من روح شارع بامب، والصيدلية للتعامل مع انتشار الأمراض بين المُحاصَرين، والحلَّاق لأنه كان في منتصف باقي المتاجر، كما أن ابن الحلَّاق كان صديقًا مُقرَّبًا وذا تآلُفٍ روحانيٍّ.

كانت أمسية من شهر أكتوبر بسماءٍ صافية من السحب تهبط بالأرجواني، مُتحوِّلةً إلى الفضِّيِّ النَّقيِّ، على أسقف ومداخن الشارع الصغير المنحدر، الذي بدا مسودًّا وعنيفًا ودراماتيكيًّا. توهَّجَت واجهات المتاجر المضاءة بالغاز في الظلال العميقة كخمس نيران في صفٍّ واحد،

وأمامها، كشبح بحدود قاتمة على خلفية من الأفران التطهيرية، كان الشكل البشري الطويل شبيه الطيور لآدم واين بأنفه العُقابيَّة، يخطو جيئةً وذهابًا.

لوَّحَ بعصاه بقلق، وبدا أنه يتحدَّث لنفسه بشكل مُتقطِّع.

"توجد، على أيِّ حال، ألغازٌ"، قال لنفسه، "حتَّى للرجل الذي يحمل عقيدةً. توجد شكوكٌ تبقى حتَّى بعد اكتمال الفلسفة الحَقَّة في كل درجة ومسمار. وها هو أحدها. هل الحاجة البشرية الطبيعية، الشرط الإنساني الطبيعي، أسمى أم أدنى من تلك الوضعيات الخاصة للروح التي تصرخ مطالبةً بالأمجاد الخطيرة والغامضة؟ تلك القوى الخاصة للمعرفة أو التضحية التي لا تصبح ممكنةً إلَّا بوجود الشَّرِّ؟ أيُّهما يهرع أولًا لانفعالاتنا: صحَّة العقل المُكابِدة الكامنة في السلام أم الفضائل نصف المجنونة الكامنة في المعارك؟ أيُّهما ينبغي أن يأتي أوَّلًا: عَظمة الرجل في التطوافات اليومية العادية أم عظمته في الضرورات الطارئة؟ أيُّهما له الأولوية: للعودة إلى اللغز الذي أمامي، البقَّال أم الصيدلاني؟ أيُّهما يُمثِّل ركيزةً للمدينة أكثر من الآخر: الصَّيدلانيُّ النبيل النشيط أم البقَّال الخَيِّر الذي يُوفِّر كل شيء؟ في شكوك روحانية مُطلقة كهذا يمكن فحسب اختيار جانب الغرائز العليا، وتحمُّل العاقبة. على أيِّ حال، حسمتُ اختياري. ربما أنا معذور في اختياري؛ لهذا أختار البَقَّال".

"صباح الخير يا سيدي"، قال البقَّال، الذي كان رجُلًا في منتصف عمره، أصلع جزئيًّا، بشارب أحمر خَشِن ولحية، وجبين مُغضَّن بكل هموم التاجر الصغير. "ماذا بوسعي أن أفعل من أجلك يا سيدي؟".

انتزع واين قُبَّعته عند دخوله المتجر، بإيماءةٍ احتفالية، جعلت التاجر، رغم بساطتها، ينظر إليه ببدايات اندهاش.

"جئتُ يا سيدي"، قال بوقار، "لأناشد وطنيَّتك".

"عجبًا يا سيدي"، قال البقَّال، "يبدو هذا كأيام صباي عندما كانت لدينا انتخابات".

"ستكون لدينا انتخابات مُجدَّدًا"، قال واين بثبات"، وأشياء أخرى أعظم. انظر سيد مِيدْ. أُدركُ الإغراءات التي يحملها البقَّالون تجاه الفلسفات الكوزموبوليتانيَّة المتطرِّفة. بمقدوري تخيُّل كيف هو الأمر مع الجلوس طوال اليوم كما تفعل مُحاطًا ببضائع قادمة من كل أطراف الأرض، من بحَّارٍ غريبة لم نبحر فيها قطُّ وغابات غريبة لا نقدر على تخيُّلها حتى. أبدًا لم يكن لدى أيِّ ملك شرقي أساطيل تجارية كهذه أو شحنات تصل من شروق الشمس إلى غروبها، وسليمان بكل مجده لم يكن مُغتنيًا مثلك. الهند عند مرفقيك"، هتف، رافعًا صوته ومشيرًا بعصاه إلى خزانة أرزٍّ، والبقَّال مُبديًا حركةَ حَذِرَة، "الصين أمامك، ديميرارا وراءك، أمريكا فوق رأسك، وفي هذه اللحظة ذاتها، كأدميرال أسباني عجوز، تقبض على تونس بيديك".

أسقط السيد مِيدْ صندوق التمور الذي كان على وشك رفعه، ثم تناوله مُجدَّدًا وقد التبس عليه الأمر.

استمرَّ واين بانفعال أكبر، لكن بصوتٍ أدنى.

"أعرف، كما قلتُ، إغواءات هذه الرؤيا، الدولية والكونية للغاية، للثروة. أعرف أن الخطر الذي يواجهك ليس أن تسقط كعديد من التُّجَّار في تعصُّبٍ وضيق أفق مُغبرٍّ وميكانيكيٍّ للغاية، بل أن تكون منفتحًا، تعميميًّا، ليبراليًّا بشكل زائد. إذا كانت القومية ضيِّقة الأفق هي الخطر الذي يُمثِّله طاهي الحلوى، الذي يصنع بضاعته تحت سمائه الخاصة، فإن كوزموبوليتانيَّة البقَّال لا تقلُّ خطرًا. لكنني جئتُ إليك باسم تلك الوطنية التي لا يمكن لأي تجوال أو تنوير أن يُطفئها؛ لأطلب منك أن تتذكَّر نوتنج هيل؛ ذلك أنها، في نهاية المطاف، لم تلعب دورًا صغيرًا في هذه العظمة الكوزموبوليتانية. ربما جاءت تمورك

مـن نخيـل المغـرب، وسُـكَّرك مـن الجـزر الاسـتوائية العجيبـة، بربـاري، وشـايَك مـن القـرى السريـة لامبراطوريـة التنـين. ربمـا تكـون هـذه الغرفـة مؤثِّثـة، ربمـا فسَـدَت غابـات تحـت كوكبـة نجـوم "الصليـب الجنـوبي"، وربمـا أطلـق العمالقـة رماحهـم تحـت النجـم القطبـي. لكنـك أنـت نفسـك -حتـمًا لسـتَ كنـزًا هيِّنًـا- أنـتَ نفسـك، العقـل الـذي يسـيطر عـلى هـذه المصالـح الشاسـعة... أنـتَ نفسـك، عـلى الأقـل، قـد اكتسـبت قـوَّةً وحكمـةً وسـط هـذه المنـازل الرماديـة وتحـت هـذه السـماء المطـيرة. هـذه المدينـة التـي صنَعَتـكَ، وبالتـالي صنَعَـت ثروتـك، مُهـدَّدة بالحـرب. تعـال واحـكِ لأطـراف الأرض هـذا الـدرس. الزيـت مـن الشـمال والفواكـه مـن الجنـوب، الأزر مـن الهنـد والتوابـل مـن سريلانـكا، الأغنـام مـن نيوزيلانـد والرجـال مـن نوتنـج هيـل".

جلـسَ البقَّـال للحظـات، بعينـين غائمتـين وفـمٍ مفتـوح، وكأنـه سـمكة. ثـم حـكَّ مؤخـرة رأسـه وصمـتَ قليـلًا ثـم قـال:

"تريد شيئًا من المتجر يا سيدي؟".

تطلَّـع وايـن حولـه بنظـراتٍ ذاهلـة. رأى كومـة مـن علـب قطـع الأنانـاس القصديريـة، ولـوَّحَ بعصـاه بـلا تحديـد نحوهـا.

"نعم"، قال؛ "سآخذ هذه".

"كلُّها يا سيدي؟" سأله البقال، باهتمامٍ مُتصاعد بشدَّة.

"نعـم، نعـم؛ كلُّهـا"، أجابـه وايـن، مذهـولًا مـا يـزال قليـلًا، كرجـلٍ تَبلَّـلَ بمـاءٍ بـارد.

"حسـن جـدًّا يـا سـيدي؛ شـكرًا سـيدي"، قـال البقـال بنشـاط. "يمكنـك الاعتـماد عـلى وطنيَّتـي، سـيدي".

"أعتمد عليها حقًّا"، قال واين، وخرج إلى الليل المحتشد.

أعادَ البقَّال وضع صندوق التمور إلى مكانه.

"يا له من رجل لطيف!" قال. "من الغريب أن يكون أكثر لطفًا من المعتاد هنا".

في هذه الأثناء كان آدم واين يقف خارج متجر الصيدلاني المتوهِّج، مترددًا كما يبدو بجلاء.

"يا لها من نقطة ضعف!"، غمغم. "أبدًا لم أتخلَّص منها منذ طفولتي... الخوف من هذا المتجر السحري. البقَّال ثري، رومانتيكي، شاعري بأصدق المعاني، لكنه ليس... لا، ليس خارقًا للطبيعة. لكن الصيدلاني-الكيمائي! كل المتاجر الأخرى تقف في نوتنج هيل، لكن هذا يقف في أرض العفاريت! انظُرْ إلى هذه الأوعية المشتعلة الهائلة ذات الألوان العجيبة. لا بُدَّ أن منها يطلي الرَّبُّ غروبَ الشمس. إنه إنسان خارق، والانسان الخارق يكون أكثر إدهاشًا عندما يكون مفيدًا. هذا هو جوهر الخوف من الرب. أنا خائف. لكن لا بدَّ أن أكون رجلًا وأدخل".

كان رجُلًا ودخلَ. كان هناك رجل قصير ببشرة داكنة وراء منضدة البيع يرتدي عوينات، حيَّاه بابتسامة مُشرقة لكنها عمليَّة بالكامل.

"مساء طيب، سيدي"، قال له.

"طيب بالفعل، أيُّها الأب الغريب"، قال آدم، ماذًّا يده بوقاحة بعض الشيء. "في ليالٍ صافية، مبتهجةٍ كهذه يبرزُ مَتجرُكَ مُحقِّقًا ذاته. ثم تظهر مُكتملةً تلك الأقمار الخضراء والذهبية والقرمزية، التي تُرشد من بعيد رحَّالة الألم والمرض إلى بيت السحر الرحيم هذا".

"هل بوسعي أن أجلب لك أي شيء؟"، سأله الصيدلاني.

"دعني أرَ"، قال له واين، بطريقة ودودة لكن ذاهلة. "اجلب لي بعضًا من النشادر".

"زجاجة بثمان بنسات أم بعشرة بنسات أم بشلن وستة بنسات؟"، سأله الشابُّ بلطف.

"بشلن وستة بنسات... شلن وستة بنسات"، أجابه واين، باستسلام مُطلق. "جئتُ إليك، سيد باولز؛ لأسألك سؤالًا مريعًا".

صمت لبرهة واستجمع نفسه.

"من الضروري"، غمغم، "من الضروري أن أكون لبقًا، وأن أقدِّم الالتماس بما يليق بكل مهنة على السواء".

"جئتُ"، استأنف حديثه بصوتٍ عال، "لأسألك سؤالًا يمتدُّ إلى جذور أعمالك الشاقَّة الإعجازية. سيد باولز، هل سيتوقَّف كل هذا السحر؟"، ولوَّح بعصاه في أرجاء المتجر.

عندما لم يجد إجابةً، تابع بحماسة:

"في نوتنج هيل طالما شعرنا حتى أعماقنا بالألغاز العِفريتية لمهنتك. والآن صارت نوتنج هيل نفسها مُهدَّدةً".

"أي شيء آخر، سيدي؟" سأله الصيدلاني.

"أوه"، أجابه واين، مُنزعجًا بعض الشيء، "أوه، ماذا يبيع الصيادلة؟ مُركَّب الكينين، أعتقد. شكرًا. هل سيتعرَّض للتدمير؟ لقد التقيت برجالٍ من بايزووتر ونورث كنسينجتون... سيد باولز، إنهم مادِّيُّون. لا يرون سحرًا في عملك، حتَّى وإن كان تأثيره يمتدُّ إلى داخل حدودهم ذاتها. يعتقدون أن الصيدلاني شيء عادي ومبتذَل. ينظرون إليه كإنسان".

بدا الصيدلاني أنه سيصمت، لوهلة فحسب، لاستيعاب الإهانة، ثم قال على الفور:

"والسلعة التالية، رجاءً؟".

"حجر الشَّبِّ"، قال رئيس المقاطعة، مُنفعلًا. "لأعد إلى حديثي. في هذه المدينة المُقدَّسة وحدها تُبجَّل كِهانتك؛ لذلك، عندما تقاتل معنا فأنت لا تقاتل نيابةً عن نفسك فحسب، بل عن كل شيء تمثِّله. لن تقاتل من أجل نوتنج هيل فحسب، بل من أجل أرض الجن والسحر؛ ذلك أنه حتمًا عندما يتسيَّد بَكْ وباركر وأمثالهم من الرجال؛ فإن معنَّى أرض الجن والسحر سيتلاشى بطريقة عجيبة ما".

"أيُّ شيء آخر، سيدي؟" سأله السيد باولز، بابتهاج لا ينقطع.

"أوه، نعم... نبات العُنَّاب... مسحوق جريجوري المُلَيِّن... مغنيسيوم. الخطر وشيك. طوال هذه المسألة وأنا أشعر أنني لا أحارب فحسب من أجل مدينتي (رغم أنني مدين لها بدمائي)، لكن من أجل كل الأماكن حيث يمكن لهذه الأفكار العظيمة أن تنتصر. لا أحارب فحسب من أجل نوتنج هيل، بل من أجل بايزووتر ذاتها، من أجل نورث كنسينجتون ذاتها؛ ذلك أنه إذا انتصر صيَّادو الذهب، فحتَّى هم سيخسرون كل مشاعرهم القديمة وكل غموض روحهم القومية. أعرف أن بمقدوري الاعتماد عليك".

"أوه نعم، سيدي"، قال الصيدلاني بحماسة كبيرة، "يسعدنا دائمًا خدمة الزبائن المخلصين".

خرج آدم واين من المتجر بشعور عميق بتحقُّق الروح.

"مفيد جدًّا"، قال، "أن أتمتَّع باللباقة، أن أكون قادرًا على التلاعب بالمواهب والقدرات الخاصة، كوزموبوليتانيَّة البقَّال والسحر الفريد من نوعه في العالَم للصيدلاني. ماذا كنت لأفعل بغير اللباقة؟".

الفصل الثاني

السيد تيرنبول المُدهش

بعد مقابلتَين أُخريَين مع أصحاب المتاجر، رغم ذلك، بدأت ثقة الوطنيِّ في دبلوماسيته السيكولوچية في الذبول على نحو عجيب. رغم الحذر الذي تعامَل به مع العقلانية الفريدة والمجد الفريد لكل متجر على حدة، بدا أن هناك شيئًا ما غير مُستجيب في أصحاب المتاجر. هل كان الأمر هو ذلك الامتعاض القاتم ضد سذاجة التلصُّص على فخامتهم الماسونية، لم يستطع أن يُحدِّد بالضبط.

بدأت محادثته مع صاحب متجر التُّحَف القديمة بدأت بشكل مُشجِّع. أبهجه حقًّا صاحب المتجر. كان يقف بكآبةٍ عند باب متجره، رجل بوجهٍ مُغضَّن ولحية مستدقَّة رمادية، من الواضح أنه چنتلمان سابق ساءت أحواله.

"وكيف تمضي تجارتك، أنت أيُّها الحارس الغريب للماضي"، سأله واين بلُطف.

"حسنًا، سيدي، ليس بأفضل شكل"، أجابه الرجل، بذلك الصوت الصبور لطبقته الاجتماعية وهو ما كان من أكثر الأشياء تحطيمًا للقلوب في العالم. "الأمور هادئة بشكل مريع".

التمعت عينا واين بغتةً.

"مقولةٌ عظيمةٌ"، قال له، "جديرة برَجُلٍ بضاعته هي التاريخ البشري. هادئة بشكل مريع، ثلاث كلمات تصف روح هذا العصر كما أشعر بها منذ مهدي. أحيانًا ما أتساءل كم من آخرين شعروا باستبداد هذا الاتحاد بين الهدوء والترويع. أرى شوارعَ أنيقة خاوية ورجالًا يرتدون الأسود يمضون مُسالمين، متُجهِّمين. يمضي الأمر هكذا يومًا بعد آخر، يومًا بعد آخر، ولا شيء يحدث، لكن بالنسبة لي فالأمر كحُلمٍ قد أستيقظ منه صارخًا. بالنسبة لي فإن استقامة حياتنا هي استقامة حبل رفيع يمتدُّ مشدودًا. سكونه مريع. قد ينقصف بغتةً بفعل ضجيجٍ كالبرق. وأنت مَن تجلس وسط رُكام الحروب العظيمة، ومَن تجلس، في حقيقة الأمر، في ميدان معركة، تدرك أن الحرب أقلَّ ترويعًا من السلام الشِّرِّير، تدرك أن الصبيان المُتبطِّلين الذين حمَلوا تلك السيوف تحت قيادة فرانسيس أو إليزابيث، السلحدار أو البارون الجَلف الذي لوَّحَ بذلك الصولجان في معارك بيكاردي أو نورثامبرلاند، ربما كانوا مزعجين بشكل مريع، لكنهم لم يكونوا مثلنا، هادئين بشكل مريع".

سواءً كان ذلك شعورًا خافتًا بحَرج الضمير بشأن المصدر والتاريخ الأصليَّيْن للأسلحة المُشار إليها، أم أنه مجرَّد اكتئاب متأصِّل، لم يبدُ على حارس الماضي سوى أنه ازداد قلقًا وانزعاجًا فحسب.

"لكنني لا أعتقد"، تابع واين حديثه، "أن هذا الصمت البشع للعصريَّة سيستمرُّ، رغم أنني أعتقد أنه سيزيد في الوقت الحاضر. يا لها من مهزلة، هذه الأريحية المُعاصرة! فحرية التعبير تعني بشكل عمليٍّ، في حضارتنا المعاصرة، أنه علينا ألَّا نتحدَّث سوى عن الأشياء التافهة. ينبغي ألَّا نتحدَّث عن الدين، فهذا مُحافظ جدًّا، علينا ألَّا نتحدَّث عن الخبز والجبن؛ فهذه مَكلَمة فارغة، علينا ألَّا نتحدَّث عن الموت؛ فهذا مُوحش ومُقبِض، علينا ألَّا نتحدث عن الولادة؛ فهذه فجاجة. لا يمكن أن يستمرَّ هذا. لا بُدَّ لشيءٍ أن يقتحم هذه اللا مبالاة العجيبة، هذه الأَنويَّة الحالمة العجيبة، هذه الوحدة التي يشعر بها الملايين في الزحام. شيء لا بُدَّ أن يكسر كل هذا. لماذا لا يكون ذلك أنا وأنت؟ ألا يمكنك فعل شيء آخر سوى حراسة المُتحجِّرات الأثرية؟".

شيئًا فشيئًا اتَّضحَ تعبير التاجر، وصار تعبيرًا كان له أن يدفع غير المتعاطفين مع قضية "الأسد الأحمر"[1] للاعتقاد أن الجملة الأخيرة هي الجملة الوحيدة التي وجدَ فيها أيَّ معنى.

"أنا كبيرٌ بعض الشيء على أن أنخرط في أي عمل جديد"، قال، "ولا أفهم جيدًا ما هو الأمر كذلك".

"ولِمَ لا؟"، قال واين، بعد أن وصل برفقٍ لجوهر إقناعه الحاذق، "ولِمَ لا تصبح كولونيلًا؟".

كان في هذه اللحظة، بالتأكيد، أن بدأت المقابلة في التكشُّف عن نتائج مُخيِّبة للآمال. بدا الرجل مَيَّالًا في بداية الأمر للنظر في اقتراح أن يصبح كولونيلًا لكن خارج نطاق المناقشة القائمة ذات الصِّلة. بدا أن تفسيرًا مُفصَّلًا لحرب الاستقلال التي لا مفرَّ منها، إلى جانب شراء

---

(1) إشارة إلى ملك اسكتلندا چيمس السادس الذي تحوَّل إلى چيمس الأول ملك انجلترا عام 1603، وأمر عندَ دخوله إلى لندن بوضع شارة "أسد اسكتلندا الأحمر" على جميع المباني ذات الأهمية في نظره، بما في ذلك الحانات والمتاجر البسيطة. (المترجم)

سيف مشكوك في أصله من القرن السادس عشر مقابل سعر مُبالغ فيه، سيسوِّي الأمور. غادر واين المتجر، رغم ذلك، مُصابًا بشكل ما بعدوى سوداويَّةِ مالِكِه.

اكتمَلَت تلك السوداوية في متجر الحلَّاق.

"حلاقة، سيدي؟" تساءلَ ذلك الفنان من داخل متجره.

"الحرب!" أجابه واين، واقفًا على العتبة.

"عُذرًا؟"، قال الآخر بحدَّة.

"الحرب!"، قال واين بدفء. "لكن ليس من أجل أي شيء يتعارض مع الفنون المُتحضِّرة والجميلة. الحرب من أجل الجمال. الحرب من أجل المجتمع. الحرب من أجل السلام. فرصة عظيمة تتوفَّر لك لمنع ذلك التشنيع الذي، تحدِّيًا لحيوات فنانين كثيرين جدًّا، يُلصق الخوف بهؤلاء الذين يجمِّلون ويصقلون سطح حيواتنا. لماذا لا يكون مُصفِّفو الشعر أبطالًا؟ لماذا لا يكون...".

"اخرُجْ على الفور"، قال الحلَّاق بغضب. "لا نريد أيًّا من أمثالك هنا. اخرج".

ثم تقدَّمَ نحوه بالانزعاج اليائس الذي يميِّز الأشخاص الوديعين عندما يُستثار حنقهم.

وضعَ آدم واين يده على السيف لوهلة، ثم أسقطها.

"نوتنج هيل"، قال، "في حاجة إلى أبنائها الأكثر شجاعةً"، واستدار مُتجهِّمًا إلى متجر الألعاب الرخيصة.

كان واحدًا من تلك المتاجر الصغيرة العجيبة التي تتواجد بكثرةٍ في الشوارع الجانبية للندن، والتي تُسمَّى متاجر ألعاب فقط لأن الألعاب هي الغالبة في المُجمل؛ ذلك أن بقية البضائع يبدو أنها تتكوَّن من كل شيء آخر في العالم: تبغ، دفاتر تمارين، حلوى، روايات للجيب، دبابيس

أوراق، مشاحذ أقلام رصاص، أربطة أحذية، ألعاب نارية رخيصة. يبيع أيضًا الصحف، وصفٌّ من الملصقات المُتَّسِخة مُعلَّقة على طول واجهة المتجر.

"أخشى"، قال واين فيما يدلف إلى الداخل، "أنني لا أتعامل مع هؤلاء التُّجَّار كما ينبغي. هل الأمر أنني أغفلتُ الارتقاء إلى المعنى الكامل لعمَلهم؟ هل يوجد سرٌّ ما مدفون في كلٍّ من هذا المتاجر لا يمكن لمجرد شاعِرٍ اكتشافُه؟".

خطا إلى منضدة البيع بكآبة نجحَ في السيطرة عليها بسرعة فيما يخاطب الرجل على الناحية الأخرى، رجُلٌ قصير القامة بشعرٍ ابيضَّ قبل الأوان، ونظرة رضيع كبير.

"سيدي"، قال واين، "أتنقَّل من منزل إلى آخر في شارعنا هذا ساعيًا إلى إثارة الشعور بالخطر الذي يُهدِّد مدينتا. أبدًا لم أشعر في أيِّ مكان بصعوبة مَهمَّتي كما هنا؛ ذلك أن حارس متجر الألعاب مسؤول عن كل ما تبقَّى لنا من جنة عدن قبل بداية الحروب الأولى. تجلس هنا تتأمَّل باستمرار في رغبات ذلك الزمن البديع عندما كانت درجة سُلَّم تقود إلى النجوم، وكل ممشى حدائق يؤدي إلى الجانب الآخر من اللامكان. هل تظنُّ أنني -بطَيشٍ وبلا تفكير- أقرع طبول الخطر العتيقة القاتمة في جنة الأطفال هذه؟ لكن تَفكَّرْ للحظة، لا تُدَنَّ بسرعة. حتى تلك الجنة ذاتها تحوي همهمات أو بدايات ذلك الخطر، تمامًا كما خُلِقَت جنَّة عدن من أجل الكمال واحتوت الشجرة المريعة. لنتأمَّل في الطفولة، وما لديك من ترسانة ملذَّاتها. تحتفظُ بالأحجار؛ بذلك تجعل من نفسك -بلا شكٍّ- الشاهد على غريزة البناء الأقدم من غريزة التدمير. تحتفظ بالدُّمى؛ لتجعل نفسك كاهنًا لتلك الوثنية الإلهية. تحتفظ بسُفن نوح؛ لتخليد ذكرى إنقاذ الحياة كشيءٍ ثمين، لا بديل له. لكن هل تحتفظ فقط -سيدي-

برموز قداسة ما قبل تاريخ هذه، هذه العقلانية الطفولية للأرض؟ ألا تحتفظ بأشياء أكثر ترويعًا؟ ما هي تلك الصناديق، التي تبدو لجنودٍ من الرصاص، التي أراها في تلك الخزانة الزجاجية؟ أليسوا شهودًا على ذلك الرعب والجمال، ذلك التوق لموتٍ جميل، لا يمكن استبعاده حتى من خلود جنّة عدن؟ لا تزدري جنود الرَّصاص، سيد تيرنبول".

"لا أزدريهم"، قال السيد تيرنبول، صاحب متجر الألعاب، باقتضابٍ، لكن بتأكيد كبير.

"يُسعدني سماع ذلك"، أجابه واين. "أعترف أنني كنتُ أخشى على مخطَّطاتي العسكرية من تلك البراءة الشنيعة لمهنتك. سألت نفسي، كيف سيتمكَّن هذا الرجل -بعد أن اعتاد فحسب على السيوف الخشبية التي تمنح البهجة- من التفكير في السيوف الحديدية التي تمنح الألم؟ لكنني مُطمئنٌّ الآن بعض الشيء. أرى في نبرتك أنني على الأقل عند مدخل البوابة إلى أرضك السحرية -البوابة التي يدلف عبرها الجنود؛ ذلك أنه لا يمكن حَجْبها- لم يَعُد بمقدوري -سيدي- إنكار أنني جئتُ للتحدُّث مع الجنود. دَعْ مِهنَتَكَ الرقيقة تجعلك رحيمًا تجاه متاعب العالم. دَعْ تجربتك الفضَّانيَّة تُخفِّف من أحزان الدموية؛ ذلك أن الحرب قد نشبت في نوتنج هيل".

اهتاجَ صاحب متجر الألعاب الضئيل بغتةً، خابطًا يديه السمينتَيْن كمِذراتَيْن على منضدة البيع.

"الحرب؟" هاتف. "ليس حقًّا، سيدي؟ هل هذا حقيقي؟ أوه، يا لها من مَزحة! أوه، يا له من مشهد للأعين الموجوعة!".

أُخذَ واين بمفاجأة هذا الانفجار بعض الشيء.

"أنا مُبتهج"، قال مُتلعثمًا. "لا فكرة لديَّ...".

تنحَّى جانبًا في اللحظة المناسبة بالكاد لتفادي السيد تيرنبول، الذي قفز طائرًا من فوق منضدة البيع واندفع إلى واجهة المحل.

"انظر هنا، سيدي"، قال، "انظر هنا فحسب".

عادَ باثنتين من اللافتات الممزَّقة التي كانت ترفرف خارج متجره.

"انظر إلى هذه، سيدي"، قال وطوَّحهما على منضدة البيع.

انحنى واين على إحديهما، وقرأ على الأولى:

"المعركة الأخيرة.

تراجع مدينة الدراويش المركزية.

مثير للدهشة، إلخ...".

وعلى الأخرى:

"ضمُّ آخر جمهورية صغيرة.

العاصمة النيكاراجوانيَّة تستسلم بعد شهر من المعارك.

مذبحة عظيمة".

انحنى واين عليهما مجدَّدًا، مرتبكًا كما هو واضح، ثم تطلَّع إلى التواريخ. كانت كلتا اللافتتين مؤرَّختَيْن في أغسطس قبل خمسة عشر عامًا.

"لماذا تحتفظ بهذه الأشياء القديمة"، سأله، مذهولًا بالكامل من فعله الغامض اللا معقول. "لماذا تُعلِّقها خارج متجرك؟".

"لأنها"، أجابه الآخر، "تُمثِّل سجلات الحرب الأخيرة. ذكرتَ الحرب لتَوِّكَ. صادف أنها هوايتي المفضَّلة".

رفع واين عينيه الزرقاوين الكبيرتين باندهاش طفولي.

"اصحبني"، قال تيرنبول باقتضاب، وقاده إلى حجرة صغيرة في ظَهْر المتجر.

في منتصف الحجرة كانت تنتصب منضدة صغيرة من خشب الصنوبر. عليها تستلقي صفوف وصفوف من الجنود القصديرية والرصاصية كانت جزءًا من مخزون صاحب المتجر. لم يكن الزائر ليرى فيها أي شيء مُلفِت لولا تجميعها بطريقة عجيبة، التي لم يبدُ أنها لغرضٍ تجاري بالكامل أو عشوائية بالكامل.

"أنت على دراية، بلا شك"، قال تيرنبول، مُديرًا عينيه الكبيرتين إلى واين، "أنت على دراية -بلا شك- بترتيب القوات الأمريكية والنيكاراجوانيَّة في المعركة الأخيرة"، ولوَّح بيده في اتجاه المنضدة.

"أخشى أنني لستُ كذلك"، أجابه واين. "أنا...".

"آها! كنتَ في ذلك الوقت مشغول جدًّا ربما، بمسألة الدراويش. ستجدها في ذلك الرُّكن". وأشار إلى جزء من الأرضية يوجد فيها صفٌّ آخر من الجنود الأطفال مُرتَّبين في مجموعات.

"يبدو"، قال واين، "أنك مهتمٌّ بالمسائل العسكرية".

"لا أهتم بشيء آخر"، أجابه صاحب متجر الألعاب، باقتضاب.

بدا واين مُتشنِّجًا باستثارةٍ استثنائية، مكبوتة.

"والحال هكذا"، قال، "بمقدوري التحدُّث إليك بدرجة غير معتادة من الثقة. بشأن مسألة الدفاع عن نوتنج هيل، فإنني...".

"الدفاع عن نوتنج هيل؟ نعم، سيدي. من هذا الاتِّجاه، سيدي"، قال تيرنبول، بارتباكٍ هائل. "تقدَّم فحسب إلى تلك الحُجرة الجانبية"، وقادَ واين إلى حجرة أخرى، فيها كانت المنضدة مُغطَّاة بالكامل بصفٍّ من أحجار الأطفال. عند النظرة الثانية، أدرك واين أن الأحجار كانت مرتَّبةً على شكل التخطيط الدقيق والمتقَن لنوتنج هيل. "سيدي"،

قال لتيرنبول، متأثِّرًا بشدة، "لقد ضربتَ، بصُدفةٍ ما، على وَتَرِ سِرِّ حياتي بأكملها. كصبيٍّ، كبرتُ في وسط آخر حروب العالم، عندما سقطت نيكاراجوا ومُحيَ الدراويش. واتَّخذتُها هوايةً، سيدي، كما قد تتَّخذ علم الفلك أو إطعام الطيور هوايةً. لم أحمل أيَّ نوايا سيئة تجاه أيِّ إنسان، لكنني كنتُ مهتمًّا بالحرب كعِلم، كلعبة. وبغتةً طُردتُ من اللعبة. دخلت القوى الكبيرة للعالم، بعد أن ابتلعت كل القوى الصغيرة، طرفًا في تلك الاتفاقية المقيتة، ولم تَعُد هناك حرب. لم يَعُد هناك لي سوى ما أفعله الآن: قراءة الحملات العسكرية القديمة في الصُّحف القديمة المتَّسخة، وشنُّها مُجدَّدًا بجنودٍ من قصدير. أمرٌ آخر كان قد خطرَ لي. رأيتُ أنه من المُبهج أن أضع مخطَّطًا مُتخيَّلًا لكيفية الدفاع عن حيِّنا في حال تعرَّضنا لأي هجوم. ويبدو أن ذلك يثير اهتمامك أيضًا".

"لو تعرَّضنا لأي هجوم!"، كرَّرَ واين، متُهيِّبًا من نطق اعترافٍ بشكل آليٍّ تقريبًا. "سيد تيرنبول، لقد تعرَّضنا للهجوم. حمدًا لله، نجحتُ في إخبار كائن بشري واحد على الأقل بالخبر الذي في حقيقته هو الخبر الجيد الوحيد لأيٍّ من أبناء آدم. الحياة ليست عديمة الفائدة. عملكَ ليس عبثًا. الآن، عندما يبيضُّ الشعر على رأسك بالفعل، تيرنبول، ستستعيد شبابك. الربُّ لم يُدمِّر، أرجأ الأمر فحسب. لنجلس هنا، وتشرح لي هذه الخريطة العسكرية لنوتنج هيل؛ ذلك أن علينا أنا وأنت أن ندافع عن نوتنج هيل معًا".

تطلَّعَ السيد تيرنبول إلى الآخر للحظة، ثم تَردَّد، ثم جلس أرضًا بجوار الأحجار والغريب. لم ينهض مُجدَّدًا طوال سبع ساعات، حتى انبلج الفجر.

استقرَّ مقرُّ قيادة رئيس المقاطعة ورئيس أركانه في متجر حليب صغير غير ناجح بشكل ما عند ناصية شارع بامب. كان الصباح

الأبيض الشاحب قد بدأ لتوِّه في التهام مباني لندن الشاحبة عندما كان واين وتيرنبول يجلسان في المتجر الكئيب القذر. كان واين يتمتَّع بشيءٍ ما أنثوي في شخصيته؛ ذلك أنه ينتمي إلى تلك الطبقة من البشر الذي ينسون وجبات طعامهم عندما ينشغلون بأي شيء. لم يتناول شيئًا طوال ست عشرة ساعة سوى بضعة كؤوس حليب على عجالة، وبكأس فارغةٍ بجواره، انغمس في الكتابة ورسم ووضع النقاط وعلامات الصليب بسرعة لا تُصدَّق باستخدام قلم رصاص وورقة. بينما كان تيرنبول من ذلك النوع الأكثر ذكوريَّةً الذي تتزايد فيه الشهية مع تزايد حِسِّ المسؤولية، وبمسوَّدَة خريطته بجواره تعاملَ بنشاط مع كومة من الشطائر في لفافة من الورق، ودورق من البيرة من الحانة المقابلة، التي أغلقت أبوابها لتَوِّها. لم يتحدَّث أيٌّ منهما، ولم يكن هناك أيُّ صوت في ذلك السكون الحَيِّ سوى خربشات قلم واين وصرير قطَّةٍ شاردة. في النهاية كسرَ واين الصمت بقوله:

"سبعة عشر جنيهًا وثمانية شلنات وتسعة بنسات".

أومأ تيرنبول ووضع رأسه في الدورق.

"هذا"، قال واين، "دون احتساب الجنيهات الخمسة التي أخذتَها بالأمس. ماذا فعلت بها؟".

"آها، هذا مثير للاهتمام بعض الشيء!" أجابه تيرنبول، بفمٍ ممتلئ. "استخدمتُ تلك الجنيهات الخمسة في فعلٍ خيريٍّ وشَفوق".

حدَّق واين بارتباك في عينيه البريئين المهووستين.

"استخدمتُ تلك الجنيهات الخمسة"، تابعَ الآخر، "في منح ما لا يقلُّ عن أربعين صبيًّا صغيرًا من لندن ركوبات في عربات الخيول".

"هل أنت مجنون؟" سأله رئيس المقاطعة.

"إنها لمستي النورانية فحسب"، أجابه تيرنبول. "ركوبات عربات الخيول هذه ستزيد من قوَّة -ستزيد من قوة، صديقي العزيز- شبابنا في لندن، وتُوسِّع أفقهم، وتُحسِّن من نظامهم العصبي، وتجعلهم على دراية بالنُّصُب التذكارية المتنوِّعة في مدينتنا العظيمة. التعليم، يا واين، التعليم. كم أشار كثيرٌ من المُفكِّرين العظماء إلى أنه لا معنى للإصلاح السياسي ما لم نُنتج شعبًا مُثقَّفًا. وبهذا، بعد عشرين سنة من الآن، عندما يُكبر هؤلاء الصبيان...".

"معتوه!"، قال واين، واضعًا قلمه الرصاص أرضًا، "وها هي خمسة جنيهات اختفت!".

"أنت مُخطئ"، فسَّرَ تيرنبول. "أنتم أيُّها المخلوقات الرزينة لا يمكن إقناعكم أبدًا كيف يمكن أن تمضي الأمور أسرع بكثير بمساعدة من الهراء وبعض الطعام الطيب. انتَزِعْ من كلماتي الزخرفات الجمالية وستجدها دقيقة بشكل صارم. في الليلة الفائتة منحتُ نصف كراون لكل واحد من أربعين صبيًّا صغيرًا، وأرسلتهم جميعًا ليستقلُّوا عربات الخيول. أخبرتهم أن عليهم في جميع الأحوال أن يأمروا الحوذيَّ بإعادتهم إلى هذا المكان. في نصف ساعة من الآن سيكون إعلان الحرب قد نُشرَ. في نفس الوقت ستبدأ العربات في التوافد، ستأمرُ بإخراج الحُرَّاس، وسيتقدَّم الصبيان مَحلَّهم، سنستولي على الأحصنة من أجل الخيَّالة، ونستخدم العربات كمتاريس، ونُخيِّر الرجال بين الخدمة في صفوفنا أو الاعتقال في أقبيتنا. الصبيان الصغار يمكننا استخدامهم في الاستطلاع والاستكشاف. المسألة الأساسية أن نبدأ الحرب بميزة غير معروفة في كل الجيوش الأخرى... الأحصنة. والآن"، قال، مُنهيًا بيرَته، "سأنطلق وأدرِّب القُوَّات".

خطا خارجًا من متجر الحليب، تاركًا رئيس المقاطعة وراءه شاخصًا ببصره.

بعد ذلك بدقيقة أو اثنتين، ضحكَ رئيس المقاطعة. لم يضحك في حياته سوى مرّة أو مرتين، وحينها ضحكَ بطريقة عجيبة كما لو أنه فنٌّ لم يتقنه بعدُ. بل إنه رأى شيئًا طريفًا في الثورة المستحيلة لأنصاف الكراونات والصبيان الصغار هذه. لم يلاحظ العبثية الوحشية للاستراتيچية بأكملها والحرب بأكملها. استمتع بها بجدِّيَّة وكأنها حربٌ صليبية، استمتع بها أكثر من أي مزحة مُبهجة. بينما استمتع بها تيرنبول كمزحة بعض الشيء، أو ربما كهجوم على الأشياء التي يمقتها: الحداثة والرتابة والحضارة. كان تحطيم الآلة الهائلة للحياة الحديثة واستخدام التشظِّيات كمُحرِّكات للحركات، وتشييد المتاريس من الباصات ونقاط المُراقبة من قدور المداخن، بالنسبة له لعبة تستحقُّ مَخاطِرَ وجَهدًا لا نهائيًّا. كان يحمل ذلك الميل العقلاني والمدروس الذي سيقضُّ دومًا سلام العالم حتى النهاية، أي ذلك الميل العقلاني والمدروس لحياة قصيرة ومبهجة.

الفصل الثالث

تجربة السيد بَكْ

أُرسِلَ التماس بليغ وحماسي إلى الملك، مُوقَّعًا بأسماء ويلسون وباركر وبَكْ وسويدون وآخرين. كان يطلب إقامة المؤتمر القادم بحضور جلالته لمعالجة التصرُّف النهائي للممتلكات في شارع بامب، وألَّا يُعتبروا مخالفين لِلَباقَة السياسة والاحترام المطلَق الذي يُكنُّونه لجلالته إذا ظهروا في ملابس الصباح العادية، وليس الزِّيَّ المقرَّر لهم كرؤساء للمقاطعات. هكذا حدث أن ظهرت تلك الصُّحبة في ذلك المجلس بمعاطف من الفراك، والملك نفسه قد قيَّد حُبَّه للاحتفال بالظهور (بحسب طريقته المُعتادة)، في زيٍّ سهرة برتبة واحدة- في هذه الحالة ليس وسام جارتر الرفيع، لكن زرُّ نادي "أصدقاء قلَّامات الأظافر القديمة"، وحِلية من جريدة حصل عليها (بصعوبة) من أحد صبيان الجرائد بنصف بنس. هكذا حدث أيضًا أن بقعة اللون

الوحيدة في القاعة كانت آدم واين، الذي دلفَ بوقار كبير مُتَّشحًا بالحُلَّة الحمراء الفخيمة والسيف العظيم.

"اجتمعنا"، قال أوبيرون، "للبَتِّ في أشدِّ مشاكل العصر تعقيدًا. ربما ننجح". ثم جلسَ بوقار.

أدارَ بَكْ مقعده قليلًا، وطوَّحَ بساقٍ فوق الأخرى.

"جلالتك"، قال، بصدرٍ مُنشرح للغاية، هناك شيء واحد لا أفهمه، وهو لماذا لا تُحلُّ هذه المسألة في خمس دقائق. لدينا هنا مِلكية صغيرة تساوي ألفًا بالنسبة لنا وأقل من مائة بالنسبة لأي إنسان آخر. لنعرض الألف. ليست صفقة رابحة، أعرف؛ ذلك أننا ينبغي أن نحصل عليها مقابل مبلغ أقل، والسعر غير معقول وغير عادل لنا، لكن لتحلَّ عليَّ اللعنة إذا فهمتُ لماذا يَصعُب حلُّ المسألة".

"وجه الصعوبة قد يكون بسيط جدًّا"، قال واين. "بمقدورك أن تعرض مليونًا وسيكون من الصعب عليك جدًّا أن تحصل على شارع بامب".

"لكن اسمع سيد واين"، هتف باركر، مُقتحمًا الحديث بما يشبه استثارةً باردة. "اسمعني فحسب. لا يحقُّ لك الاستيلاء على موقع كهذا. يحقُّ لك عرض سعر أكبر، لكنك لا تفعل ذلك. ترفض ما تدرك أنت وأيُّ إنسان عاقل أنه عرض سخي بدافع من الحقد أو الضغينة فحسب- حتمًا هو الحقد أو الضغينة. وهذا النوع من الأمور إجراميٌّ حقًّا؛ إنه ضد الصالح العام. ستكون حكومة الملك صائبة في إجبارك على قبول العرض".

بأصابعه النحيلة مُفترشةً المنضدة، حملقَ بجزع في وجه واين، الذي لم يختلج بتاتًا.

"في إجباري... ستكون الحكومة"، كرَّرَ.

"نعم"، قال بَكْ، باقتضاب، مُستديرًا نحو المنضدة بانتفاضة. "فعلنا ما في وسعنا لنكون مُهذَّبين".

رفعَ واين عينيه الكبيرتين ببطء.

"هل كان سيدي بَكْ"، تساءلَ، "من قال إن ملك انجلترا (سيفعل) شيئًا ما؟".

احتقنَ وجه بَكْ وقال بحدَّة:

"أعني أنه لا بُدَّ... أن ينبغي أن يفعل شيئًا ما. كما قلتُ، فعلنا ما في وسعنا لنكون كُرماء، أتحدَّى أي شخص أن ينكر هذا. والأمر هكذا، سيد واين، لا أريد أن أنطق بكلمة فجَّة. آمل أنه ليس من الفجاجة القول إنه يمكن -وينبغي أن تكون- في السجن. من الإجرام أن تعرقل الأعمال العامة من أجل نزوة. قد يحرق الرجل عشرة آلاف بصلةً أمام حديقته أو يجعل أطفاله يركضون عُراةً في الشارع، ما دام يحقُّ له أن يفعل ذلك بحسب قولك. طالما أُجبر الناس على البيع قبل الآن. بمقدور الملك أن يجبرك، وآمل أن يفعل".

"حتَّى يفعل ذلك"، قال واين، بهدوء، "فإن سُلطة وحكومة هذه الأُمَّة العظيمة تقفان في صفِّي وليس في صفِّكَ، وأتحدَّاك أن تتحدَّاها".

"بأي معنى"، هتف باركر، بعينيه ويديه المحمومة، "قد تقف الحكومة في صفِّكَ؟".

بحركة واحدة مُجلجلةٍ فردَ واين رَقًّا هائل الحجم على المنضدة. كان مُزخرفًا على جانبيه برسومات ملوَّنة لرجال كَنَسيِّين بتيجان وأكاليل.

"ميثاق المُدن"، شرعَ في القول.

انفجر بَكْ في سِبابٍ وحشيٍّ وضَحكَ.

"مَزحة الأحمق تلك. ألم نكتفِ من ذلك...".

"وها أنت تجلس"، هتفَ، مُنتصبًا بغتةً بصوت كالبوق، "بلا حُجَّة سوى إهانة الملك أمام وجهه".

نهضَ بَكْ أيضًا بعينين متوهِّجَتين.

"يصعب إرهابي"، بدأ في القول -فيما الأجراس المُتباطئة للملك قد قُرِعَت بوقارٍ لا مثيل له-.

"سيدي بَكْ، عليَّ أن أطلب منك أن تتذكر أن الملك حاضر. لا يحدث كثيرًا أن يحتاج إلى حماية نفسه وهو بين رعاياه"، قال الملك.

استدار باركر إليه بإيماءات مُهتاجة.

"من أجل الرَّبِّ لا تساند الرجل المجنون الآن"، توسَّلْ إليه. "أجِّلْ مَزحتك لوقت آخر. أوه، من أجل السماء...".

"سيدي رئيس مقاطعة ساوث كنسينجتون"، قال الملك أوبيرون بثبات، "لا أفهم تعقيباتك، تلك تنطقها بسرعة غير معتادة في البلاط الملكي. ومجهوداتك حسنة النِّيَّة لإيصال الباقي بأصابعك لم تساعدني كثيرًا. أقول إن سيدي رئيس مقاطعة نورث كنسينجتون، الذي أتحدَّث إليه، عليه ألَّا يتحدث في حضور مَليكهِ بعدم احترام لأوامر مليكه. ألا توافقني الرأي؟".

استدار باركر مُتململًا في مقعده، وأطلق بَكْ سبابًا دون حديث. تابع الملك بصوتٍ هادئ:

"سيدي رئيس مقاطعة نوتنج هيل، استمرَّ".

أدار واين عينيه الزرقاوين إلى الملك، ولدهشة الجميع كانت فيهما ليس نظرة انتصار، بل نظرة جَزع طفولي غريب.

"أنا آسف، جلالتك"، قال، "أخشى أنني أُلام على السواء مع السيد رئيس مُقاطعة نورث كنسينجتون. كُنَّا نتجادل بحماس بعض الشيء، ثم نهضنا على قدمينا. فعلتُ ذلك أولًا، يُخجِلني قول ذلك. إن رئيس

مقاطعة نورث كنسينجتون؛ لذلك، بريء نسبيًّا. ألتمس من جلالتكم أن تتوجَّه بتقريعك في معظمه على الأقل إليَّ. لكن السيد بَكْ ليس بريئًا حتمًا بتحدُّثه، في ذروة انفعاله، بغير احترام. لكن بقية المناقشة تبدو لي أنها انتهت بمزاج طيب عظيم".

بدا بَكْ مُبتهجًا حقًّا؛ ذلك أن رجال الأعمال كُلَّهم مُغفَّلون؛ ولذلك يتمتَّعون بتلك الدرجة من التشابه مع المُتعصِّبين. بدا الملك، لسببٍ ما، ولأول مرَّة في حياته، خجولًا.

"هذا حديث طيب للغاية من رئيس نوتنج هيل"، شرعَ بَكْ في القول، مُبتهجًا، "يبدو لي أنه يظهر أننا نمضي على الأقل على أساسٍ من الصداقة. الآن لنرى سيد واين. خمسمائة جنيه قد عُرضت لكَ مقابل مِلكيةٍ تعترف أنها لا تساوي مائة. حسنًا، أنا رجل ثري ولن يغلبني أحدٌ في الكَرَم. لنَقُل ألفًا وخمسمائة جنيه وننهي الأمر. لنتصافح على هذا"؛ ثم نهض، متوهِّجًا وضاحكًا.

"ألف وخمسمائة جنيه"، همس السيد ويلسون رئيس بايزووتر، "هل نوافق على ألف وخمسمائة جنيه؟".

"سأتحمَّل العواقب"، قال بَكْ بحماس. "السيد واين چنتلمان وقد تحدَّثَ مُدافِعًا عنِّي؛ لذلك أفترض أن المفاوضات مُنتهية".

انحنى واين.

"إنها منتهية حقًّا. يؤسفني أنه لا يمكنني بيع العقار لكم".

"ماذا؟" هتف السيد باركر، ناهضًا على قدميه.

"السيد بَكْ تحدَّث بالحقِّ"، قال الملك.

"أنا، أنا"، هتفَ بَكْ، ناهضًا بدوره؛ "لقد قُلتُ...".

"السيد بَكْ تحدَّثَ بالحقِّ"، قال الملك، "انتهت المفاوضات".

نهض جميع الرجال على المنضدة، واين وحده نهض بلا استثارة.

"هل تسمح لي إذن"، قال، "جلالتك بالرحيل؟ لقد قدَّمتُ إجابتي الأخيرة".

"أسمح لك"، قال الملك، مبتسمًا، لكن دون أن يرفع عينيه عن المنضدة. ووسط صمتٍ ميِّت انسلَّ رئيس نوتنج هيل خارجًا من القاعة.

"حسنًا"، قال ويلسون، مستديرًا إلى باركر، "حسنًا؟".

هزَّ باركر رأسه بيأس.

"لا بدَّ من وضع الرجل في مستشفى المجانين"، قال. "لكنَّ أمرًا واحدًا واضحًا: أنه ينبغي لنا ألَّا نقلق بشأنه بعد الآن. من الممكن معاملته كمجنون".

"بالطبع"، قال بَكْ، مستديرًا إليه بحسمٍ مُتجهِّم. "أنت على صواب تمامًا يا باركر. إنه رفيق خَيِّرٌ حقًّا، لكن بمقدورنا معاملته كمجنون. لنضع ذلك في صورة مُبسَّطة. اذهب وأخبِرْ أيَّ اثني عشر رجلًا في أيِّ مدينة، اذهب وأخبِرْ أيَّ طبيب في أيِّ مدينة، أنه يوجد رجلٌ عُرِضَ عليه ألف وخمسمائة جنيه مقابل شيء يمكنه بيعه في العادة مقابل أربعمائة جنيه، وعندما سُئلَ عن سبب عدم قبوله تعلَّلَ بالقداسة المصونة لنوتنج هيل وسمَّاها "الجبل المقدَّس". ماذا سيقولون؟ ماذا يمكن أن يكون في صفِّنا أكثر من الإدراك السليم لكل إنسان؟ على ماذا غير ذلك تستند كل القوانين؟ دعني أخبرك، باركر، بما هو أفضل من أي مناقشة أخرى. لنرسل بالعُمَّال المتواجدين على الفور لهدم شارع بامب. وإذا نطقَ واين الرَّجعيُّ بكلمة، فألقِ القبض عليه كمُختلٍّ. هذا كل ما في الأمر".

توهَّجَت عينا باركر.

"طالما اعتبرتُك يا بَكْ -إذا لم تمانع قولي ذلك- رجُلًا في غاية القوَّة. سأتبعُك".

"وأنا أيضًا، بالطبع"، قال ويلسون.

نهضَ بَكْ مُجدَّدًا باندفاع.

"جلالتك"، قال، متوهِّجًا بشعبيَّته الجديدة، "ألتمس من جلالتك أن تنظر بعين العطف إلى الاقتراح الذي ألزمنا نفسنا به. ذهبَ تسامح جلالتك، وما قدَّمناه من عروضٍ، هباءً مع ذلك الرجل العجيب. ربما يكون على صواب. ربما يكون إلهًا. ربما يكون الشيطان ذاته. لكننا نعتقد على الأرجح، لأسباب عملية، أنه فقد عقله. سنتعامل مع ذلك، ونقترح البدء في العمليات في نوتنج هيل على الفور".

تراجَعَ الملك في مقعده.

"ميثاق المدن..."، قال بنغمةٍ عميقة.

لكن بَكْ، بعدما صار جادًّا أخيرًا، كان حَذِرًا كذلك، ولم يرتكب مجدَّدًا خطيئة عدم الاحترام.

"جلالتك"، قال، منحنيًا، "لستُ هنا لأنطق بكلمة ضد أيِّ شيء قلتَه أو فعلتَه جلالتك. أنت رجل مُتعلِّم أفضل منِّي بكثير، وبلا شكٍّ توجد أسباب -على أُسسٍ فكريَّة- لهذه الإجراءات. لكن هل لي أن أسألك وأستعطف طبيعتك الخيِّرة من أجل إجابة صادقة: عندما وضعتَ ميثاق المدن، هل تفكَّرتَ مليًّا في صعود رجلٍ مثل آدم واين؟ هل توقَّعتَ أن ميثاق المدن -سواء كان تجربةً، أو مجرد شكليات أو مَزحة- قد يصل حقًّا إلى هذا... إلى إيقاف منظومة هائلة من الأعمال العادية، إلى إغلاق الطُّرُق، إلى إفساد فُرَص عربات الأجرة، والباصات، ومحطات السكك الحديدية، إلى قَلْبِ نصف مدينة، إلى المخاطرة بوقوع ما يشبه الحرب الأهلية؟ مهما تكن أهدافك، فماذا كانت؟".

تطلَّعَ باركر وويلسون إليه بإعجاب، والملك بإعجاب أكبر.

"الرئيس بَكْ"، قال الملك، "تتحدَّث على المَلأ بشكل رائع غير اعتيادي. تتمتَّع بنَبالة فنَّانٍ حقًّا. إن مُخطَّطي لم يشتمل على ظهور السيد واين. وا أسفاه! لو أنَّ قوَّتي الشاعرية كانت عظيمة بما يكفي".

"أشكر جلالتك"، قال بَكْ، بتهذيب، لكن بسرعة. "عبارات جلالتك واضحة ومتأنِّية دومًا؛ لذلك قد أتوصَّل إلى استنباطٍ ما. بما أن المخطَّط، أيًّا ما كان، الذي انشغلتَ فيه بكيانك لم يشتمل على ظهور السيد واين، فحتمًا سيظلُّ قائمًا بعد انتزاع السيد واين. لماذا لا نزيل شارع بامب هذا، وهو ما يتداخل مع خُططنا، لكن لا يتداخل، كما صرَّحتَ جلالتك، مع خُططك".

"وقعَ في المصيدة!" قال الملك، بحماس وبغموض مطلق، كما لو أنه يراقب مباراة كريكت.

"هذا الرجل واين"، تابعَ بَكْ حديثه، "من الممكن إسكاته من قِبَل أيِّ طبيب في انجلترا. لكننا لا نطلب سوى وضع الأمر أمامهم. وبذلك لا يمكن حقًّا الإضرار بمصالح أيِّ شخص، ولا حتَّى مصالحه هو بالتأكيد، بالمُضيِّ قُدُمًا في تحسينات نوتنج هيل. ولا مصالحنا بالطبع؛ ذلك أنها نتيجة عمل شاقٍّ وهادئ طوال عشرة أعوام. ولا مصالح نوتنج هيل؛ ذلك أن كل قاطنيها المُتعلِّمين يتوقون للتغيير. ولا مصالح جلالتك؛ ذلك أنك كما قلتَ -بحسٍّ مميَّز- لم تتوقَّع أبدًا صعود المجنون على الإطلاق. ولا مصالحه أيضًا، كما قلتُ؛ ذلك أن الرجل يتمتَّع بقلبٍ طيب ومواهب عديدة، وبضع أطبَّاء مَهرة سيصلحون من أمره أفضل من كل المُدُن الحرَّة والجبال المُقدَّسة في العالَم. أفترض لذلك -إذا كان لي أن أقول كلمة بهذه الجرأة- أن جلالتك لن تضع أيَّ عقبة في انطلاقنا قُدمًا في مسألة التحسينات".

ثم جلس السيد بَكْ وسط تصفيق خافت لكن مُستثار من حلفاءه.

"سيد بَكْ"، قال الملك، "اعذرني على أيِّ أفكار جميلة ومُقدَّسة قد تأتيني وتجعل منك أحمقَ. لكن هناك مسألة أخرى يتوجَّب النظر إليها بعين الاعتبار. لنفترض أنك أرسلتَ بعُمَّالك، وأن السيد واين فعل شيئًا يندم عليه، ولكنني أعتقد، يؤسفني القول، أنه قادر على ذلك تمامًا- أوسعهم ضربًا مثلًا؟".

"لقد فكَّرتُ في ذلك، جلالتك"، قال السيد بَكْ، بأريحية، "وأعتقد أن بمقدورنا منع ذلك. لنُرسل بحراسة قوية، مائة رجل مثلًا... مائةً من حاملي المَطارِد من نورث كنسينجتون" (ابتسم بشراسة)، "المُغرم بهم جلالتك. أو مائة وخمسين. كل سُكَّان شارع بامب، أعتقد، لا يتعدَّون المائة".

"مع ذلك بمقدورهم المقاومة والتفوُّق عليك"، قال الملك مُتشكِّكًا.

"إذن فلنُرسل بمائتين"، قال بَكْ بمرح.

"ربما يحدث"، قال الملك بجزع، "أن يقاتل واحد من سُكَّان نوتنج هيل أفضل من اثنين من سُكَّان نورث كنسينجتون".

"ربما"، قال بَكْ ببرود، "إذن فلتُرسل بمائتين وخمسين".

عضَّ الملك على شفتيه.

"وإذا هُزموا أيضًا؟" قال بوحشية.

"جلالتك"، قال بَكْ، وتراجع بأريحية في مقعده، "لنفترض أنهم هُزموا. إذا كان أي شيء مؤكَّد، فهو أن كل مسائل القتال هي مجرد مسائل حسابية. لدينا مائتان وخمسون، لِنَقُل، من جنود نوتنج هيل. أو لِنَقُل مائتين. إذا كان بمقدور واحد منهم قتال اثنين من جيشنا... إذن فلنرسل، ليس بأربعمائة، لكن بستمائة، ونسحقه. هذا كل ما

في الأمر. من غير المُحتمل على الإطلاق أن يقاتل واحد منهم أربعةً منَّا. ما أودُّ قوله: ألَّا نخاطر أبدًا، أن نُنهي الأمر على الفور. لنرسل بثمانمائة رجل ونسحقه... نسحقه دون رؤيته حتى. ونمضي في مسألة التحسينات".

ثم أخرج السيد بَكْ منديلًا ومخَّطَ أنفه.

"هل تدرك، سيد بَكْ"، قال الملك، مُحدِّقًا بتجهُّم في المائدة، "أن الصفاء العجيب لتفكيرك يخلق في عقلي شعورًا، أثق أنني لن أسبِّب لك أيَّ إهانة بوصفه كرغبةٍ في لكمك على رأسك. تهيِّجني بشكل متسامٍ. ما هذا الذي في داخلي؟ هل هو بقايا شعور أخلاقي؟".

"لكنك جلالتك"، قال باركر، بحماسٍ ولباقة، "لا ترفض اقتراحاتي؟".

"عزيزي باركر، إن اقتراحات فظيعة كأسلوبك. لا أريد أن أتورَّط فيها بأي شكل. لنفترض أنني أوقَفتُها جميعًا. ماذا سيحدث؟".

أجاب باركر بصوتٍ خفيضٍ للغاية:

"الثورة".

ألقى الملك بنظرة خاطفة سريعة على الرجال حول المائدة. كانوا جميعًا ينظرون لأسفل في صمت: كانت جباههم مُحمرَّة.

نهضَ بشكل مُباغت مُجفل، وشحوبٍ عجيب.

"يا سادة"، قال، "لقد فرضتم كلمتكم عليَّ؛ لذلك يمكنني التحدُّث بوضوح. أعتقد أن آدم واين، المجنون شديد الحماقة، يساوي أكثر من مليون منكم. لكنكم تمتلكون القُوَّة، وأعترف، بالإدراك السليم، أنه سيخسر. أرسلوا بحاملي المَطارِد الثمانمائة واسحقوه. سيكون من الفروسية أن ترسلوا بمائتين فحسب".

"أكثر فروسيةً"، قال بَكْ بتجهُّم، لكنه أقل إنسانيةً بكثير. لسنا فنَّانين، والشوارع المصبوغة بالدَّم المُتخثِّر الأرجواني لا تلفت أنظارنا حقًّا".

"هـذا مثير للشـفقة"، قـال أوبـيرون. "بخمسـة أو سـتة أضعـاف هـذا الرقـم، لـن تكـون هنـاك معركـة عـلى الإطـلاق".

"آمـل ذلـك"، قـال بَـكْ، ناهضًـا ومُعـدِّلًا قُفَّازيـه. "لا نرغـب في العـراك، جلالتـك. نحـن رجـال أعـمال مُسـالمون".

"حسنًا"، قال الملك، مُرهقًا، "انتهى الاجتماع أخيرًا".

ثم خطا خارجًا من القاعة قبل أن يتحرَّك أيٌّ من الآخرين.

تجمَّـعَ أربعـون عامـلًا، ومائـة مـن حامـلي مَطـارِد بايزووتـر، ومائتـان مـن سـاوث كنسـينجتون وثلاثمائـة مـن نـورث كنسـينجتون، في بداية شـارع هـولان ووك وزحفـوا محتشـدين، تحـت التوجيـه العـام لباركـر، الـذي بـدا متـورِّدَ الوجـه ومُبتهجًـا بـزيٍّ كامـل. في نهايـة المسـيرة كان يتهـادى شـكل بـشري ضئيـل وكالحًـا كقنفـذ البحـر. كان ذلـك هـو الملـك.

"باركـر"، قـال أخـيرًا، مُسـتجديًا، "أنـت صديق قديـم لي... تفهـم هواياتي وأفهـم هواياتـك. لمـاذا لا تـدع الأمـر يمـضي فحسـب؟ عنـدي أمـل في أن ينتـج عـن مسـألة وايـن هـذه بعـض البهجـة والمـرح. لمـاذا لا تـدع الأمـر يمـضي فحسـب؟ إنـه حقًـا ليـس ذا أهميـة كبـيرة لـك... مـا أهميـة هـذا الطريـق أو ذاك؟ بالنسـبة لي فهـذه هـي المزحـة الوحيـدة التـي قـد تنقـذني مـن تشـاؤمي. خُـذ رجـالًا أقـل وامنحنـي بعـض البهجـة لسـاعة واحـدة. حقًـا وصدقًـا، يـا چيمـس، لـو كنـتَ جامِعًـا هاويًـا للعمـلات أو الطيـور المُغـرِّدة وكان بمقـدوري شراء واحـدة منهـا بسـعر طريقـك، فسأشـتريها. أجمـع الوقائـع العارضـة... تلـك الأشـياء النـادرة، الثمينـة. امنحنـي واحـدة. دعنـي أدفـع بضعـة جنيهـات مـن أجلهـا. امنَحْ أهـل نوتنـج هيـل هـؤلاء فرصـةً. دعهـم وشـأنهم".

"أوبـيرون"، قـال باركـر، بلُطـف، مُتجاهـلًا كل الألقـاب الملكيـة في لحظـة صـدقٍ نـادرة، "أشـعر بمـا تعنيـه. عرفـتُ لحظـات أصابتنـي فيهـا هـذه الهوايـات في مقتـل. عرفـت لحظـاتٍ تعاطَفـتُ فيهـا مـع سـخرياتك.

عرفتُ لحظاتٍ، رغم أنك قد لا تصدِّق ذلك بسهولة، تعاطفتُ فيها مع جنون آدم واين. لكن العالم يا أوبيرون، العالم الواقعي، لا يقوم على هذه الهوايات. بل يقوم على العجلات القاسية للحقائق، عجلاتٍ أنت عليها الفراشة، وواين ذبابة على واحدة من هذه العجلات".

تطلَّعَت عينا أوبيرون مباشرةً إلى عينَيْ الآخر.

"أشكرك يا چيمس؛ ما تقوله صحيح. لا أجد سوى عزاء عابرٍ في مقارنتك بين ذكاء الذباب، بشكل إيجابي بعض الشيء، وبين ذكاء العجلات. لكنها طبيعة الذباب أن يموت سريعًا، وطبيعة العجلات أن تستمر في الدوران للأبد. استمرَّ مع العجلة. وداعًا صديقي العجوز".

تابعَ چيمس باركر، ضاحكًا، بروحٍ، عاليًا، طريقه، ضاربًا بخيزرانه على ساقه.

راقبَ الملك ذيل الكتيبة المُبتعدة بنظرة كآبةٍ أصيلة، جعلته يبدو وكأنه رضيع أكثر من أيِّ وقت مضى. تطوَّح مستديرًا وضربَ بين يديه.

"إنه عالم بلا حسٍّ سخرية"، قال، "الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو الأكل. ويا له من استثناء بديع! كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يتَّخذوا أوضاعًا نبيلةً ويتظاهروا أن أمورًا ما لها أهمية، في حين أن فُكاهة الحياة بأكملها تُثبَتُ بنفس الأسلوب الذي تقتات عليه؟ يضرب الرجل على القيثارة ويقول "الحياة حقيقية، الحياة جادَّة"، ثم يدلف إلى غرفة ويدسُّ موادَّ غريبة في فجوةٍ في رأسه. أعتقد أن الطبيعة سخيَّة قليلًا في حسِّ سخريتها في هذه المسائل. لكننا جميعًا ننتكس راجعين إلى وضع الإيمائي التمثيلي، كما حدث لي في هذه المسألة المحلِّيَّة. تقدِّمُ الطبيعة مهازلها، كفِعل الأكل أو شكل الكنغر، في سبيل الشهية الأكثر وحشيةً. فيما تحتفظ بنجومها وجبالها لهؤلاء الذين يُقدِّرون الأشياء الأكثر هزليةً على نحو حاذق". استدارَ إلى وصيفه. "لكن بما أنني ذكرت "الأكل"؛ فلنذهب إلى نزهة خلوية

كطفلين صغيرين لطيفين. أسرِعْ واجلِبْ لي منضدة وبضعة أطعمة أو شيئًا من هذا القبيل، وكثيرًا من الشمبانيا، وتحت هذه الأغصان المتأرجحة، باولر، سنعود إلى الطبيعة".

استغرق الأمر ساعةً تقريبًا لتشييد وليمة الملك البسيطة في هولاند لين، أثناءها كان يخطو جيئةً وذهابًا ويُصفِّر، لكن بحسٍّ غير مُتكلِّف من الكآبة ما يزال. كان قد حُرِمَ حقًّا من بهجةٍ وعدَ نفسه بها، وراوده ذلك الشعور الخاوي، السقيم الذي يراود الأطفال عندما تَخيب آمالهم بسبب مسرحيةٍ إيمائية. عندما جلس هو ووصيفه أرضًا، رغم ذلك، واستهلك مقدارًا كبيرًا من الشمبانيا، بدأت روحه في الانتعاش قليلًا.

"تستغرق الأشياء أكثر من اللازم في هذا العالم"، قال. "أمقت هذه المسألة الباركرينيَّة بشأن التطوُّر والتعديل التدريجي للأشياء. أتمنى لو أن العالم قد خُلِق في ستة أيام، ثم هُدِمَ إلى شظايا في ستة أيام أخرى. وأتمنى لو أنني مَن فعل ذلك. المزحة جيدة بما يكفي عمومًا، الشمس والقمر وصورة الرَّبِّ، وكل تلك الأشياء، لكنهت تستمرُّ في الأمر طويلًا للغاية. هل تُقتَ أبدًا إلى معجزة يا باولر؟".

"لا، سيدي"، قال باولر، الذي كان من أنصار المذهب التطوُّري، وترعرعَ في ظلِّ عناية كبيرة.

"لكنني أتوق إلى معجزة"، أجاب الملك. "سرتُ ذات مرة عبر شارع وفي فمي أفضل سيجار في الأكوان، وفي معدتي بورجندي أكثر ممَّا رأيتُ في حياتك كلِّها، وتمنَّيتُ أن يتحوَّل عمود مصباح الشارع إلى فيلٍ لإنقاذي من جحيم هذا الوجود الخاوي. ثِقْ في كلامي، عزيزي باولر التطوُّري، لا تصدِّق الناس عندما يخبرونك أن الناس كانوا يبحثون عن علامة، وأنهم آمنوا بالمعجزات لأنهم كانوا جهلة. لقد فعلوا ذلك لأنهم كانوا حكماء، حكمةً مُدنَّسةً، فاسدةً... حكماء للغاية على أن

يأكلوا أو يناموا أو يرتدوا أحذيتهم بصبر. يبدو هذا على نحوٍ مُبهجٍ كنظرية جديدة عن أصل المسيحية، التي قد تكون في حدِّ ذاتها شيئًا ليس ذا عبثية هيِّنة. احتَسِ مزيدًا من النبيذ".

هبَّت الرياح حولهما فيما يجلسان على مائدتهما الصغيرة، بقماشها الأبيض وكؤوس النبيذ البرَّاقة، وطوَّحَت بقمم أشجار هولاند بارك ضاربةً بعضها ببعض، لكن الشمس كانت في ذلك المزاج القوي الذي يحوِّل الأخضر إلى ذَهَبيٍّ. دفعَ الملك بصحنه بعيدًا، وأشعل سيجارًا ببطء، وتابع حديثه:

"في الأمس ظَنَنتُ أن شيئًا مشابهًا لمعجزةٍ قد يحدث لي قبل انطلاقي للتسرية عن الأفاعي. أن أرى ذلك المختلَّ أحمر الشعر يلوِّح بسيفٍ هائل ويُلقي خُطبًا لأتباعه الذين لا يُحصَون، كان هذا يعني أن أرى صورة خاطفةً من أرض الشباب تلك التي أخرجتنا منها الأقدار. كنتُ خططتُ لبضعة أشياء مُبهجة حقًّا. احتشاد في نايتسبريدج في ظلِّ مُعاهَدة، أرأسه أنا نفسي، في ظلِّ انتصار روماني ربما، وباركر العجوز مُقادٌ في الأصفاد. لكن أولئك الأجلاف البائسين انطلقوا ليسحقوا السيد واين المُذهل تمامًا، وأعتقد أنهم سيضعونه في مصحَّة نفسية خاصة في مكان ما بطريقتهم الإنسانية اللعينة. فكِّر في الكنوز التي ستُصَبُّ يوميًّا على مسامع حارسه الذي لن يُقدِّر شيئًا من ذلك! أتساءل ربما يسمحون لي بأن أكون حارسه. لكن الحياة فانية. أبدًا لا تنسى في أيِّ لحظة من وجودك أن تنظر إليها باعتبارها فانية. هذه العادة البديعة، إذا لم تُكتسب في الشباب...".

توقَّف الملك، بسيجاره مرفوعًا؛ ذلك أن نظرةً مُجفلة لرجلٍ يُنصِتُ قد انسلَّت إلى عينيه. لم يُبدِ أي حركة لبضعة دقائق، ثمَّ أدارَ رأسه بحدَّة نحو السياج العالي، الرفيع، الذي يشبه الألواح الخشبية والذي يفصل حدائق طويلة بعينها ومساحات مشابهة عن الطريق. من

ورائه كانت تأتي ضوضاء مُخربشة وكاشطة غريبة، كما لو كانت لشيءٍ مسجون في هذا الصندوق من الخشب الرفيع. ألقى الملك بسيجاره بعيدًا وقفز على المنضدة. من هذا الوضع رأى زوجًا من الأيادي تتدلَّى بقبضة طاوية من على قمَّة السور. ثم ارتجفت اليدان بفعل مجهود تشنُّجيٍّ، وانبثق رأسٌ من بينهما... رأس واحد من أعضاء مجلس مقاطعة بايزووتر، عيناه وشعيرات وجهه تمورُ بالخوف. تطوَّح من فوق السور، وسقطَ على الجانب الآخر على وجهه، وتأوَّهَ جهرًا بلا توقُّف. في اللحظة التالية تلقَّى الخشب الرفيع المفتول للسور ضربةً بفعل رصاصة، بحيث ارتعش كطبلة، ثم تلاها صوت تَمزُّق ولعنات، وبملابس ممُزَّقة وأظافر مكسورة ووجه دامٍ، اندفع عشرون رجلًا دفعةً واحدة. وثبَ الملك ليهبط على بُعد خمس أقدام من المنضدة على الأرض. في اللحظة التالية انقلبت المنضدة، وتناثَرَت الزجاجات والكؤوس متطايِرةً، وانجرفَ الحُطام حرفيًّا على الأرض بفعل تيَّار الرِّجال المندفعين، وحُمل باولر معهم، كما قال الملك ذات مرة في مقالته الصحفية المشهورة: "كعروسٍ مُختطفة". تأرجح السور وانشقَّ تحت وطأة المُتسلِّقين الذين ما يزالون يتسلَّقونه ويعبرونه. تمزَّقَت الفجوات الهائلة في السور بفعل هذا المدفعية الحيَّة، وعبرها تمكَّنَ الملك من رؤية مزيد ومزيد من الوجوه المهتاجة، كما لو كان في حلم، ومزيد ومزيد من الرجال الراكضين. كانوا في غاية التَّنوُّع كما لو أن أحدهم قد انتزع غطاء سلَّة مهملات بشرية. بعضهم سليم على حالته الأولى، وبعضهم مجلود ومُحطَّم ومضرَّج بالدماء، وبعضهم بملابس فخيمة، وبعضهم رثٌّ ونصفُ عارٍ، وبعضهم بالأزياء المُدهشة للمدن الهزلية، وبعضهم بأكثر الأزياء المُعاصرة بهوتًا وضجرًا. خطا للأمام بغتةً.

"باركر"، قال، "ما كل هذا؟".

"هُزِمنا"، قال السياسيُّ، "هُزِمنا شرَّ هزيمة!"، ثم اندفع ماضيًا بمنخريه يرتجفان كمنخري حصان، وتبعه مزيد ومزيد من الرجال.

بعد أن انتهى من حديثه على الفور، انثنت آخر قطعة قائمة من السور وانقصمت، قاذفةً، كما لو من منجنيق، بشكلٍ بشريٍّ جديد على الطريق. كان يرتدي الأحمر المتوهِّج لحاملي مَطارِد نوتنج هيل، على سلاحه كانت هناك دماء، وعلى وجهه النَّصر. في لحظة أخرى توهَّجَت جحافل من الأحمر عبر فجوات السور، وتدفَّقَ المُلاحِقون، برماحهم، عبر الشارع. فيما الهاربون والملاحِقون على السواء يكنسهم الشَّكلُ البشري الضئيل ذو عينَيْ البومة، الذي لم يكن أخرج يديه من جيوبه.

كان الملك قد تجاوزَ بالكادِ الحسَّ المُرتَبِكَ لرجل وجد نفسه وسط إعصار... ذلك الشعور بالسقوط في تدويمات بشرية. ثم حدثَ شيءٌ لم يتمكَّن لاحقًا من وصفه أبدًا، شيءٌ لا يمكن وصفه له حتَّى. بغتةً في المدخل المظلم، بين بوابات الحديقة المكسورة، هناك ظهر متطاولًا ذلك الشكل البشري مُتأجِّجًا بالغضب.

آدم واين، الغازي، برأسه مُطوَّحًا للوراء، وعُرفه كعُرف الأسد، يقف بسيفه الهائل متَّجهًا لأعلى وزيُّه الرسمي الأحمر يرفرف حوله كالأجنحة الحمراء لكبير ملائكة. ثم رأى الملك -لم يدرك كيف- شيئًا جديدًا وكاسحًا. الأشجار الخضراء الهائلة والأردية الحمراء الهائلة تلتفُّ معًا في الرياح. بدا السيف وكأنه مصنوع من أجل شعاع الشمس. القناع المستحيل، مولودًا من سخرية الملك ذاتها، حلَّقَ من فوقه واحتوى العالم. كان هذا هو الاعتيادي، كان ذلك العقل، كان ذلك الطبيعة، وهو ذاته، بعقلانيَّته وتجرُّده ومعطفه الأسود، كان الاستثناء والصُّدفة- لطخةً من الأسود على عالم من القرمزي والذهبي.

الكتاب الرابع

الفصل الأول

معركة المصابيح

كان السيد بَكْ، الذي كثيراً ما يتردد، رغم تقاعده، على متاجره الكبيرة للأقمشة في شارع كنسينجتون هاي، يقوم بإقفال هذه المنشآت؛ كونه آخر مَن يغادر. كانت أمسية بديعة من الأخضر والذهبي، لكن ذلك لم يشغله كثيراً. لكن إذا أشرتَ له بذلك؛ فسيتَّفِق معك بحماس، ذلك أن الأثرياء يتوقون دومًا ليكونوا ذوي حسٍّ فني.

خطا خارجًا إلى الهواء البارد، مُزرِّرًا معطفه الأصفر الفاتح، ونافخًا سُحبًا كبيرة من سيجاره، عندما اندفع شكلٌ بشريٌّ إليه مُرتديًا معطفًا أصفر بدوره، لكن غير مُزرَّر ويتطاير وراءه.

"مرحبًا، باركر!" قال تاجر الأقمشة. "أيًّا من بضائعنا الصيفية؟ أنت متأخِّر جدًّا. قوانين المصانع، باركر. البشرية والتقدُّم يا صديقي".

"أوه، لا تهذر"، هتف باركر، ضاربًا الأرض بقدميه. "لقد هُزمنا".

"هُزمنا... أمام ماذا؟" سأله بَكْ، مذهولًا.

"أمام واين".

تطلَّعَ بَكْ إلى وجه باركر الأبيض الهائج للمرَّة الأولى، وهو يتوهَّج في ضوء مصباح الشارع.

"اصحبني ولنحتسِ شرابًا"، قال.

التجئا إلى مطعم مُبهرج ذي وسائد. واستقرَّ بَكْ ببطء وتكاسل على مقعدٍ، وأخرج علبة سيجاره.

"خذ سيجارًا"، قال.

كان باركر ما يزال واقفًا، يقتله الغيظ، وبعد لحظة تردُّد، جلس كما لو كان سيهبُّ واقفًا في اللحظة التالية. طلبا شرابيهما في صمت.

"كيف حدث ذلك؟"، سأله بَكْ، مُديرًا عينيه الكبيرتين الجسورتين إليه.

"وكيف لي أن أعرف بحقِّ الشيطان؟" هتف باركر. "حدثَ وكأنه... وكأنه حُلم. كيف لمائتي رجل أن يهزموا ستمائة؟ كيف أمكنهم؟".

"حسنًا"، قال بَكْ ببرود، "كيف فعلوا ذلك؟ لا بدَّ أنك تعرف".

"لا أعرف، لا أستطيع أن أصف الأمر"، قال الآخر، ناقرًا على المائدة. "بدا الأمر هكذا. كُنَّا ستمائة رجل، وزحفنا مُحتشدين بفؤوس الحرب اللعينة تلك لأوبيرون... الأسلحة الوحيدة التي أمكننا الحصول عليها. زحفنا قُدمًا في صفوفٍ بعرض مترين تقريبًا. صعدنا هولاند ووك، بين الأسيجة العالية التي بدت لي وكأنها تنطلق كسهمٍ إلى شارع بامب. كنتُ في آخر المسيرة الطويلة. عندما كانت نهايتها ما تزال بين الأسيجة العالية، ورأسها يعبر بالفعل طريق هولاند بارك. ثم انغمست مقدِّمة المسيرة في شبكة من الشوارع الضيقة على الناحية الأخرى، وخرجنا أنا والذيل من هذا المَعبر العظيم. عندما وصلنا إلى

الناحية الشمالية وظهرَ شارع صغير يشير -بشكل ملتوٍ- ناحية شارع بامب، بدا الأمر بأكمله مختلفًا أيضًا. كانت الشوارع تتملَّص وتنحني لحدٍّ أن مقدِّمة مسيرتنا بدت تائهة تمامًا: كما لو أنَّا وصلنا إلى أمريكا الشمالية. وطوال هذا الوقت لم نر إنسانًا واحدًا".

شرعَ بَكْ، الذي كان ينفض بخمولٍ رمادَ سيجاره في المِنفضة، في تحريكها بتأنٍّ على المائدة، صانعًا خطوطًا رمادية واهية، فيما يشبه خريطةً.

"لكن رغم أن الشوارع الصغيرة جميعها كانت مهجورة (وهو ما تلاعبَ بأعصابي)، بينما نتعمَّق فيها أكثر وأكثر، بدأ شيءٌ في الحدوث لم أستطع فهمه. أحيانًا على مبعدة -ثلاثة انعطافات أو نواصي أمامنا- كانت تنطلق بغتةً ضوضاءٌ على شكل صيحات مُقعقعة، متداخلة، ثم تتوقَّف. حينها حدث ذلك الشيء، الذي لا أستطيع وصفه... شيءٌ يشبه الارتجاج أو التمايُل سَرَى عبر المسيرة، كما لو كانت المسيرة شيئًا حيًّا، ضُربَ رأسه، أو أنها تحوَّلت إلى سلك كهربائي. لم يعرف أيٌّ منَّا لماذا كنَّا نتحرَّك، لكننا تحرَّكنا وتدافعنا بالمناكب. ثمَّ استفقنا، ومضينا عبر الشوارع القذرة الصغيرة، والنواصي المستديرة، وصعودًا عبر الأزقَّة المُلتفَّة. سرعان ما خلقت الشوارع الملتوية الصغيرة لديَّ شعورًا لا يمكنني تفسيره، كما لو كان حُلمًا. شعرتُ أن الأشياء قد فقدت عقلها، وأننا لن نخرج أبدًا من المتاهة. يدهشك أن تسمعني أتحدَّث هكذا، أليس كذلك؟ كانت الشوارع معروفة للغاية، كلها على الخريطة. لكن الحقيقة تظلُّ هكذا. كنتُ خائفًا من حدوث شيء رغم أن شيئًا لم يحدث على الإطلاق... لم يحدث شيء على الإطلاق طوال أبدية الرب".

أفرغ كأسه وطلب مزيدًا من الويسكي. احتساه، وتابع حديثه.

"ثم حدث شيءٌ ما حقًّا. بَكْ، إنها الحقيقة المُقدَّسة، أنه لم يحدث لك شيءٌ قطُّ في حياتك. لم يحدث لي شيءٌ قطُّ في حياتي".

"لم يحدث شيءٌ قطُّ!" قال بَكْ، مُحدِّقًا." ماذا تعني؟".

"لم يحدث شيءٌ قطُّ"، كرَّرَ باركر، بعنادٍ كئيب. "ألا تدرك معنى أن يحدث شيءٌ؟ تجلس في مكتبك تتوقَّع ظهور الزبائن، ويأتي الزبائن، تمشي في الشارع تتوقَّع رؤية أصدقاء، ويقابلك الأصدقاء، تريد شرابًا، وتحصل عليه، تشعر بميلٍ للمقامرة، وتُقامر. تتوقع إمَّا أن تفوز وإمَّا أن تخسر، ويحدث لك هذا أو ذاك. لكن أن يحدث شيءٌ!"، ثم ارتعشَ بشكل خارج عن السيطرة.

"تابِعْ"، قال بَكْ، باقتضاب. "استمرَّ".

"فيما نمضي مُرهقين حول النواصي، حدثَ شيءٌ ما. عندما يحدث شيءٌ ما، فهو يحدث لأول مرة، كما سترى لاحقًا. يحدث من تلقاء نفسه، دون أيِّ تدخُّل منك. يثبتُ شيئًا مريعًا... أن هناك أشياء أخرى بخلاف ذات أحدنا. لا يمكنني تفسيره إلَّا بهذه الطريقة. استدرنا حول انعطافة، انعطافتين، ثلاث انعطافات، أربع انعطافات، خمس. ثم نهضتُ ببطْء مُرتفعًا عن المِزراب حيث ألقيت فاقد الحسِّ تقريبًا، ثم ضُربتُ مجدَّدًا من قبل رجال مُتحمِّسين يسحقونني من أعلى، وصار العالم ممتلئًا بالصخب، ورجال كبار يتدحرجون كقوارير البولنج الخشبية".

تطلَّعَ بَكْ إلى خريطته بحاجبين مُلتحِمَين.

"هل كان ذلك طريق بورتوبيلو؟" سأله.

"نعم"، أجابه باركر. "نعم؛ طريق بورتوبيلو. رأيته لاحقًا، لكن، يا إلهي، أيَّ مكان كان ذلك! بَكْ، هل انتصبتَ واقفًا قطُّ وتركَت رجُلًا بطول ستِّ أقدام يقرع ويقرع رأسك بقضيبٍ طوله ست أقدام بستَّة أرطال من الحديد في نهايته؟ لأنك، إذا مررتَ بهذه التجربة -كما يقول والت ويتمان- "فستعيد اكتشاف الفلسفات والأديان"".

"بـلا شـكٍّ"، قـال بَـكْ. "إذا كان ذلـك طريـق بورتوبيلـو، ألم تـرَ مـا حـدث؟".

"أعـرف مـا حـدثَ تمـام المعرفـة. أُسـقِطتُ أرضًـا أربـع مـرَّات، تجربـةٌ، كـما قلـت، لهـا تأثـير عـلى التوجُّـه العقـلي. وشيءٌ آخـر حـدث أيضًـا. أسـقطتُ رجلـين. بعـد السـقطة الرابعـة (لم يكـن هنـاك كثـيرٌ مـن الدمـاء -بـل مزيـد مـن الاندفـاع والطـرح أرضًـا بشـكل وحـشي فحسـب- ذلـك أن أحـدًا لم يسـتطع اسـتخدام أسـلحته)، بعـد السـقطة الرابعـة، أعنـي، نهضـتُ واقفًـا كشـيطان، وانتزعـت فـأس الحـرب مـن يـد واحـد مـن الرجـال وقرعـتُ بـه مـا رأيـتُ أنـه قُرمـزيُّ جنـود وايـن، قرعـتُ مـرارًا وتكـرارًا. فـرَّ اثنـان منهـما، نازفـيَن عـلى الأحجـار، حمـدًا للـرَّبِّ، وضحكـتُ ووجـدت نفـسي أتمـدَّد في المِـزراب مُجـدَّدًا، ثـم أنهـض مُجـدَّدًا، وأقـرع مُجـدَّدًا، وأحطِّـمُ مِطَـردي إلى شـظايا. جرحـتُ رأس أحدهـم، مـع ذلـك".

أنزلَ بَكْ كأسه بخبطةٍ قوية، وبصق عدة لعنات عبر شاربه الكثِّ.

"مـا الأمـر؟" سـأله باركـر، متوقِّفًـا؛ ذلـك أن الرجـل كان هادئًـا حتَّـى الآن، والآن صـار مُسـتثَارًا بشـكل أعنـف منـه هـو نفسـه.

"الأمـر؟" قـال بَـكْ بمـرارة، "ألا تـرى كيـف انتـصر علينـا هـؤلاء المخابيل؟ لمـاذا قـد ينجـح أحمقـان، أحدهـما مُهـرِّج والآخـر مجـذوب صـارخ، في جعـل البـشر العاقلـين مختلفـين عنهـما؟ اسـمع، باركـر، سأرسـم صـورةً لـك. شـابٌّ حَسـن التربيـة للغايـة مـن هـذا القـرن يرقـص مرتديًـا معطفًـا مشـقوقَ الذيـل. يحمـل في يديـه ذلـك المِطـرَد عديـم المعنـى مـن القـرن السـابع عـشر، يحـاول بـه قتـل النـاس في نوتنـج هيـل. اللعنـة! ألا تـرى كيـف تمكَّنـوا مِنَّـا؟ لا تهتـم بكيـف شـعرتَ- هكـذا بـدوتَ حينهـا. كان الملـك سـيميل رأسـه اللعـين جانبًـا ويـرى في هـذا شـيئًا بديعًـا. وسـيرفع رئيـس نوتنـج هيـل أنفـه اللعـين في الهـواء ويـرى في هـذا شـيئًا بطوليًّـا. لكـن بحـقِّ السـماء كيـف رأيـتَ أنـت الأمـر... قبـل يومـين؟".

عضَّ باركر شفتيه.

"لم تمرَّ بذلك، بَكْ"، قال. "لا تفهم معنى القتال... المزاج العام".

"لا أنكر المزاج العام"، قال بَكْ، ضاربًا المنضدة. "أقول فحسب إنه مزاجهم هم. إنه مزاج آدم واين. المزاج الذي ظَنَنتُ أنا وأنت أنه اختفى من العالم المُتعلِّم للأبد".

"لا، لم يختفِ"، قال باركر، "وإذا كان لديك أيُّ شكوك أخرى، فأعِرني فأسَ حَربٍ، وسأُريك".

غشيهما صمتٌ طويل، ثم استدار بَكْ إلى رفيقه وتحدَّث بهدوء ناتج عن سُلطة النظر بيقين الحقائق في الوجه، ذلك الهدوء الذي أبرم به صفقاتٍ عظيمة.

"باركر"، قال، "أنت على صواب. هذه المسألة القديمة... هذا القتال، قد عاد حقًّا. عاد بغتةً وأخذنا على حين غِرَّة؛ لذلك فهو الدَّم الأول لآدم واين. لكن، ما لم يَسقُط العقل والحِساب وكل شيء آخر فريسةً للجنون، فلا بدَّ أن يكون الدَّم الثاني والأخير لنا. لكن عندما تظهر مشكلة حقًّا، فلا يوجد سوى شيءٍ واحد لنفعله... أن ندرس تلك المشكلة ونفوز فيها. باركر، حيث إن تلك المشكلة هي القتال، فعلينا أن ندرس القتال. عليَّ أن أدرس القتال بهدوء واكتمال، تمامًا كما أفهم تجارة الأقمشة، عليك أن تفهم القتال بمنتهى الهدوء والاكتمال تمامًا كما تفهم السياسة. الآن، لننظر إلى الحقائق. سألتزم بلا تردُّدٍ بمعادلتي الأصلية. القتال، عندما نمتلك القوَّة العسكرية الأقوى، فهي مسألة حسابية لا غير. حتمًا هي كذلك. سألتني لتوِّكَ كيف تمكَّنَ مائتا رجل من هزيمة ستمائة. بمقدوري إجابتك. مائتا رجل بمقدورهم هزيمة ستمائة رجل عندما يتصَّرف السِّتمائة كالحمقى. عندما ينسون الظروف التي يقاتلون فيها، عندما يقاتلون في مستنقع

كما لو أنه جبل، عندما يقاتلون في غابة كما لو أنها سهل مُنبسط، عندما يقاتلون في الشوارع دون تذكُّر الغرض من الشوارع".

"ما هو الغرض من الشوارع؟"، سأله باركر.

"ما هو الغرض من وجبة العشاء؟"، هتف باركر مُهتاجًا. "أليس هذا واضحًا؟ هذا العِلم العسكري ليس سوى الإدراك السليم. الغرض من الشوارع هو الإرشاد من مكان إلى آخر، لهذا تلتحم كل الشوارع معًا؛ لهذا فإن قتال الشوارع مسألة غريبة للغاية. تقدَّمتُم إلى قَفير الشوارع ذلك كما لو كنتم تتقدَّمون إلى سهلٍ مُنبسطٍ مفتوح يمكنكم رؤية كل شيء فيه. في الحقيقة، كنتم تتقدَّمون إلى أحشاء قلعة حصينة، بالشوارع تشير إليكم، بالشوارع تنقلب عليكم، بالشارع تتواثب عليكم، وكلُّها في يدَيْ العدو. هل تعرف ما هو شارع بورتوبيلو؟ إنه النقطة الوحيدة في رحلتك حيث يمضي شارعان جانبيان قُبالة بعضهما البعض. حشدَ واين رجاله على الجانبين، وعندما سمحَ لما يكفي منكم بالمرور، قطع صفوفكم إلى نصفين كالدودة. ألا ترى ما كان بمقدوره إنقاذكم؟".

هزَّ باركر رأسه.

"ألا يمكن (للمزاج العام) أن يساعد؟"، سألَ بَكْ بمرارة. "هل عليَّ أن أقدِّم تفسيراتٍ بطريقة رومانتيكيَّة؟ لنفترض، فيما أنتم تتقاتلون على عمائكم مع أهل نوتنج هيل الحُمْر الذين حَصَروكم على كلا الجانبين، أنك سمعتَ صيحةً من وراءهم. لنفترض، أوه، باركر الرومانتيكي! أنك لمحتَ وراء الأردية الحمراء، رجال ساوث كنسينجتون، بالأزرق والذهبي، ينقضُّون عليهم من المؤخِّرة، ويحيطون بهم دافعين إيَّاهم إلى شراك فؤوسكم الحربية".

"لو كان ذلك الشيء ممكِنًا"، قال باركر مُغتاظًا.

"كان ذلك الشيء ممكِنًا حقًّا"، قال بَكْ بهدوء، "ببساطة عملية حسابية. يوجد عدد معيَّن من مداخل الشوارع تؤدِّي إلى شارع بامب. لا يوجد منها تسعمائة، لا يوجد منها تسعة ملايين. لا تنمو في الليل. لا تزيد كالفِطر. من الممكن حتمًا، بتلك القوَّة العسكرية الكاسحة التي لدينا، أن نتقدَّم نحوهم دفعةً واحدة. وحينها يمكننا أن نضع، في كل شارع وكل ممرٍّ على حِدَة، نفس عدد الرجال تقريبًا الذي يمكن لواين حشدهم في الميدان مُجتمعين. فور أن نفعل هذا، سنريه الاستعراض العسكري الحقيقي. الأمر مثل نظرية إقليدس الرياضية".

"هل أنت على يقين من هذا؟"، سأله باركر، مُرتبكًا ومبتهجًا في نفس الوقت.

"سأخبرك بما أظنُّه"، قال بَكْ، ناهضًا بمرح. "أعتقد أن آدم واين قد خلق معركة صغيرة ذات حيوية غير معتادة، وأعتقد أنني أشعر ناحيته بأسف مشوَّش".

"بَكْ، أنتَ رجل عظيم!"، هتف باركر، ناهضًا بدوره. "لقد أعدتني إلى رُشدي. يخجلني أن أقول ذلك، لكنني كنتُ في طريقي لأصبح رومانتيكيًّا. بالطبع، ما تقوله يحمل معنى صلبًا. القتال؛ كونه شيئًا مادِّيًّا، لا بُدَّ أن يكون رياضيًّا. هُزِمنا لأننا لم نكُن رياضيِّين ولا مادِّيِّين ولا شيء من هذا القبيل؛ لأننا نستحق الهزيمة. السيطرة على كل المداخل، وبقوَّتنا كُنَّا حتمًا سننال منه. مُتى سنُطلق الحملة العسكرية التالية؟".

"الآن"، قال بَكْ، وخطا خارجًا من الحانة.

"الآن!"، هتف باركر، تابعًا إيَّاه بحماس. "هل تعني الآن؟" الوقت متأخِّر جدًّا".

استدار بَكْ إليه، خابطًا الأرض بقوَّة.

"هل تظنُّ أن القتال يندرج تحت قوانين المصانع؟"، قال له، ثم أوقف عربة أجرة. "محطة نوتنج هيل"، أخبرَ السائق، وانطلق الاثنان.

أحيانًا ما تُصنع السُّمعة الحقيقية في ساعة واحدة. أثبتَ بَكْ، في الستين أو الثمانين دقيقة التالية، أنه رجُلُ أفعال عظيم بحقٍّ. حملته عربة الأجرة كالبرق الخاطف من الملك إلى ويلسون، من ويلسون إلى سويندون، ومن سويندون إلى باركر مجدَّدًا، إذا كان مساره مُتعرِّجًا فهو تعرُّجُ البرق. شيئان فقط حملهما معه: سيجاره الذي لا يستغني عنه وخريطة نورث كنسينجتون ونوتنج هيل. كانت هناك، كما أشار مرارًا وتكرارًا، بكل تنويعات الإقناع والعنف، تسعة طُرُق محتَمَلة فقط للاقتراب ربع ميل حول شارع بامب، ثلاثة تخرج من ويستبورن جروف، واثنان من لادبروك جروف، وأربعة من هاي ستريت في نوتنج هيل. صارَ لديه سرايا تتكوَّن من مائتي جندي لكل طريق، مُتَموضِعةً عند كل مدخل من المداخل قبل الأخضر الأخير لغروب الشمس العجيب ذلك الذي هبط نازلًا من السماء السوداء.

كانت السماء سوداء على نحو عجيب، وبسبب هذا فحسب ظهرَ اعتراضٌ زائف واحد ضد التفاؤليَّة المُنتصرة لرئيس نورث كنسينجتون. لكنه أبطلَ هذا الاعتراض عبر إدراكه السليم المُعدي.

"لا يوجد ما يُسمَّى"، قال، "الليل في لندن. عليك فحسب أن تتبع خطَّ مصابيح الشوارع. انظر، ها هي الخريطة. مائتا جندي أرجواني من نورث كنسينجتون تحت قيادي يزحفون عبر شارع أوسينجون، ومائتان آخرون تحت قيادة كابتن بروس، من حرس نورث كنسينجتون، عبر حدائق كلانريكارد. مائتا جندي أصفر من شمال كنسينجتون تحت قياد الرئيس سويندون سيهاجمون من طريق بيمبريدش. مائتان آخرون من رجالي سيهاجمون من الشوارع الشرقية، مُنطلقين من طريق كوينس. سريَّتان صفراوان ستدخلان

عبر طريقين من ويستبورت جروف. أخيرًا، مائتا جندي أخضر من بايزووتر سيهبطون من الشمال عبر ميدان تشيبستو، ومائتان آخرون تحت قيادة الرئيس ويلسون نفسه، عبر الجزء العلوي من طريق بيمبريدج. يا سادة، إنه "كِش مات" في نقلتين. ليس أمام العدو سوى الاحتشاد في شارع بامب، وحينها سيُمزَّق إلى شظايا، أو سيتراجع إلى ما وراء شركة الغاز، وحينها سيصطدم برجالي الأربعمائة، أو يتراجع إلى ما وراء كنيسة القديس لوك، وحينها سيصطدم برجالي الستمائة من الغرب. ما لم نكن مجانين، فالأمر بسيط. لنبدأ العمل. كلٌّ إلى حيِّه وانتظروا إشارة الكابتن بروس للتَّقدُّم. حينها ليس عليكم سوى السير بمحاذات خطِّ مصابيح الغاز وسحق هذا الهراء باستخدام الرياضيات البحتة. غدًا سنصبح جميعنا مدنيِّين مُجدَّدًا.

توهَّجَ تفاؤله كنار هائلة في الليل، وسَرَتْ حول الحلقة المريعة التي يقف واين في وسطها عاجزًا. انتهت المعركة بالفعل. طاقة رَجُل واحد لساعة واحدة أنقذت المدينة من الحرب.

طوال العشر دقائق التالية خطا بَكْ جيئةً وذهابًا بصمت بجوار التجمُّع الساكن لجنوده المائتين. لم يكن قد غيَّرَ مظهره بأي طريقة، باستثناء تعليقه جِرابًا عبر معطفه الأصفر بمُسدَّسٍ داخله. بحيث ظهرَ شكله البشري المعاصر، المُتَّشِح بألوان فاتحة، بشكل عجيب بجوار الأزياء الأرجوانية الفاقعة لحاملي المَطارِد، التي أضفت على الليل الأسود ألوانًا داكنة، لكن ثرية.

في النهاية، صدحَ بوقٌ مُجلجل من مكانٍ ما عبر الشارع، كانت إشارة التَّقدُّم. أصدرَ بَكْ الأمر باقتضاب، وتحرَّكَ الصَّفُّ الأرجواني بأكمله، بحديده اللامع بخفوت، عبر الزُّقاق الجانبي. قبل أن يتحوَّل إلى شارع مُنحدر، طويل ومستقيم ويلتمع في الظلام. كان سيفًا موجَّهًا

إلى شارع بامب، الذي نحو قلبه كانت تتَّجِه تسعة سيوف أخرى في تلك الليلة.

بعد ربع ساعة من الزحف الصامت أصبحوا على مرمى السمع من أيِّ صَخَبٍ في القلعة الهالكة. لكن رغم ذلك لم يكن هناك أيُّ صوتٍ أو إشارةٍ من العدو. هذه المرَّة، على أيِّ حال، كانوا مدركين أنهم يقتربون منه بشكل ميكانيكي، ويزحفون قُدُمًا تحت ضوء مصابيح الشارع والظلام دون أيٍّ من أحاسيس الجهل المُرعبة تلك التي راودت باركر عند دخوله إلى البلد المُعادي عبر طريق واحد.

"توقَّفوا... وجِّهوا الأسلحة!"، هتف باركر، بغتةً، وفيما يتحدَّث تناهت إليهم قعقعة أقدام تتعثَّر على الأحجار. لكن المَطارِد ارتفعت هباءً. كان الشكل البشري الذي هرع نحوهم رسولًا من سرايا الشمال.

"النصر، سيد بَكْ!" هتف، لاهثًا، "لقد طُرِدوا. استولى ويلسون رئيس بايزووتر على شارع بامب.

هرعَ بَكْ قُدمًا في استثارته.

"إذن، عبر أيِّ طريق يتراجعون؟ لا بُدَّ أنه سانت لوك للقاء سويندون، أو عبر شركة الغاز للقاءنا. اهرع كالمجنون إلى سويندون، وتأكَّد أن الرجال الصُّفْر يسيطرون على طريق سانت لوك. نسيطر نحن على هذا على الشارع، لا تقلق أبدًا. سنوقعهم في مصيدة من حديد. اركض!".

بينما يندفع الرسول إلى الظلام، تهادى الحرس العظيم لنورث كنسينجتون بيقين الآلة. إلَّا أنه بعد مائة ياردة تقريبًا سقطت أطراف مَطارِدهم مُجدَّدًا معًا متوهِّجةً في ضوء الغاز؛ ذلك أنهم سمعوا مُجدَّدًا قعقعة أقدام على الحجارة، ومُجدَّدًا لم يكن ذلك سوى الرسول.

"سيدي الرئيس"، قال، "جنود ويست كنسينجتون الصُّفر يسيطرون على طريق سانت لوك لعشرين دقيقة منذ احتلال شارع بامب، الذي لا يبعد سوى مائتي ياردة، لا يمكنهم التراجع عبر ذلك الطريق".

"إذن فهم يتراجعون عبر هذا الطريق"، قال الرئيس بَكْ، بابتهاجٍ حاسم، "وعبر شارع مُضاء جيِّدًا لحُسن الحظِّ، رغم التفافه. إلى الأمام!".

فيما يتحرَّكون على طول الثلاثمائة ياردة الأولى في رحلتهم، سقط بَكْ، للمرة الأولى في حياته ربما، في حلم يقظة فلسفي؛ ذلك أن الرجال من نوعه دائمًا ما يتحوَّلون بفعل النجاح، إلى العطف والشفقة، أو الكآبة ربما.

"أنا آسف من أجل واين الرَّجعي البائس، أنا آسف حقًّا"، فكَّرَ. "تحدَّثَ إليَّ بشكل رائع في ذلك المجلس. وأضفى القتامة على عينَيْ باركر العجوز بروحٍ عظيمة. لكنني لا أرى ماذا يمكن للمرء أن يتوقَّع عندما يحارب ضد الحساب، بخلاف الحضارة. ويا لها من خدعة رائعة هذه العبقريَّة العسكرية بأكملها! ربما اكتشفتُ لتوِّي ما اكتشفه كروموبل، أن التاجر الحكيم هو أفضل جنرال عسكري، وأن الرجل الذي يستطيع شراء الرجال وبيعهم بمقدوره قيادتهم وقتلهم. المسألة بسيطة كإضافة عمود في دفتر حسابات. إذا كان لدى واين مائتا رجل، فلا يمكنه وضع مائتي رجل في تسعة أماكن في نفس الوقت. إذا طُردوا من شارع بامب سيهربون إلى مكان ما. إذا لم يهربوا مارِّين بالكنسية فسيهربون مارِّين بشركة الغاز. وحينها سنقتنصهم. نحن رجال الأعمال ليس أمامنا أيُّ فرصة على الإطلاق باستثناء أن يجد الأناس الأكثر ذكاءً منَّا النحلَ في قُلنسواتهم ممَّا يمنعهم من التفكير بشكل سليم، بحيث نفكِّر وحدنا. وكذلك أنا، الأحمق نسبيًّا،

أرى الأشياء كما يراها الرَّبُّ، كآلة هائلة. يا إلهي، ما هذا؟"، وتحسَّس عينيه بيديه وترنَّحَ مُتراجعًا.

ثم في الظلام صرخَ بصوتٍ مريع:

"هل جدَّفتُ على الرَّبِّ؟ لقد عُميتُ".

"ماذا؟"، انتحب صوتٌ آخر وراءه، صوت رجل اسمه ويلفريد يارڤيس من نورث كنسينجتون.

"أعمى!" صرخ بَكْ؛ "أعمى!".

"أنا أعمى أيضًا!"، صرخَ يارڤيس، بألمٍ رهيب.

"حمقى، كُلُّكم"، قال صوتٌ خشن وراءهم، "كلنا عميان. لقد انطفأت المصابيح".

"المصابيح! لكن لماذا؟ أين؟"، هتف بَكْ، مستديرًا باهتياج في الظلام. "كيف سنمضي في طريقنا؟ كيف سنطارد العدو؟ أين اختفى؟".

"لقد انطلق العدو في اتِّجاه..."، قال الصوت الأجش وراءه، وتوقَّف مُتشكِّكًا .

"أين؟"، زعقَ بَكْ، خابطًا الأرض بقدميه كالمجنون.

"لقد انطلقوا"، قال الصوت المبحوح، "مارِّين بشركة الغاز، بعد أن استغلُّوا الفرصة".

"يا إلهي العظيم!" رعدَ صوتُ بَكْ، واختطف مُسدَّسه، "هل تعني أنهم في حقيقة الأمر...".

لكن قبل أن يُكمل كلماته بالكاد، تطوَّحَ كحَجرٍ من منجنيق إلى قلب رجاله.

"نوتنج هيل! نوتنج هيل!"، صاحت الأصوات المرعوبة من قلب الظلام، وبَدَوْا أنهم يأتون من كل الجوانب؛ ذلك أن رجال نورث

كنسينجتون، الجاهلين بالطريق، قد فقدوا كل اتِّجاهاتهم في عالَم العماء الأسود هذا.

"نوتنج هيل! نوتنج هيل!"، هتفَ الرجال غير المرئيين، وانقضُّوا على الغزاة بشكل مريع بصُلْبٍ أسود، صلب لا يعكس أي التماع لأي ضوء.

حافظَ بَكْ، رغم إصابته الشنيعة بفعل ضربة مِطرَد، على عقلٍ غاضب لكن مُشرق. تلمَّسَ الحائط بجنون في الظلام حتى وجده. مُناضلًا بأصابع مُخدَّرة، وجدَ فتحةً جانبية وتراجع إليها مع ما تبقَّى من رجاله. ليس من الممكن وصف مغامراتهم في تلك الليلة العجيبة. لم يدركوا هل كانوا يتَّجهون نحو العدو أم يبتعدون عنه. جاهلِين بمكانهم، وبمكان أعدائهم، كان من العبث أن يسألوا عن بقية جيشهم؛ ذلك أن شيئًا قد نزل عليهم، شيئًا لا تعرفه لندن: الظلام، ظلامٌ وُجدَ قبل أن تُخلقَ النجوم، وكانوا تائهين فيه كما لو أنهم قد خُلقوا قبل النجوم. بين لحظةٍ وأخرى، بينما تمضي تلك الساعات المُرعبة ببطء، كانوا يصطدمون في الظلام برجالٍ أحياء، يتبادلون معهم الضربات، باهتياج أحمق. عندما انبلج الفجر الرمادي أخيرًا، اكتشفوا أنهم قد شَرَدوا عائدين إلى حافَّة طريق أوكسبريدج. اكتشفوا -في تلك المواجهات الضريرة المروِّعة- أن رجال نورث كنسينجتون ورجال بايزووتر ورجال ويست كنسينجتون قد تواجهوا مرَّةً تلو الآخر وقتلوا بعضهم البعض، وسمعوا أن آدم واين كان مُتحصِّنًا في شارع بامب.

الفصل الثاني

مُراسل صحيفة "كورت چورنال"

كانت الصَّحافة، كمعظم الأشياء الأخرى في انجلترا تحت الحُكم الحَذِر والفلسفة المُقدَّمة من قِبَل چيمس باركر، خامدةً بشكل ما وفقَدَت كثيرًا من أهميتها. يعود هذا من ناحية إلى اختفاء حكومة الأحزاب والخطابات العامة، ومن ناحية أخرى إلى التسويات أو الطرق المسدودة التي جعلت من الحروب الخارجية أمرًا مُستحيلًا، لكنه مرجع ذلك في الأصل، بالطبع، هو مزاج الأمَّة بأكملها التي كانت تتكون من شعبٍ يقبع فيما يشبه المياه الراكدة. ربما كانت أشهر صحيفة من الصُّحف المتبقِّية هي "كورت چورنال"، التي تُنشر في مكتب مُغبرٍّ لكن ذي مظهر أرستقراطي على ناصية شارع كنسينجتون هاي؛ ذلك أنه عندما تزداد جميع صُحف شعبٍ ما قتامةً وزخرفةً وتفاؤليةً لسنوات، يصبح من المحتمل جدًّا أن تربح الصحيفة الأكثر قتامة وزخرفةً وتفاؤليةً. في خِضمِّ المنافسة الصحافية التي كانت ما

تـزال قائمـة في أواخـر القـرن العشريـن، كانـت المُنتـصر النهـائي هـي "كورت چورنـال".

لسـبب غامـض مـا كان الملـك يحمـل شـغفًا هائـلًا بالتسـكُّع في مكتـب كـورت چورنـال، يدخِّـن سـيجارة الصبـاح وينقِّـب في الأوراق. ومثـل جميـع الرجـال المُتبطِّلـين بشـكل متأصِّـل، كان مغرمًـا للغايـة بالجلـوس طويـلًا والثرثـرة في أماكـن يـؤدِّي فيهـا الآخـرون أعـمالًا. قـد يظـنُّ المـرء -حتـى في انجلـترا المُملَّـة لزمانـه- أنـه وجـد مركـزًا أكـثر صخبًـا ونشـاطًا.

في هـذا الصبـاح بالـذات، رغـم ذلـك، خطـا خارجًـا مـن قـصر كنسـينجتون بخطـواتٍ أكـثر انتباهًـا وحـسٍّ أكـثر انشـغالًا مـن المعتـاد. كان يرتـدي معطفًـا طويـلًا مشـقوق الذيـل عـلى نحـو مبهـرج، وصدريـة بالأخـضر الشـاحب، وربطـة عنـق فضفاضـة جـدًّا -عـلى عكـس الموضـة السـائدة-، وقُفَّـازات صفـراء عجيبـة. كان هـذا زيَّـه كعقيـد لكتيبـةٍ أنشـأها بنفسـه: كتيبـة الشُّـعراء الرمزيـين الخـضراء الأولى. كانـت رؤيتـه وهـو يدرِّبهـم مشـهدًا رائعًـا. خطـا مُسرعًـا عـبر ذا بـارك وهـاي سـتريت، مُشـعلًا سـيجارته فيـما يمـضي، وفاتحًـا بعنـف بـاب مكتـب كـورت چورنـال.

"سمعتَ الأخبار، يا بالي... سمعتَ الأخبار؟"، قال.

كان المحـرِّر اسـمه هوسـكنس، لكـن الملـك يدعـوه بـالي، كاختصـار لبالاديـوم (حامـي) حُريَّاتِنـا[1].

"حسـنًا، جلالتـك"، قـال هوسـكنس ببـطء (كان شـخصًا مهمومًـا ذا مظهـر چنتلـمان، بلحيـة بُنِّيَّـة مُنحرفـة)، "حسـنًا، جلالتـك، سـمعتُ بأخبـار عجيبـة بعـض الـشيء نعـم، لكننـي...".

(1) Palladium: تمثال الإلهة أثينا، الذي كان يمنح الأمان لطروادة في حروبها. (المترجم)

"ستسمع المزيد منها"، قال الملك، راقصًا ببضعِ خطوات ما يشبه رقصة زنوج. "ستسمع المزيد منها، يا منبر أحداثي المثيرة. هل تدرك ما سأفعله من أجلك؟".

"لا، جلالتك"، أجاب البالاديوم بحيرة.

"سأضع صحيفتك على مسارات قوية، مُندفعة، مُغامِرة"، قال الملك. "الآن، أين لافتاتك عن هزيمة الليلة الفائتة؟".

"لم أنتوِ، جلالتك"، قال المُحرِّر، "وضع أيِّ لافتات بشأن...".

"ورقة، ورقة!" هتف الملك بحماس، "اجلب لي ورقة كبيرة كالمنزل. سأكتب اللافتات من أجلك. انتظر، عليَّ أن أنزع معطفي". بدأ في انتزاع ذلك الرداء بحسٍّ من الاندفاع الصارخ، وطوَّحهُ بمرح على رأس السيد هوسكنس، مخفيًا إيَّاه بالكامل، ثم نظر إلى نفسه في المرآة. "انتزعتُ المعطف"، قال، "وتبقى القبعة. أبدو كمُحرِّر مساعد. هذا حقًا جوهر المُحرِّر المساعد. حسنًا"، تابع، مستديرًا بغتةً، "اجلب تلك الورقة".

كان البالاديوم قد خلَّص نفسه لتوِّه بوقار من ثنيَّات معطف الملك، وقال مذهولًا:

"أخشى، جلالتك...".

"أوه، لا تتمتَّع بحسٍّ المغامرة"، قال أوبيرون. "ما تلك اللفافة في الزاوية؟ ورق حائط؟ زخارف لسكنك الخاص؟ فنٌّ في المنزل، بالي؟ اقذف بها إلى هنا، وسأرسم على ظهرها تلك اللافتات بحيث تُلصقُ النموذج الأصلي على الحائط عندما تضعها في غرفة الرسم لديك". ثم فردَ الملك لفافة ورق الحائط على كامل الأرضية. "الآن ناولني المقصَّ"، هتف، وتناوله هو قبل أن يتحرَّك الآخر.

شقَّ الورقة إلى خمس قَطع، كل منها بحجم باب تقريبًا. ثم تناول قلمًا أزرق كبيرًا، وأقعى على ركبتيه على القماش الزيتي المُغبرِّ وشرعَ في كتابة ما يلي عليها، بحروف هائلة الحجم:

"أخبار من الجبهة

هزيمة الچنرال بَكْ

الظلام، والخطر، والموت

أخبار عن وجود واين في شارع بامب

جوٌّ عامٌّ حماسيٌّ في المدينة".

تأمَّلَ تلك الكلمات لبعض الوقت، برأسه مائلًا على جنبه، ثم نهضَ بتنهيدة.

"ليست حماسيَّةً بما يكفي"، قال، "ليست مُفزِعة. أريد للجمهور أن يهاب كورت چورنال ويحبَّها في نفس الوقت. لنجرِّب شيئًا أكثر حِدَّةً". ثم أقعى مجدَّدًا على ركبتيه. بعد تشريب القلم قليلًا، انغمس في الكتابة مُجدَّدًا. "كيف سنفعل هذا؟" قال.

"انتصار واين المُذهل".

"أعتقد"، قال، مُتطلِّعًا لأعلى مستجديًا، ومُشرِّبًا القلم، "أعتقد أنه لا يمكننا قول "انتصار"... "انتصار واين المذهل"؟ لا، لا. مزيد من التحسين، بالي، مزيد من التحسين. وجدتها".

"واين يربح

معركة مذهلةً في الظلام

مصابيح الغاز تشارك في القتال ضد بَكْ".

""لا شيء يضاهي ترجمتنا الراقية للانجليزية القديمة". ماذا يمكن أن نقول أيضًا؟ حسنًا، أي شيء لإزعاج بَكْ العجوز"؛ ثم أضاف، مُتأمِّلًا، بأحرف أصغر.

"يكفي هذا الآن"، قال، وقلَبَ الورقتين بوجهيهما للأسفل. "الصمغ، رجاءً".

جلبَ البالاديوم -بحسٍّ من الرعب العظيم- الصَّمغَ من غرفةٍ داخلية.

وضعه الملك منه كميات كبيرة ببهجة طفل يعبث في الدِّبس. ثم متناولًا واحدًا من مؤلَّفاته الضخمة يرفرف في كل يد، هرعَ خارجًا، وبدأ في لصقها عاليًا في مواضع بارزة على واجهة المكتب.

"والآن"، قال أوبيرون، دالفًا مُجدَّدًا بحيوية لا تتزعزع، "والآن المقال الرئيسي".

التقط واحدة من قصاصات ورق الحائط الكبيرة، وواضعها إيَّاها على المكتب، ثم أخرج قلم حبر وبدأ في الكتاب بحماسٍ محموم، قارنًا فقرات وشذرات بصوتٍ عال لنفسه، متذوِّقًا إيَّاها على فمه كالنبيذ، ليرى إن كانت ذات نكهة صحفية حقيقية.

"أخبار الكارثة التي حلَّت بقوَّاتنا في نوتنج هيل، رغم فظاعتها -وفظيعةٌ هي حقًّا- (لا، بل مأساوية)، قد تجلب بعض الخير إذا جذبت الانتباه إلى العجز العجيب (عجزٌ مشين بالطبع) لاستعدادات الحكومة. في ضوء ما يتوفَّر لنا من معلومات الآن، سيكون من التعجُّل (يا لها من كلمة رائعة!)... سيكون من التعجُّل إبداء أي آراء تأمُّليَّة بشأن سلوك الجنرال بَكْ، التي تمنحه خدماته في ميادين منكوبة عديدة (ها ها!)، وندباته ونياشينه التشريفية- الحقَّ في تأجيل الحكم عليه على الأقل. لكن هناك مسألة بعينها علينا أن نتحدَّث عنها بصراحة. طالما كُنَّا صامتين بشأنها، بدافع من مشاعر، الحذر الخاطئ

ربما، أو الإخلاص الزائف ربما. لم يكن هذا الوضع لينشأ أبدًا لولا ما يمكننا تسميته فحسب السلوك غير المُبرَّر للملك. يؤلمنا أن نقول هذه الأشياء، لكنا بتحدُّثنا كما نفعل في المصالح العامَّة (أقتبس هنا من حِكمة باركر الساخرة الشهيرة)، فلن نتراجع بسبب المأساة التي قد نوقعها على أي فرد، حتَّى وإن كان ذا مقام رفيع. في هذه اللحظة الحرجة لبلادنا، فإن صوت الشعب يتساءل بلسان واحد: "أين الملك؟"، ماذا يفعل بينما رعاياه يمزِّقون بعضهم البعض إلى شظايا في شوارع مدينة عظيمة؟ هل هو مُنغمس في تسلياته وانغماساته (التي لا يمكننا التظاهر بتجاهلها) لحدٍّ أن لا يجد لحظةً للتفكير في هلاك أمَّةٍ؟ بدافع من شعورٍ عميق بمسؤوليتنا نحذِّر ذلك الشخص عالي المقام أن لا مكانته العظيمة ولا مواهبة الفريدة ستُنقذه في ساعة الاهتياج من قدَر كل هؤلاء الذين واجهوا، في غمرة جنون البذخ أو الاستبداد، الشعب الانجليزي في غضبه وثورته في يومٍ نادرٍ كهذا".

"سأكتب الآن"، قال الملك، "وقائع المعركة وفقًا لشاهد عيان". ثم التقط القصاصة الرابعة من ورق الحائط. في نفس اللحظة تقريبًا التي خطا فيها بَكْ مسرعًا داخلًا إلى المكتب. كان رأسه معصوبًا بضمادة.

"علمتُ"، قال، بتأدُّبه الفجِّ المعتاد، "أن جلالتك هنا".

"وللمُصادَفة العجيبة"، هتف الملك بابتهاج، "لدينا هنا شاهد عيان!"، شاهد عيان، يؤسفني أن ألاحظ، لديه عين واحدة الآن ليشهد بها. هل يمكنك أن تكتب لنا المقال الاستثنائي يا بَكْ؟ هل تتمتَّع بثراءٍ في الأسلوب؟".

لم يلاحظ بَكْ، بسبب تحفُّظٍ أوشكَ أن يكون تأدُّبًا، شيئًا من دماثة الملك المجنونة.

"سمحتُ لنفسي، جلالتك"، قال باقتضاب، "أن أطلب من السيد باركر المجيء إلى هنا أيضًا".

فيما يتحدث، ظهر باركر حقًّا، مُتمايلًا داخلًا إلى المكتب، بحسِّ تعجُّله المعتاد.

"ماذا يحدث الآن؟"، سأله بَكْ، مستديرًا إليه بنوعٍ من الارتياح.

"القتال ما يزال مستمرًّا"، قال باركر. "الأربعمائة رجل من ويست كنسينجتون بالكاد مَسَّهُم شيءٌ الليلة الفائتة. بالكاد اقتربوا من المكان. لكن رجال بايزووتر التابعين لويلسون البائس تشتَّتوا. قاتلوا وهم ذاهلون تمامًا. استولوا على شارع بامب لفترة قصيرة. أيُّ أشياء مجنونة تحدث في العالم. مجرَّد التفكير أنه من بيننا جميعًا كان ويلسون الضئيل ذو الشارب الأحمر مَن حقق أفضل نتيجة".

دوَّنَ الملك ملاحظةً على ورقته:

"السلوك الرومانسي للسيد ويلسون".

"نعم"، قال بَكْ، "يجعل المرء أقلَّ فخرًا برومانسيَّته".

طوى الملك بغتةً الورقة، أو كوَّمها بالأحرى، ووضعها في جيبه.

"لديَّ فكرة"، قال. "سأكون أنا شاهد العيان. سأكتب لكم رسائل من الجبهة ستكون أكثر إبهارًا من الحقيقة. ناولني معطفي يا بالاديوم. لقد دلفتُ إلى هذه الغرفة بصفتي ملك انجلترا فحسب. أغادرها، كمراسلٍ حربيٍّ خاص لكورت چورنال. لا جدوى من إيقافي يا بالي، لا طائل من التَّشبُّث بُركبتَيَّ يا بَكْ، من اليأس يا باركر أن تنتحب على عنقي. "عندما يناديني الواجب"... تهرب مِنّي بقيَّة المشاعر. ستتلقَّى أولى مقالاتي هذا المساء بحلول الساعة الثامنة".

ثم هرعَ خارجًا من المكتب، وقفز إلى إحدى عربات خيول بايزووتر الزرقاء، التي كانت تنطلق متأرجحةً.

"حسنًا"، قال باركر مُتجهِّمًا، "حسنًا".

"باركر"، قال بَكْ، "ربما كانت التجارة أقلَّ شأنًا من السياسة، لكن الحرب، كما اكتشفتُ الليلة الفائتة، تشبه التجارة بالأحرى. أنتم الساسة ديماجوجيون متأصِّلون، لا تفكِّرون في شيء، حتى مع استبدادكم، سوى في الرأي العام؛ لذلك تتعلَّمون المراوغة والهروب، وتخافون من بشائر النسيم. الآن علينا أن نلتزم بالأمر حتى ننهيه. سنجد العون في أخطائنا. انظر هنا! في هذه اللحظة كُنَّا لنهزم واين".

"كنَّا لنهزم واين"، كرَّرَ باركر.

"لماذا لم نفعل بحقِّ الشيطان؟"، هتف الآخر، ملوِّحًا بيديه. "اسمع. قلتُ الليلة الفائتة أننا سننتصر عليهم عبر احتلال المداخل التسعة. حسنًا، كنتُ على خطأ. كُنَّا لنهزمهم لولا حدث فريد واحد: انطفاء المصابيح. لولا ذلك لهزمناهم حتمًا. هل خطرَ لك -عزيزي باركر النابغة- أن حادثةً فريدةً أخرى قد وقَعَت بعد حادثة انطفاء المصابيح العجيبة تلك؟".

"أيُّ حادثة؟"، سأله باركر.

"بمُصادفة مُذهلة، أشرقت الشمس"، هتف بَكْ، بحسٍّ وحشي من التفكُّر. "لماذا بحقِّ الجحيم لا نسيطر الآن على تلك المداخل، وننقضُّ عليهم مُجدَّدًا؟ كان ينبغي فعل ذلك عند شروق الشمس. الطبيب المذهول لم يكن ليسمح لي بالخروج. كنتَ في موقع القيادة".

ابتسم باركر بتجهُّم.

"يُبهجني، عزيزي بَكْ، أن أكون قادرًا على قول أنني توقَّعنا اقتراحاتك بالضبط. انطلقنا مُبكِّرًا قدر الإمكان لاستكشاف المداخل التسعة. للأسف، بينما نقاتل بعضنا البعض في الظلام، كحفنة من العُمَّال السكارى، كان أصدقاء السيد واين يعملون بكل جدٍّ حقًّا. على بُعد ثلاثمائة ياردة من شارع بامب، على كل واحد من تلك المداخل، يوجد متراس بارتفاع المنازل تقريبًا. كانوا ينتهون من المدخل الأخير،

في طريق بيمبريدج، عندما وصلنا. أخطأنا"، هتف بمرارة، وطوَّح بسيجارته على الأرض. "لسنا نحن مَن تعلَّمَ منها".

غشيهم الصمت للحظات قليلًا، وتراجع باركر مُرهقًا في مقعده. قرعت ساعة المكتب في لحظة السكون بالضبط.

ثمَّ قال باركر بغتةً:

"بَكْ، هل خطرَ على بالك قطُّ لماذا يحدث كل هذا؟ كان الطريق من هامرسميث إلى مايدا فيل يحمل توقُّعات كبيرة بحقٍّ. أنت وأنا كنَّا نأمل الكثير منه. لكن هل يستحق؟ سيُكلِّفنا الأمر الآلاف لسحق التمرُّد السخيف هذا. لنفترض أننا تركناه وشأنه؟".

"وُنجلَد على الملأ على يد رجل مجنون ذي شعر أحمر، قد يُحبس في مصحَّة نفسية بتوصية من أي طبيبين؟"، هتف بَكْ، ناهضًا باندفاع. "ماذا تقترح أن نفعل سيد باركر؟ أن نعتذر إلى السيد واين المُدهش؟ أن نركع أمام ميثاق المدن؟ أن نضمَّ راية الأسد الأحمر إلى صدورنا؟ أن نُقبِّل على التوالي كلَّ عمود مصباحٍ مُقدَّس أنقذ نوتنج هيل؟ لا، يا إلهي! لقد قاتل رجالي ببراعة... هُزموا بسبب خدعة. وسيقاتلون مُجدَّدًا".

"بَكْ"، قال باركر، "طالما أُعجبتُ بك. وكنتَ على حقٍّ تمامًا فيما قُلتَه ذلك اليوم".

"على حقٍّ في ماذا؟".

"في قولك"، قال باركر، ناهضًا بهدوء، "إننا جميعًا انغمسنا في مزاج آدم واين العام وتخلَّينا عن مِزاجنا. صديقي، إن مملكة آدم واين بأكملها تمتدُّ إلى حوالي تسعة شوارع، بماريس عند نهايتها. لكن المملكة الروحانية لآدم واين تمتدُّ، الرَّبُّ وحده يعلم إلى أين... لكنها تمتدُّ إلى هذا المكتب في كل الأحوال. الرجل المجنون ذو الشعر الأحمر،

الـذي قـد يُحبـس في مصحـة بتوصيـة مـن أي طبيبـين، يمـلأ هـذه الغرفـة بروحـه الصاخبـة، الفائضـة. وذلـك الرجـل المجنـون ذو الشـعر الأحمـر هـو مـن قـال الكلمـة الأخـيرة التـي نطقـتَ بهـا".

خطـا بَـكْ إلى النافـذة دون أن يجيبـه. "تـدرك بالطبـع"، قـال أخـيرًا، "أننـي لا أحلـم بالاستسـلام".

كان الملـك في أثنـاء ذلـك يُقعقـع في عربـة الخيـول الزرقـاء. لم تكـن حركـة المـرور في لنـدن في المجُمـل قـد تأثَّـرَت كثـيرًا، بالطبـع، بفعـل هـذه الأحـداث؛ ذلـك أن المسـألة اعْتُـبِرَت كتمـرُّدٍ في نوتنـج هيـل فحسـب، وفُصِلَـت تلـك المنطقـة عـن باقـي لنـدن كـما لـو أنهـا قـد وقعـت في أيـدي عصابـة مـن المتمرِّديـن المعروفـين. انطلقـت العربـات الزرقـاء ببسـاطة في أرجـاء المدينـة كـما كانـت لتفعـل إذا كان يجـري إصـلاح في الطريـق، فيـما كانـت العربـة التـي يسـتقلُّها مراسـل كـورت چورنـال تنحـرف حـول ناصيـة طريـق كوينـز، في بايزووتـر.

كان الملك بمفرده فوق العربة، مُستمتعًا بالسرعة التي تمضي بها.

"إلى الأمـام يـا فـرسي العـربي الجميـل، قـال، مُربِّتًـا عـلى العربـة بتشـجيع، "أنـت الأكـثر سرعـةً في قبيلتـك القافـزة بأكملهـا. هـل العلاقـة بينـك وبـين سـائقك -أتسـاءل- كالعلاقـة بـين بـدويٍّ وجَـوَادِه؟ هـل ينـام جنبًـا إلى جنـب معـك...".

انقطعـت تأمُّلاتـه بفعـل توقُّـف مُفاجـئ ومُرتَـجٍّ. مُتطلِّعًـا مـن فـوق العربـة رأى أن الخيـول كانـت أُوقِفَـت مـن قِبـل رجـال في زيِّ جيـش وايـن، ثـم سـمع صـوت ضابـط يطلـق الأوامـر.

هبـطَ الملـك أوبـيرون مـن العربـة بوقـار. كان الحـرس أو الخَفـر مـن حامـلي المَطـارِد الحُمْـر الذيـن أوقفـوا المركبـة لا يتكوَّنـون مـن أكـثر مـن عشريـن رجُـلًا، وجميعهـم تحـت قيـادة رجـل شـاب قصـير القامـة، داكـن البـشر، ذي مظهـر شـديد الـذكاء، يُـبرز مـن بـين البقيَّـة كونـه يرتـدي

معطفًا عاديًّا، لكن بطَوق حول الخصر بزنَّارٍ أحمر وسيف من القرن التاسع عشر. قبعة من الحرير اللامع وعوينات أكملتا الزِّيَّ بطريقة مُبهِجة.

"إلى مَن أتشرَّف بالحديث؟"، قال الملك، محاولًا أن يبدو كتشارلز الأول، رغم الصعوبات الشخصية.

رفع الرجل ذو العوينات قُبَّعته بالتحية بوقار مماثِل.

"اسمي باولز"، قال. "أنا صيدلاني. أنا أيضًا قائد الفرقة (س) في جيش نوتنج هيل. يؤسفني اضطراري إلى إزعاجك بإيقاف العربة، لكن هذه المنطقة تقع ضمن نطاق ندائنا العام؛ ولذلك نعترض كل المركبات. هل لي أن أسأل إلى من أتشرَّف بالحديث... أوه، يا إلهي، أعتذر لجلالتك. يربكني تمامًا أن أجد نفسي أتعامل مع الملك ذاته".

مدَّ أوبيرون يده بأبَّهةٍ لا توصف.

"ليس مع الملك"، قال، "بل مع المراسل الحربي الخاص لكورت چورنال".

"أستسمح جلالتك"، شرع السيد باولز في القول بشكٍّ.

"هل تدعوني "جلالتك"؟ أكرِّر"، قال أوبيرون بحسم، "أنا ممثِّل الصحافة. وقد اخترتُ -بحسٍّ عميق من المسؤولية- اسم "بينكر". أودُّ لو أُلقي بستارٍ حاجب على الماضي".

"حسنًا جدًّا، سيدي"، قال السيد باولز بما يشبه الخضوع والاستسلام، "في أعيننا فإن قُدسيَّة الصحافة لا تقل عَظَمةً عن قدسية العرش. لا نتوق إلى شيء أفضل من ذيوع أخبار خطايانا وأمجادنا. هل لي أن أسألك -سيد بينكر- إذا كان لديك أي اعتراض على تقديمك إلى رئيس المقاطعة وإلى الچنرال تيرنبول؟".

"نلتُ شرف لقاء رئيس المقاطعة بالفعل"، قال أوبيرون، بأريحية. "نحن الصحفيِّين المخضرَمين -كما تعرف- نلتقي بالجميع. وسيبهجني للغاية نَيْل ذلك الشرف مجدَّدًا. يسعدني كذلك التعرُّف إلى الچنرال تيرنبول. يثير الشباب اهتمامي للغاية. كثيرًا ما نفقد -نحن عصابة شارع فليت القديمة- التواصل معهم".

"هل تتكرَّم بالتقدُّم عبر هذا الطريق؟"، قال رئيس الفرقة (س).

"أنا كريم دائمًا"، قال السيد بينكر. "تقدَّمْ المسيرة".

الفصل الثالث

الجيش العظيم لساوث كنسينجتون

وصلَ مقال المراسل الخاص لكورت چورنال في موعده المحدَّد، مكتوبًا على ورق نسخ خشِنٍ للغاية بخطِّ الملك الأرابيسك، الذي تملأ فيه ثلاث كلمات فحسب صفحةً كاملة، وتظلُّ مع ذلك غير مقروءة. إلى ذلك، كان المقال مُربكًا في بدايته، حيث افتتح بتتالٍ من الفقرات الممسوحة. بدا أن الكاتب حاولَ كتابة المقال مرَّةً أو اثنتين بعدَّة أساليب صحافية. على حاشية واحدة من التجارب كُتبَ، "محاولة بالأسلوب الأمريكي"، وبدأت الشذرة كما يلي:

"على الملك أن يرحل. نريد رجالًا شجعانًا. الهراء قد صار في غاية..."، ثم تنقطع الفقرة، ويعقبها ملاحظ تقول: "الصحافة السليمة العادية أفضل. لنجرِّبها".

كانت بداية التجربة بأسلوب الصحافة السليمة العادية كما يلي:

"ذات مرَّة، قال أعظم شعراء انجلترا إن الزهرة بأيٍّ...".

تنقطع هذه الفقرة فجأةً أيضًا. الحاشية التالية على الجانب كانت مستحيلة القراءة تقريبًا، لكنها بَدَت كشيءٍ من قبيل:

"ماذا بشأن آل ستيفانز العجائز و *mots justes* (التعبيرات الملائمة)؟ على سبيل المثال...".

"ومضَ الصباح مُجهدًا بعض الشيء على الحافة القصيرة لكامبدين هيل، وألقى عليَّ وعلى منازلها بظلاله الحادَّة. تحت اللوح الكرتوني الأسود المائل للإطار، استغرق الأمر بعض الوقت للكشف عن الألوان، لكن في النهاية لاحظتُ أصفر مائلًا للبُنِّيِّ يتحرَّك في الظلام، وأدركت أنه حرس سويندون رئيس ويست كنسينجتون. كانوا يشكِّلون قوات احتياطية ويصطفُّون على طول الجسر بأكمله أعلى طريق بايزووتر. يقع معسكرهم وقوَّتهم الرئيسية تحت برج شركة المياه الهائل الواقع على كامبدين هيل. نسيتُ أن أقول أن برج شركة المياه بدا كئيبًا.

بعد أن مررتُ بهم ووصلتُ إلى مُنعطف شارع سيلڤر ستريت، رأيتُ الحشود الغائمة الزرقاء لرجال باركر يسدُّون المدخل إلى الشارع الرئيسي كدخان ياقوتي (مشهد بديع). بدا تنظيم القوات المتحالفة، تحت قيادة السيد ويلسون، كما يلي: الجيش الأصفر (إذا كان لي أن أصف رجال ويست كنسينجتون) يستلقي، كما قلتُ، في شريط ضيق على طول الجسر، نهايته الأبعد ناحية الغرب هي الجانب الغربي لطريق كامبدين هيل، ونهايته الأبعد ناحية الشرق هي بداية كنسينجتون جاردنس. يصطف الجيش الأخضر لويلسون على طول الطريق الرئيسي لنوتنج هيل نفسه من طريق كوينز إلى ناصية طريق بمبريدش، مُنعطفًا حول الأخيرة، وممتدًّا لمسافة ثلاثمائة ياردة تقريبًا نحو شارع ويستبورن جروف، الذي يحتلُّه بدوره باركر من ساوث كنسينجتون. الجانب الرابع من هذا المربع التقريبي، طريق كوينز، يسيطر عليه بعضٌ من مقاتلي بَكْ الأرجوانيين.

المشهد بأكمله يشب حوض أزهار هولندية، عتيقة وبديعة. على طول قمة كامبدين هيل تستلقي الزعفرانات الذهبية لويست كنسينجتون. وهي تمثِّل، في الحقيقة، الحافَّة المُهتاجة الأولى للمشهد بأكمله. ناحية الشَّمال يستلقي باركر الذي يُمثِّل أزهار زنبَقِنا، بكل زُنبقاته الزرقاء. حول الجنوب الغرب تنطلق دردرات ويلسون من بايزووتر، وصفٌّ من أزهار السوسن البنفسجية (يجسِّدها كما ينبغي السيد بَكْ) يكمل المشهد. السطح الخارجي الفضِّي... (الأسلوب يفلت من يديَّ. كان ينبغي أن أقول "مُنعطفين برشاقة" بدلًا من قول "مُنعطفين فحسب". كذلك كان ينبغي أن أسمِّي الزُّنبقات أنها "مفاجئة". لا يمكن أن أستمرَّ هكذا. الحرب سريعة جدًّا على هذا الأسلوب من الكتاب. رجاءً اطلب من الساعي إدراج *mots justes* (تعبيرات ملائمة).

الحقيقة أنه لا يوجد شيء لأكتب التقرير بشأنه. ذلك العنصر العادي المبتذَل المُستعدُّ دائمًا لابتلاع كل الأشياء الجميلة (كالخنزير الأسود في الميثولوجيا الأيرلندية الذي يلتهم في نهاية المطاف النجوم والآلهة)، ذلك العنصر المبتذل، قد التهم -كما أشرتُ، على طريقة الخنزير الأسود- أيَّ فرصةٍ للرومانسية في هذه المسألة، وهي رومانسية تشكَّلَت ذات مرَّة من المعارك العبثية لكن المثيرة في الشوارع، ثم انحدَرَت إلى شيءٍ هو ابتذال الحرب ذاته... انحدَرَت إلى حالة حصار. يمكن تعريف الحصار على أنه سلامٌ مُضافٌ إليه متاعب الحرب. بالطبع لن يصمد واين طويلًا. لا توجد فرصة للمساعدة من أي مكان بخلاف سُفُن تهبط من القمر. ولو كان واين الرجعيُّ قد جهَّزَ شارعه بعلب اللحم القصديرية، ثم اضطرت حاميته بأكملها للجلوس عليه؛ فلن يستطيع الصمود لأكثر من شهر أو اثنين. وكحقيقة سوداوية، فقد أنجز حقًّا شيئًا شبيهًا بهذا. كدَّسَ الطعام في شارعه حتى لم يَعُد هناك بالكاد موضعٌ للتحرُّك. لكن ما الفائدة؟ أن تصمد طوال ذلك

الوقت ثم تستسلم بدافع الضرورة، ماذا يعني هذا؟ يعني أن تنتظر حتى تُنسى انتصاراتك، ثم تخوض متاعب الهزيمة. لا أفهم كيف لواين أن يكون مفتقدًا للإبداع هكذا.

وكم من العجيب أن يرى المرء شيئًا بشكل مختلف تمامًا عندما يدرك أنه مهزوم! طالما نظرتُ إلى واين كفنانٍ راقٍ بعض الشيء. لكن الآن، عندما أدركُ أنه أمره انتهى، يبدو أنه لم يَعُد هناك شيءٌ سوى واين. كل الشوارع تبدو أنها تشير إليه، كل المداخن تبدو وأنها تميل ناحيته. أعتقد أنه شعور كئيب: أن يبدو شارع بامب وكأنه الجزء الوحيد من لندن الذي أشعر به ماديًّا. أعتقد، أقول، إنه أمر كئيب. أعتقد أن هذا ما يشعر به الإنسان بالضبط عندما يصيب الضعف قلبه. (شارع المضخة "Pump")... القلب مضخَّة. وأنا أهذر.

إن القائد الأكثر رقيًّا على الجبهة هو، بلا شك إطلاقًا، الجنرال ويلسون. طالما اتَّخذ من بين رؤساء المقاطعات الأخرى زِيَّه الخاص لحاملي مَطارِدِه، رغم أن ذلك الرداء الأنيق القديم من القرن السادس عشر ليس مُصمَّمًا في الأصل ليتناسب مع الشوارب الجانبية الحمراء. لقد كان هو -ضد دفاع يائس ومُثير للإعجاب في آنٍ- مَن اقتحم شارع بامب الليلة الفائتة وسيطر عليه قرابة نصف ساعة. ثم طُرِدَ منه لاحقًا على يد الجنرال تيرنبول من نوتنج هيل، لكن فقط بعد قتال مستميت وبعد الهبوط المفاجئ للظلام المريع الذي أثبت أنه أكثر فتكًا من قوَّات الجنرال بَكْ والجنرال سويندون.

الرئيس واين ذاته، الذي أسعفني الحظ العظيم بإجراء مقابلة رائعة معه، قَدَّمَ لي شهادة بليغة للغاية على سلوك الجنرال ويلسون ورجاله. كانت كلماته كما يلي بالضبط: "أشتري الحلوى من متجره الصغير اللطيف منذ كنتُ في الرابعة. أبدًا لم ألاحظ شيئًا، يُخجلني القول، باستثناء أنه اعتاد التحدُّث عبر أنفه، وأنه لا يغتسل كثيرًا. ووصلَ

إلى متاريسنا كشيطان من الجحيم". أعدتُ هذا الحديث على أسماع الجنرال ويلسون نفسه، مع بعض التشذيبات الطفيفة، وبدا مبتهجًا به. لا يبتهج، رغم ذلك، بأي شيء بمقدار ابتهاجه الآن بحملِه للسيف. تصلني أخبار مؤكَّدة من الجبهة أن الجنرال ويلسون لم يُنهِ حلاقته تمامًا في الأمس. يُعتقد في الأوساط العسكرية أنه يحافظ على شاربٍ...

كما قلتُ، لا يوجد شيء للمراسلة بشأنه. أخطو مُرهَقًا إلى صندوق البريد في زاوية شارع بيمبريدج لإرسال تقريري. لا يحدث شيء أيًّا كان، باستثناء الاستعدادات لحصار واهن وطويل للغاية، لن يتوجَّب عليه أثناءه التواجد على الجبهة. فيما ألقي بنظرات خاطفةٍ عبر الظلام المتزايد، يذكِّرني منظر الطريق إلى أنه يتوجَّب إضافة ملاحظة واحدة. أن الجنرال بَكْ قد اقترح، بالفطنة التي تُميِّزه، على الجنرال ويلسون، بهدف تجنُّب إمكانية وقوع كارثةٍ كهزيمة القوات المتحالفة في التقدُّم الأخير نحو نوتنج هيل (أعني بالكارثة هنا انطفاء المصابيح) أن يرتدي كلُّ جنديٍّ مِشكاةً مُضاءة على عنقه. هذا أحد الأمور التي تعجبني في الجنرال بَكْ. ذلك أنه يتمتَّع بما اعتاد الناس أن يصفوه "تواضُع رجُل العِلم"، أي أنه يتعلَّم دائمًا من أخطائه. ربما يتفوَّق عليه واين في أمرٍ ما، لكن ليس في هذه النقطة. بَدَت المشاكي كمصابيح جنَّيات فيما ينعطفون حول نهاية طريق بيمبريدج.

لاحقًا. أكتب ببعض الصعوبة؛ لأن بعض الدماء تسيل على وجهي وتصنع أشكالًا على الورق. الدَّمُ شيء جميل جدًّا؛ ولهذا فهو مَخفيٌّ. إذا سألتَ لماذا تسيل الدماء على وجهي، فلا يسعني الرَّدُّ سوى بأن تعرَّضتُ لركلة من حصان. إذا سألتَني: أيُّ حصان، فبمقدوري الإجابة بفخرٍ ما أنه حصان حرب. إذا سألتني كيف لحصان حرب أن يظهر في حربنا الراجلة البسيطة، فأنا ملتزم بالضرورة، المؤلمة جدًّا لمراسل خاص، بأن أسرد كل تجاربي.

كنتُ، كما قلت، على وشك وضع تقريري في صندوق البريد، وألقي بنظرات خاطفة على المنعطف المتلألئ لطريق بيمبريدج، المُرصَّع بأضواء رجال ويلسون. لا أعرف ما الذي جعلني أتوقَّف لبرهة لتفحُّص المسألة، لكنني توهَّمتُ أن خط المصابيح، في الوضع الذي امتزج به مع الظُّلمة الضبابية البُنِّيَّة، كان أكثر ضبابيَّةً من المعتاد. كنتُ على يقين تقريبًا أن في بقعة مُعيَّنة من الطريق، حيث كانت توجد خمسة مصابيح، صارَ الآن لا يوجد سوى أربعة. ضيَّقتُ عينَيَّ، عددتهم مجدَّدًا، ولم يكن هناك سوى ثلاثة. بعد برهة لم يكن هناك سوى اثنين، وبعد لحظة واحد فقط، وبعد لحظة أخرى تطوَّحَت المشاكي القريبة منِّي كأجراس مُخشخشة، كما لو أنها ضُرِبَت فجأةً. توهَّجَت وسقَطَت، ولوهلة كان سقوطها كسقوط الشمس والنجوم من السماء. سقطةٌ تركت كل شيء في ظلام بدائي. في الحقيقة، لم يكن الطريق مُظلمًا بحقٍّ بعد. كان ما يزال هناك شعاع أحمر من بقايا الغروب في الشمس، والغسق البني ما يزال دافئًا، وكأنه ضوء نار. لكن لثلاث ثوانٍ بعد تمايُل المشاكي وسقوطها، رأيتُ أمامي ظلامًا يحجب السماء. وفي الثانية الرابعة أدركت أن ذلك السَّواد الذي يحجب السماء كان رجلًا على ظهر حصان هائل، ثم دُهِستُ وطُوِّحتُ جانبًا فيما دوَّامة من الخيَّالة تنعطف حول الناصية. فيما يستديرون، اكتشفتُ أنهم ليسوا باللون الأسود، بل الأحمر القرمزي، كانوا حملة هاربة استكشافية من المنطقة المُحاصَرة، يقودهم واين.

نهضتُ من سَقطتي في المِزراب، وقد أعمتني الدماء عن رؤية جرح طفيف جدًّا في الجِلد، لكنني لم أُبالِ بالعماء ولا بضآلة الجُرح؛ ذلك أنه بعد دقيقة مُهلِكَة واحدة من مرور ذلك الموكب المُدهش، كان هناك صمتٌ قاتل على الطريق الخاوي. ثمَّ ظهرَ باركر وكلُّ حاملي مَطارِده يهرعون كالشياطين في إثر الموكب. كانت مَهمَّتهم حراسةُ البوابة التي اقتحمتها الحملة الهاربة، لكنهم لم يكونوا معتمدين على

الخَيَّالة، ولا ألومهم على ذلك. إذن، انطلق باركر ورجاله بشكل بارع ومُتقَنٍ في إثرهم، وأوشكوا على الإمساك بأحصنة واين من ذيولها.

لا أحد يستطيع فهم تلك الحملة الهاربة. تتكوَّن فحسب من عدد صغير من حامية واين. تيرنبول نفسه، مع السواد الأعظم منها، ما يزال بلا شك مُتحصِّنًا في شارع بامب. الحملات الهاربة الاستكشافية من هذا النوع هي أمر طبيعي للغاية في معظم الحِصارات التاريخية، كحصار باريس في عام 1870؛ لأنه في حالات كهذه يكون المحاصَرون على يقين بوجود دعم خارجي ما. لكن ما الهدف منها في حالتنا هذه؟ يدرك واين (وإذا كان في غاية الجنون على أن يدرك شيئًا، فعلى الأقل يدرك تيرنبول) أنه لا توجد، ولم توجد قطُّ، أدنى فرصة لدعمه من الخارج، وأن السواد الأعظم من السُّكَّان العقلاء المعاصرين في لندن ينظرون إلى وطنيَّته الهزلية بنفس الازدراء الذي ينظرون به إلى الحماقة الأصلية التي أنجبتها: حماقة مليكنا البائس. ما يفعله واين وخيَّالَتُه لا يمكن لأحد تخمينه. النظرية العامة السائدة هي أنه خائن ببساطة، وأنه تخلَّى عن المحاصَرين. لكن كل تلك الأحاجي الأكبر، والقابلة أكثر للحلِّ رغم ذلك، لا تقارن بالأحجية الصغيرة لكن العصيَّة على الحلِّ: من أين جاؤوا بالأحصنة؟

لاحقًا. سمعتُ بحكاية غاية في الغرابة عن منشأ ظهور الأحصنة. يبدو أن ذلك الشخص المُدهش، الجنرال تيرنبول، الذي يحكم الآن شارع بامب في غياب واين، قد أرسلَ -في صباح إعلان الحرب- بعدد هائل من الصبيان الصغار (أو فتيان المزاريب، كما نسمِّيهم نحن الصحفيِّين)، بأنصاف كراونات في جيوبهم، ليستقلُّوا عربات الأجرة في أنحاء لندن. ما لا يقلُّ عن مائة وستين عربة تجرُّها الأحصنة اجتمعت في شارع بامب، ثم استولت عليها الحامية. أُطلق سراح السائقين، واستُخدِمَت العربات في صنع المتاريس، وأُبقيَ على الأحصنة في شارع بامب، حيث أطعموها ودرَّبوها لعدة أيام، حتى أصبحت

سريعة وماهرة بما يكفي لاستخدامها في تلك الحملة الشرسة الخارجة من المدينة. إذا كان الأمر هكذا، وقد حصلت عليه من أفضل مصدر موثوق ممكن، فإن أسلوب الحملة الهاربة يصبح مفهومًا. لكن لا تفسير لدينا للغرض منها. لكن فيما رجال باركر الزُّرْق يتمايلون حول الناصية في إثرها، تمَّ إيقافهم، ليس من قِبل عدوٍّ، لكن من قِبل صوت رجل واحد، رجل صديق وليس عدوًّا. هرعَ ويلسون الأحمر من بايزووتر على طول الشارع الرئيسي كالمجنون، مُلوِّحًا لهم بمِطرَدٍ اختطفه من أحد الحرّاس. كان في القيادة العليا، وتوقَّف حينها باركر عند الناصية، مُحدِّقًا ومذهولًا. كان بمقدورنا سماع صوت ويلسون صادحًا وجليًّا في قلب الغسق، لحدِّ أنه بدا من العجيب أن يخرج ذلك الصوت العظيم من ذلك الجسد الضئيل. "توقَّفوا، يا رجال ساوث كنسينجتون! احرسوا هذا المدخل، وامنعوهم من العودة. سأتابع أنا طريق. إلى الأمام، أيُّها الحُرّاس الخُضْر!

حائط من الأزياء الزَّرقاء الداكنة وغابة من فؤوس الحرب كانت بيني وبين ويلسون؛ ذلك أن رجال باركر قد حجبوا مدخل الطريق بصفَّيْن مُتخشِّبَين. لكن عبرهم وعبر الغسق كان بمقدوري سماع الأوامر الواضحة وقعقعة الأسلحة، ورؤية الجيش الأخضر لويلسون يزحف قُدُمًا في اتِّجاه الغرب. كانوا رجالنا المقاتلين العُظماء. كان ويلسون مَلأهم بنارِهِ ذاتها، في بضعة أيام سيصيرون مخضرمين. كل منهم يحمل نيشانًا فضِّيًّا على شكل مضخة (pump)؛ للتباهي أنهم وحدهم من بين الجيوش المتحالفة وقفوا منتصرين في شارع بامب.

نجحتُ في الانسلال مارًّا بكتيبة باركر الزرقاء، التي كانت تحرس نهاية طريق بيمبريدج، وأوصلتني نوبةٌ حادَّة من الركض إلى ذيل جيش ويلسون الأخضر فيما يتمايل عبر الطريق في أعقاب واين المتطاير. تعمَّقَ الغسق وتحوَّلَ إلى شبه ظلام كامل، لبعض الوقت لم أسمع سوى خطوات الزحف الخافقة. ثم بغتةً كانت هناك صرخة،

وتطـوَّح الرجـال المقاتلـون طـوال القامـة متراجعـين ناحيتـي، موشـكين عـلى سـحقي، ومجـدَّدًا تمايَلَـت المصابيـح وصَلصَلَـت، واندفعـت الـرؤوس البـاردة للأحصنـة الضخمـة لاعتصارنـا. كانـت قـد اسـتدارت واتَّجهَـت ناحيتنـا لمهاجمتنـا.

"يـا حمقـى!"، انطلـق صـوت ويلسـون، شـاقًّا رعبنـا بغضـب بـارد جليـل. "ألا تـرون؟ الأحصنـة بـلا فرسـان!".

كان ذلـك حقيقيًّا. كنـا ننغمـر بفعـل اندفـاع أحصنـة ذات سُرُجٍ فارغـة. مـاذا يعنـي هـذا؟ هـل صـادفَ وايـن بعـض رجالنـا وتعـرَّض للهزيمـة؟ أم أنـه طـوَّحَ بهـذه الأحصنـة علينـا كخدعـة مـا أو كأسـلوب حـربي مجنـون جديـد، كواحـد مـن تلـك الأسـاليب التـي يحـبُّ اختراعهـا؟ أم أنـه ورجالـه مضـوا أمامنـا متنكِّريـن فحسـب؟ أم أنهـم اختبـؤوا في منـازل في مـكان مـا؟

أبـدًا لم يعجبنـي تفكيـر ويلسـون (ولا حتَّـى تفكيـري) بقَـدْر مـا أعجبني في تلـك اللحظـة. بـلا كلمـة واحـدة، أشـار بالمِطَـرد (الـذي كان مـا يـزال يقبـض عليـه) إلى الجانـب الجنـوبي مـن الطريـق. كـما تعرفـون، فالشـوارع الصاعـدة إلى حافـة كامبديـن هيـل مـن الشـارع الرئيـسي متحـدِّرة عـلى نحـو عجيـب، وتشـبه مجموعـات مفاجئـة مـن درجـات السـلالم. كُنَّـا قبالـة طريـق أوبريـي بالضبـط، الأكـثر تحـدُّرًا مـن بينهـا، صاعديـن بدرجـةٍ جعلـت مـن الصعـب السـيطرة عـلى الأحصنـة نصـف المدرَّبـة، عـدا عـن الثبـات عـلى أقدامنـا.

"المُنعطـف الأيـسر"، نـادى ويلسـون بصـوتٍ عـال. "لقـد صعـدوا إلى هنـاك"، أضـاف قائـلًا إليَّ، مَـن تصـادف أننـي عنـد مِرفقِـه.

"لماذا؟"، غامرتُ بسؤاله.

"لسـتُ متأكِّـدًا"، أجابنـي چـنرال بايزووتـر. "لقـد صعـدوا إلى هنـاك بعجلـة كبـيرة عـلى أيِّ حـال. أطلقـوا سراح أحصنتهـم؛ لأنهـم لا يسـتطيعون أخذهـا معهـم إلى الأعـلى. أعتقـد أننـي أعـرف. أعتقـد أنهـم يحاولـون

المرور عبر الأخدود إلى كنسينجتون أو هامر سميث، أو مكان ما آخر، ويطلقون ضرباتهم من ذلك المكان لأنه ببساطة خارج مدى صفوفنا. الحمقى الملاعين، لم يمضوا بعيدًا على الطريق، رغم ذلك. بالكاد لامسوا موقع تمركزنا السابق. لامبرت على بعد أربعمائة ياردة على الأكثر من هنا. أرسلتُ إليه برسالة لتوِّي.

"لامبرت!"، قلتُ. "ليس ويلفريد لامبرت الشاب... صديقي القديم".

"ويلفريد لامبرت هو اسمه"، قال الجنرال، "كان في السابق (حيوان حفلات اجتماعي)، زميل أحمق بأنف كبير. هذا النوع من الرجال دائمًا ما يهرع للتطوُّع في هذه الحرب أو تلك، والطريف أنه ليس سيئًا فيها عمومًا. لامبرت بارع حقًّا. طالما نظرتُ إلى رجال ويست كنسينجتون الصُفر دائمًا على أنهم الجزء الأضعف في الجيش، لكنه نجح في توحيدهم بشكل جيد غير معتاد، رغم تبعيته لسويندون، الأبله. أظهر شجاعةً عظيمةً في الهجوم من طريق بيمبريدج في تلك الليلة".

"بل أظهرَ شجاعةً أعظم من تلك"، قلت. "انتقدَ حسَّ السخرية لديَّ. كانت تلك أولى معاركه".

لم تنل هذه الملاحظة -يؤسفني القول- تقدير قائد القوات المتحالفة الجدير بالإعجاب. كنَّا على وشك تسلُّق النصف الأخير من طريق أوبريي، الذي تحوَّل إلى منحدر مائل بغتةً حتى صار يشبه خريطة بدائية مستندة على الحائط. كانت هناك صفوف من أشجار صغيرة، صفٌّ فوق آخر، كما في الخريطة البدائية.

وصلنا إلى قمة الشارع، لاهثين بعض الشيء، وكُنَّا على وشك الانعطاف حول ناصية مكان يُدعى (بحسب الحَدس الفروسيِّ لحروبنا بالسيف والفأس) تاور كريشي، عندما سقطنا فجأةً على بطننا (لا يمكنني استخدام مصطلح آخر) بسبب حشدٍ من رجال انطرحوا علينا. كانوا يرتدون الزِّيَّ الأحمر لواين، مَطارِدهم مكسورة، جباههم

نازفة، لكن اندفاعة تراجُعِهم فحسب طوَّحَت بنا كما لو كُنَّا واقفين على الحافة الأخيرة للمنحدر.

"لامبرت العجوز الصالح!"، صاحَ بغتةً السيد ويلسون مُتبلِّد الحسِّ من بايزووتر، باستثارةٍ خارجة عن السيطرة. "لامبرت العجوز البهيج اللعين! لقد وصلَ إلى هناك بالفعل! يدفعهم إلى التراجع نحونا! هوروراه! هوروراه! إلى الأمام، أيُّها الحُرَّاس الخُضْر!".

انعطفنا متمايلين حول الناصية في اتجاه الشرق، ويلسون يهرع أولًا، ملوِّحًا بالمِطرَد...

هلَّا تسامَحتم مع قليل من الأنانية والغرور؟ كل إنسان يتوق إلى قليل من الغرور، عندما يتَّخذ هذا الغرورُ شكلَ اعتراف مُخزٍ، كما حدثَ مع غروري في هذه الحالة. المسألة مثيرة للاهتمام قليلًا حقًّا؛ لأنها تُظهِر كيف أن العادة الفنِّيَّة البحتة تتسرَّب شيئًا فشيئًا إلى الرجال من أمثالي. كانت الحرب هي الحدث الأكثر إثارةً في حياتي كلها، وكنتُ حقًّا مُستثارًا بشدَّةٍ حيالها. ومع ذلك، فيما ننعطف حول تلك الناصية، كان الانطباع الأول الذي راودني شيئًا لا علاقة له البتَّة بالقتال. ضربتني السماء بصاعقة، بارتفاع برج شركة المياه في كامبدين هيل. لا أعرف إن كان أهل لندن يدركون عمومًا كم يبدو سامقًا عندما يقف المرء، بهذه الطريقة، تحته مباشرةً تقريبًا؛ ذلك أنه لثانيةٍ واحدة بدا عند قاعدته أنه حتَّى الحروب البشرية ما هي إلَّا تفاهة. لثانية شعرتُ كما لو أنني ثمِلٌ بفعل عربدة مُبتذَلة، ثم استفقتُ بفعل صدمة ذلك الظِّلِّ الهائل. بعدها بلحظة، أدرَكتُ أن تحته كان يمضي شيءٌ أكثر صلابَةً من الحَجَر، وأكثر جنونًا من الارتفاع المدوِّخ: عذابات الإنسان. وأدركتُ كذلك -مقارنةً بها- فإن هذا البرج الكاسح ذاته كان تفاهةً، كان مجرَّدَ عصا رفيعة من الحجر بمقدور الإنسانية كسرها كعود قشٍّ.

لا أعرف لماذا أتحدَّث كثيرًا عن برج شركة المياه العتيق الأحمق هذا، الذي لم يكن في كل الأحوال سوى خلفيَّةٍ هائلة. كان حتمًا مجرَّد صفحة أرض طبيعية، مُتجهِّمة وشنيعة، عليها ترتاح أشكالنا البشرية. لكنني أعتقد أن السبب الحقيقي هو أنه في عقلي كان يقبع تحوُّلٌ حادٌّ للغاية من البرج المصنوع من الحجر إلى الإنسان المصنوع من اللحم؛ ذلك أن ما رأيته لأول وهلة، عندما هززتُ ظِلَّ البرج لطرده من خيالي، كان إنسانًا، إنسانًا أعرفه.

كان لامبرت يقف عند الناصية البعيدة من الشارع الذي ينعطف حول البرج، شكله البشري مُحدَّدٌ بدرجةٍ ما ببداية شروق القمر. بدا كبطلٍ مَهيب، لكنه بدا كشيءٍ أكثر غرابةً من ذلك. كان، في واقع الأمر، بنفس الهيئة المتمايلة بالضبط تقريبًا التي كان يقف بها قبل خمسة عشر عامًا، عندما لوَّحَ بعصا مَشْيِه وغرزها في الأرض، وأخبرني أن دهائي ما هو إلا هراءٌ مُطلَق. وأقسمُ بروحي أنه احتاج لقول ذلك إلى شجاعة أكبر من شجاعته في القتال الآن؛ لأنه حينها كان يقاتل ضد شيءٍ مُهيمنٍ، وعصريٍّ، ومنتصر، والآن يقاتل فحسب (مخاطِرًا بحياته بلا شك) ضد شيء ميِّت بالفعل، شيء مستحيل، عبثي، لا يقلُّ استحالةً وعبثًا عن تلك الحملة الهاربة ذاتها التي تورَّط فيها؛ فالبشر هذه الأيام نادرًا للغاية ما يسمحون للحِسِّ النفسي بالانتصار أن يكون عاملًا مؤثِّرًا في المسألة. أولًا كان يهاجم كوين المُنحطَّ لكن المنتصر بلا شكٍّ، ثم صار الآن يهاجم واين المُذهل لكن المُنطفئ تمامًا.

يذكِّرني اسمه بتفاصيل المشهد. كانت الحقائق كما يلي: صفٌّ من حاملي المَطارِد الحُمْر، يترأَّسهم واين، يزحفون على طول الشارع، ملتصقين بالكاد بالجدار الشمالي، الذي يُعتبر -في حقيقة الأمر- قاعَ ما يشبه خندق أو حصن لبرج المياه. كان لامبرت ورجاله الصُّفْر من ويست كنسينجتون قد انعطفوا مُدمِّرين حول الناصية وزلزلوا أركان رجال واين بشدَّة، مطوِّحين إلى الخلف بالأكثر فزعًا من بينهم، كما

وصفتُ لتوِّي، إلى أحضاننا. عندما ضربت قوَّاتنا ذيل قوَّات واين، أدرك الجميع أن أمره انتهى تمامًا. صُرعَ حلَّاقُه العسكري المفضَّل. صُعق بقَّالُه. هو نفسه جُرح في الفخذ، وتراجعَ مُترنِّحًا إلى الجدار. أوقعناه في مصيدة ذات فكَّيْن. "هل هذا أنت؟"، صاح لامبرت، بمَوَدَّةٍ، مناديًا على ويلسون، عبر الحشد المطوِّق لنوتنج هيل. "نعم"، أجابه الجنرال ويلسون، "أبقِهم تحت الجدار".

تساقط رجال نوتنج هيل بسرعة. ألقى آدم واين بذراعيه الطويلين إلى الجدار فوقه، ووثبَ واقفًا عليه، شكل بشري عملاق أمام القمر. اختطف الراية من يَدَيْ حامِلها تحته، ونفضها بغتةً فوق رؤوسنا، حتى صارت كالرعد في السماء.

"حول الأسد الأحمر!"، هتفَ. "السيوف حول الأسد الأحمر! المَطارِد حول الأسد الأحمر! إنها الأشواك حول الوردة".

تسبَّبَ صوته وقعقعة الراية في احتشادهم على الفور، واستشعرَ لامبرت -الذي اكتسبَ وجهه الأحمق جمالًا نسبيًّا بفعل المعركة- المسألة غريزيًّا، وهتفَ:

"اترك راية الحانات هذه، أيُّها الهاذر! اتركها".

"راية الأسد الأحمر نادرًا ما تنحني"، قال واين بفخر، مادًّا إيَّاها بفخامةٍ في رياح الليل.

في اللحظة التالية أدركتُ أن الاستعراض الشاعريَّ لآدم البائس قد كلَّفه الكثير. ارتقى لامبرت الجدار بقفزة واحدة، سيفه بين أسنانه، ولوَّحَ به محاولًا شَقَّ رأس واين قبل أن يجد الوقت لسحب سيفه؛ لأن يدَيْه مشغولتان بالراية الهائلة. تراجع واين خطوةً واحدة للوراء في الوقت المناسب بالكاد ليتفادى الشقَّ الأول، وترك عصا الراية تسقط، بحيث صارت نهايتها التي تشبه الرُّمح موجَّهَةً إلى لامبرت.

"الرايـة تنحنـي"، هتـف وايـن، بصـوتٍ لا بُـدَّ أنـه أجفـل الشـوارع. "رايـة نوتنـج هيـل تنحنـي لبطـل". وبهـذه الكلـمات نشـبَ طـرف الرمـح ونصـف عصـا الرايـة في جسـد لامـبرت وأسـقطه ميِّتًـا عـلى الطريـق في الأسـفل، حجـرًا عـلى أحجـار الشـارع.

"نوتنـج هيـل! نوتنـج هيـل!"، هتـف وايـن، بمـا يشـبه الغضـب الإلهـي. "رايتهـا هـي قُـدس الأقـداس لدمـاء عـدوٍّ شـجاع! اصعـدوا عـلى الجـدار يـا مُحبِّـي الوطـن! عـلى الجـدار! نوتنـج هيـل!".

بذراعـه القـويِّ الطويـل جـذبَ أحـد الرجـال بالفعـل إلى أعـلى الجـدار، ليظهـر ظلُّـه الأسـود أمـام القمـر، ومزيـدٌ ومزيـدٌ مـن الرجـال صعـدوا إلى هنـاك، سـاحبين ومسـحوبين، حتـى احتشـدت جمـوعٌ ومجموعـات مـن رجـال شـارع بامـب، بعـد أن قُتـلَ نصفهـم، عـلى الجـدار فوقنـا.

"نوتنج هيل! نوتنج هيل!"، هتف واين بلا توقُّف.

"حسـنًا، مـاذا بشـأن بايزووتـر؟"، قـال رجـل عامِـلٌ نبيـل في جيـش ويلسـون، مُهتاجًـا. "بايزووتـر للأبـد!".

"لقـد انتصرنـا!"، هتـف وايـن، ضاربًـا بعصـا رايتـه في الأرض. "بايزووتـر للأبـد! لقـد علَّمنـا أعداءنـا درس الوطنيَّـة!".

"أوه، لنُمـزِّق هـؤلاء الرجـال إلى شـظايا ونُنـهِ الأمـر!"، هتـفَ واحـد مـن مُسـاعِدي لامـبرت، الـذي تَحـوَّل إلى شيءٍ يقـع عـلى حافـة الجنـون بفعـل مسـؤولية تنفيـذ أمـره بنفسـه.

"لنُجـرِّب في كل الأحـوال"، قـال ويلسـون بتجهُّـم، والتـفَّ الجيشـان حـول الجيـش الثالـث.

ببسـاطة، لا يمكننـي وصـف مـا تـلا ذلـك. أنـا آسـف، لكـن يوجـد شيء يُسـمَّى الإرهـاق الجسـماني، والدوخـة الجسـمانية، وإذا كان لي أن أضيـف، الرعـب الجسـماني. يكفـي القـول إن الفقـرة أعـلاه كُتِبَـت في حوالي السـاعة الحاديـة عـشرة مسـاءً، والسـاعة الآن قاربـت الثانيـة صباحًـا، والمعركـة لم

تنتهِ بعد، ولا يُحتمل أن تنتهي قريبًا. يكفي القول كذلك إنه على طول الشوارع المُتحدِّرة التي تصل بين برج المياه وطريق نوتنج هيل الرئيسي، كانت الدماء تجري، وما تزال، في أفاعٍ حمراء هائلة، وتلتفُّ متجمِّعةً في الطريق الرئيسي وتلتمع في ضوء القمر.

لاحقًا. وُضِعَت اللمسة النهائية على كل هذا العبث المُريع. انقَضَت ساعات، انبلج الصُّبح، ما يزال الرجال يتمايلون ويقاتلون عند سفح البرج وحول ناصية طريق أوبريي، لم ينتهِ القتال. لكنني أعرف أنها مهزلة.

وصَلَت الأخبار لتوِّها لتكشف أن حملة واين الهاربة المُذهلة، مُطاردةً من قِبل المقاومة المذهلة طوال ليلةٍ بأكملها على جدار شركة المياه، كانت كأنْ لم تكن. ربما لن نعرف أبدًا الغرض من هذا الخروج الجماعي العجيب؛ لسبب بسيط، هو أن كل إنسان يعرفه سيُمزِّق إلى شظايا ربما خلال الساعتين أو الثلاثة التالية.

سمعتُ، منذ ثلاث دقائق تقريبًا، أن بَكْ وأساليب بَكْ قد انتصرت في نهاية المطاف. كان على صواب مطلق، بالطبع، عندما نُفكِّر في الأمر، في قناعته أنه من المستحيل مادِّيًّا على شارع أن يهزم مدينة. في حين كنَّا نعتقد أنه يجوب أمام البوابات الشرقية بجيشه الأرجواني، في حين كنَّا نندفع عبر الشوارع ونلوِّحُ بالمَطارِد والمصابيح، في حين كان ويلسون العجوز يخطِّط مثل مولتكه، ويقاتل مثل أخيل للإيقاع برئيس نوتنج هيل المجنون- نجح السيد بَكْ، تاجر الأقمشة المتقاعد -ببساطة- في الاندفاع إلى الأسفل في عربة تجرُّها الأحصنة، وفعل شيئًا بسيطًا بساطة الزُّبدة ومفيدًا وكريهًا مثلها تقريبًا: نجحَ في الوصول إلى ساوث كنسينجتون وبرومتون وفولهام، وبإنفاق نحو أربعة آلاف جنيه من ماله الخاص، جمعَ جيشًا ضخمًا يكفي -في واقع الأمر- ليس فقط لهزيمة واين، بل هزيمة واين وكل أعدائه الحاليين مجتمعين. عسكر الجيش، كما علمت، على طول هاي ستريت وكنسينجتون وملأهُ من

الكنيسة إلى جسر طريق أديسون. كان هذا حتَّى يتقدَّم عبر عشرة طُرق مختلفة من مرتفع التل إلى الشَّمال.

لا أستطيع تحمُّل البقاء هنا. كل شيء يزيد الأمر سوءًا أكثر من اللازم. الفجر، مثلًا، انبلج حول كامبدين هيل: مساحات بديعة من الفضِّيِّ، يحفُّها الذهبي، انتُزِعَت من السماء بقسوة. الأسوأ، أن واين ورجاله يشعرون بالفجر، ووجوههم -رغم أنها دامية وشاحبة- يملؤها الأمل على نحو عجيب. مَظهَر مثير للشفقة بما لا يطاق. والأسوأ من كل ذلك، أنهم ينتصرون في هذه اللحظة. لولا بَكْ والجيش الجديد كان لهم ربما، ربما فحسب، أن ينتصروا.

أكرِّر، لا يمكنني تحمُّل هذا. يشبه الأمر مشاهدة تلك المسرحية الرائعة لماتيرلنك العجوز (تعرف تحيُّزي للمؤلفين الأصحَّاء، المبتهجين، من القرن التاسع عشر)، فيها يشاهد المرء السلوك الهادئ لجماعة من الناس داخل ردهة استقبال، وإنسان آخر يقف خارج الباب ويمكن لكلمة واحدة تنطلق بينهم أن تفجِّره عبر مأساة[1]. لكن ما يحدث أمامي أسوأ؛ لأن الرجال هنا لا يتحدثون، بل يتَلوُّون وينزفون ويتساقطون أمواتًا من أجل أمرٍ تمَّت تسويته بالفعل، لكنها تسوية ضدهم. رغم ذلك تستمرُّ الحشود الرمادية الهائلة للرجال في النضال والكفاح والتمايُل هنا وهناك حول البرج الرمادي الهائل؛ والبرج يقبع ساكنًا بلا حراك، وسيظل دائمًا جامدًا. سيُسحَق هؤلاء الرجال قبل غروب الشمس، وسيظهر رجال آخرون ثم يُسحقون، وستُرتكب خطايا جديدة، وسيرتفع الاستبداد دائمًا كالشمس، وسيظلُّ الظُلم متجدِّدًا دائمًا كأزهار الربيع. وأبدًا لن ينظر البرج الحجري على كلِّ ذلك في الأسفل.

---

(1) يشير إلى الكاتب المسرحي البلجيكي موريس ماتيرلينك (1862- 1949) ومسرحيته "الدخيل"، التي يلعب "الموت" فيها شخصية رمزية عبارة عن دخيل يحاول طرق الباب مرارًا وتكرارًا حتَّى يتمكَّن من دخول البيت واقتناص أرواح ساكنيه. (المترجم)

دومًا ستنظر المادة، بجمالها الوحشي، من علٍ على هؤلاء المجانين بما يكفي لتقبُّل الموت، والأكثر جنونًا رغم ذلك؛ لأنهم تقبَّلوا الحياة".

بهذه الفقرة انتهتْ بغتةً المساهمة الأولى والأخيرة للمراسِل الخاص لكورت چورنال في تلك الدَّوريَّة القَيِّمة.

المُراسل نفسه، كما قيل سابقًا، كان سقيمًا ومُتجهِّمًا تجاه الأخبار الأخيرة بانتصار بَكْ. هبطَ بحزن وتثاقُلٍ عبر طريق أوبريي المُتحدِّر، الذي كان صعده في الليلة الفائتة هارعًا باستثارة استثنائية، وخطا خارجًا إلى الطريق الرئيسي الخاوي المضاء بنور الفجر، باحثًا، مشوَّش العقل، عن عربة أجرة. لم يرَ شيئًا في المساحة الخالية سوى شيء أزرق-ذهبي، ينطلق بسرعة عالية، بدا للوهلة الأولى كخنفساء طويلة للغاية، لكن اتَّضح أنه -لذهوله العظيم- ليس سوى باركر.

"هل سمعت بالأخبار الجديدة؟"، سأله ذلك الچنتلمان.

"نعم"، أجابه كوين، بصوتٍ موزون. "سمعتُ بالأنباء السعيدة للبهجة العظيمة. هل نستقلُّ عربة أجرة إلى كنسينجتون؟ أرى واحدة هناك".

استقلَّا العربة، وأصبحا، بعد أربع دقائق، في مواجهة صفوف الجيش الحاشد الذي لا يُقهَر. لم ينطق كوين بكلمةٍ واحدة طوال الطريق، وشيءٌ ما في وجهه منعَ باركر الحسَّاس في الأصل من التَّحدُّث هو الآخر.

كان الجيش العظيم يزحف صاعدًا شارع كنسينجتون هاي، مستدعيًا رؤوسًا كثيرة إلى النوافذ التي لا تُحصى؛ ذلك أنه منذ زمن طويل حقًّا -أطول من حيوات معظم الشباب المُحتمَلة- لم يظهر جيشٌ كهذا في لندن. وبالنظر إلى هذا التنظيم المهول الذي يبتلع الأميال الآن، ببَكْ على رأسه كقائد، والملك في ذيله كصحافي؛ فإن القصة الكاملة لمشكلتنا بسيطة للغاية. في وجود ذلك الجيش

فـإن رجـال نوتنـج هيـل الحُمْـر ورجـال بايزووتـر الخُـضْر كانـوا مثـل مجموعـات مُتسـكِّعة، متناهيـة في الصِّغَـر. في وجـوده فـإن الـصراع بأكملـه الدائـر حـول شـارع بامـب كان مثـل مسـتعمرة نمـلٍ تحـت حوافـر ثـور. كل رجـلٍ شَـعرَ أو نظـرَ إلى لا نهائيَّـة هـؤلاء الرجـال، أدركَ أنـه انتصـارُ العمليـات الحسـابية الوحشـية لبَـكْ. سـواءً كان وايـن مُصيبًـا أم مُخطئًـا، حكيـمًا أم أحمـق، فهـي مسـألة مفتوحـة للنقـاش. لكنهـا مسـألة تاريـخ كذلـك. عنـد سـفح شـارع الكنيسـة، مقابـل كنيسـة كنسـينجتون، توقَّفـا بحسِّـهما السـاخر المتوهِّـج.

"لنرسـل إليهـم برسـول أو مُنـادٍ أو شيءٍ مـن هـذا القبيـل"، قـال بَـكْ، مسـتديرًا إلى باركـر والملـك. "لنرسـل إليهـم ونطلـب منهـم الاستسـلام دون مزيـد مـن البلبلـة".

"ماذا سنقول لهم؟" قال باركر مُتشكِّكًا.

"حقائـق الوضـع كافيـة للغايـة"، أجابـه بَكْ. "إنهـا حقائق الوضـع الحالي مـا تجعـل الجيـوش تستسـلم. لِنَقُـل ببسـاطة إن جيشـنا يحـارب جيشـهم، وأن جيشـهم يحـارب جيشـنا، بمجمـوع ألـف رجُـلٍ تقريبًـا معًـا. لِنَقُـل إن لدينـا أربعـة آلاف رجـل آخـر. الأمـر بسـيطة للغايـة. مـن المُقاتلـين الألـف، لديهـم عـلى الأكـثر ثلاثمائـة، بالتـالي، بهـؤلاء الثلاثمائـة، عليهـم أن يحاربـوا أربعـة آلاف وسـبعمائة رجـل. ليفعلـوا ذلـك إن كان يُبهجهـم".

وحينها ضحك رئيس نورث كنسينجتون.

المنـادي الـذي تـمَّ إرسـاله عـبر شـارع الكنيسـة بـكل أبَّهـة أزرق وذهبيٍّ سـاوث كنسـينجتون، بالطيـور الثلاثـة عـلى ردائـه الفضفـاض، كان مصحوبًـا باثنـين مـن نافخـي الأبـواق.

"مـاذا سـيفعلون في حالـة موافقتهـم؟"، سـألَ باركـر، لمجـرَّد قـول شيءٍ مـا في وسـط السـكون المفاجـئ لذلـك الجيـش الهائـل.

"أعرف صديقي واين جيدًا"، قال بَكْ ضاحكًا. "عندما يستسلم سيرسل مناديًا أحمر متوهِّجًا بأسد نوتنج هيل. حتَّى الهزيمة تُبهجه، ما دامت احتفاليَّةً ورومانتيكيَّة".

كسرَ الملك، الذي كان خطا متهاديًا إلى مُقدِّمة الصف، صمته للمرة الأولى.

"لن أندهش"، قال، "إذا تحدَّاكَ، ولم يرسل بالمنادي في نهاية المطاف. لا أعتقد أنك تعرف صديقك واين جدًّا كما تظنُّ".

"حسنًا جلالتك"، قال بَكْ بأريحية، "إذا لم يكن في ذلك قلَّة احترام، سأضع حساباتي السياسية في صورة بسيطة للغاية. أراهنك بعشرة جنيهات مقابل شلن أن المنادي سيأتي بالاستسلام".

"حسنًا"، قال أوبيرون. "ربما أكون مخطئًا، لكن فكرتي عن آدم واين تقول إنه سيموت في مدينته، وأنها -حتَّى يموت- لن تكون مكانًا آمنًا".

"وُضعَ الرهان جلالتك"، قال بَكْ.

صمتٌ طويل آخر أعقبَ ذلك، أثناءه كان باركر وحده، وسط الجيش الساكن، يخطو ويضرب بقدمه على الأرض بطريقته القَلِقَة المُعتادة.

ثم انحنى بَكْ بغتةً إلى الأمام.

"سآخذ مالكَ، جلالتك"، قال. "كنت متيقِّنًا من الأمر. ها هو المنادي قادم من طرف آدم واين".

"ليس كذلك"، هتف الملك، ناظرًا إلى الأمام أيضًا. "أيُّها الهمجيُّ، إنها عربة أحصنة حمراء".

"ليست كذلك"، قال بَكْ بهدوء، ولم يجبه الملك؛ ذلك أنه على طول شارع الكنيسة الصامت الفسيح كان يمشي -بلا أيِّ شكٍّ- منادي الأسد الأحمر، يصحبه نافِخَا أبواق.

كان بَكْ يتمتَّع بشيءٍ داخله يجعله قادرًا على أن يكون نبيلًا ومُتسامحًا. في ساعة نجاحه شعرَ بالنُّبْل تجاه واين، الذي كان يُكنُّ له إعجابًا حقيقيًّا، وبالنُّبل تجاه الملك، الذي نجحَ في إهانته على الملأ، وفوق كل ذلك، بالنُّبل تجاه باركر، الذي كان القائدَ الشَّرفيَّ لجيش ساوث كنسينجتون المهول هذا، وهو جيشٌ أثار مواهبه الكامنة.

"چنرال باركر"، قال، مُنحنيًا، "هل تقترح الآن استقبال رسالة المُحاصَرين؟".

انحنى باركر بدوره، وتقدَّمَ نحو المنادي.

"هل استلم قائدك، السيد آدم واين، طلبنا باستسلامه؟"، سأله.

أبدى المنادي إجابة تأكيديَّةً وقورة وتبجيليَّة.

تابعَ باركر، ساعلًا بخِفَّة، لكن مُتشجِّعًا.

"أيُّ إجابةٍ أرسل بها قائدُكَ؟".

مكتبة
t.me/soramnqraa

انحنى المنادي مُجدَّدًا، وأجابَ بما يشبه الرتابة.

"رسالتي هي كالتالي: آدام واين، رئيس نوتنج هيل عالي المقام، بموجب ميثاق الملك أوبيرون وقوانين الرَّبِّ والبشرية جمعاء، الرجل الحُرُّ من المدينة الحُرَّة، يرسل بتحيَّاته إلى چيمس باركر، رئيس ساوث كنسينجتون عالي المقام، الشريف والحُرُّ بموجب نفس الحقوق، قائد جيش الجنوب. بكل التقدير الودِّي، وبكل الاعتبارات الدستورية، يرغب أن يلقي چيمس باركر سلاحه، وأن يلقي الجيش بأكمله تحت قيادته بسلاحه أيضًا".

قبل أن تنتهي الكلمات كان الملك قد هرعَ إلى المساحة المفتوحة بعينين متألِّقَتَيْن. كان بقية السارية ومقدِّمة الجيش مقطوعة الأنفاس حرفيًّا. عندما عادوا إلى رشدهم بدؤوا في الضحك بلا قيد؛ كان التحوُّل في غاية المفاجأة.

"إن رئيس نوتنج هيل عالي المقام"، تابع المنادي، "لا ينوي، في حالة استسلامكم، أن يستخدم انتصاره في أيٍّ من تلك الأغراض القمعية التي مارسها الآخرون ضدَّه. سيَترُكُ لكم قوانينكم الحُرَّة ومُدنكم الحرَّة، وأعلامكم وحكوماتكم. لن يقضي على دين ساوث كنسينجتون، أو يسحق العادات القديمة لبايزووتر".

انطلق انفجار من الضحك، خارج السيطرة، من مقدِّمة الجيش العظيم.

"لا بُدَّ أن الملك له علاقة بهذه المزحة الساخرة"، قال بَكْ، ضاربًا على فخذه. "إنها وقحة بشكل لذيذ للغاية. باركر، لنحتسِ كأسًا من النبيذ".

وفي مرحه، أرسل بالفعل بأحد الجنود إلى المطعم المواجه للكنيسة ليجلب كأسين لقرع نخبٍ.

بعد أن خفَتَت الضحكات، تابع المُنادي برتابةٍ شديدة:

"في حالة تسليمكم لأسلحتكم وتفرُّقكم تحت إشراف قوَّاتنا؛ فإن حقوقكم المحلية ستُراعى بعناية. في حالة رفضكم، فإن رئيس نوتنج هيل عالي المقام يرغب في إعلامكم بأنه قد استولى لتوِّه على برج شركة المياه، فوقكم مباشرةً، على كامبدين هيل، وأنه خلال عشر دقائق من الآن -في حالة استلام رفضكم من خلالي- سيفتح الخزان الكبير ويغرق الوادي بأكمله -حيث تقفون- بارتفاع عشرة أمتار من المياه. حفظ الله الملك أوبيرون!".

كان بَكْ قد أسقط كأسه وتسبَّبَ في طرطشة هائلة من النبيذ على الطريق.

"لكن... لكن..."، قال، وبجَهْدٍ أخير وممتاز من عقله العظيم، تطلَّعَ إلى وجه الحقائق مباشرةً.

"علينا أن نستسلم"، قال. "لا يمكنكم فِعلُ شيء حيال خمسين ألف طن من المياه تنهمر عبر تلٍّ مُنحدر، بعد عشر دقائق من الآن. لا بُدَّ أن نستسلم. الأربعة آلاف رجل في جيشنا سيصيرون أربعة رجال فقط. *Vicisti Galilæe* (لقد غلبتني أيُّها الجليلي)![1] بيركنز، اجلب كأسًا آخر من النبيذ".

بهذه الطريقة استسلم الجيش المهول لساوث كنسينجتون وبدأت امبراطورية نوتنج هيل. حقيقةٌ أخرى في هذا السياق تستحقُّ الذِّكر ربما: حقيقة أن آدم واين قد أمرَ بعد انتصاره بطلاء البرج العظيم على كامبدين هيل بالذهب، وحفرَ عليه نقشًا هائلًا يقول إن البرج نُصْبٌ تذكاريٌّ لويلفريد لامبرت، المُدافع البطل عنه، وتوَّجهُ بتمثالٍ له، كان فيه أنفه الكبير أصغرَ من الحقيقة بعض الشيء.

(1) الكلمات الأخيرة ليوليان المرتد، امبراطور الامبراطورية الرومانية (361 - 363م)، عندما كان يسير على نهر دجلة فأصيب قائلًا: "لقد غلبتني أيها الجليلي؛ فَرِثْ مع مُلك السماء مُلك الأرض أيضًا" مشيرًا إلى يسوع. (المترجم)

الكتاب الخامس

الفصل الأول

امبراطورية نوتنج هيل

في مساء الثالث من أكتوبر، بعد عشرين عامًا من انتصار نوتنج هيل العظيم، الذي منحها سلطان لندن، خطا الملك أوبيرون، عجوزًا، خارجًا من قصر كنسينجتون.

كان قد تغيَّر قليلًا؛ ذلك أنه باستثناء مسحة أو اثنتين رماديَّتيْن في شَعره، طالما كان وجهه عجوزًا، وخطواته بطيئة، بل وشائخة.

إذا كان يبدو عجوزًا؛ فذلك لم يكن بسبب أي شيء جسدي أو عقلي. بل بسبب ما يزال يرتديه، برجعيَّة عجيبة: المعطف مشقوق الذيل والقبعة العالية من زمان ما قبل الحرب العظيمة. "لقد نجوتُ من الطوفان"، كان يقول. "أنا هَرَمٌ، وعليَّ أن أتصرَّف هكذا".

بينما يمضي عبر الشارع كان أهل كنسينجتون، في معاطفهم الزرقاء البديعة، المُزخرفة، يحيُّونه كملك، ويتطلَّعون في إثره بفضول. كان غريبًا بالنسبة لهم أن الرجال قد ارتدوا يومًا زيًّا عِفريتيًّا كهذا.

انطلق الملك، مُحيِّيًا عادة المشي المنسوبة إلى السكان العجائز ("الريِّس العجوز أوبيرون": كان أصدقاؤه يحبُّون أن يدعوه الآن بكل ثقة)، مُتَّجهًا نحو الشَّمال. توقَّفَ بغتةً، بذكرى في عينيه، عند البوَّابة الجنوبية لنوتنج هيل، واحدة من تلك البوابات التِّسعة الهائلة من البرونز والصُّلب، المُزخرفة بنقوش المعارك القديمة، على يد الزعيم نفسه.

"آها!"، قال هازًّا رأسه ومُتَّخذًا هيئة شيخوخة لا داعي لها، ولكنةً ريفيَّة، "آها! أتذكَّر عندما لم يكن هنا أيٌّ منها".

دلف عبر بوَّابة أوسينجتون، التي يعلوها أسدٌ هائل، مزخرفًا بنحاس أحمر على نحاس أصفر، بشعار "ناثنج إيل" (Nothing ill). حيَّاه الحارس ذو الرداء الأحمر والذهبي بِمطرَده.

كان غروب الشمس يقترب، والمصابيح تُضاء. توقَّفَ أوبيرون ليتطلَّع إليها، كانت من أعظم أعمال الزعيم، ولم تخفق عينه ذات الحسِّ الفنِّيِّ قطُّ في الابتهاج بها. في ذكرى معركة المصابيح العظيمة، كان كل مصباح حديدي كبير يعلوه شكلٌ بشريٌّ مُلثَّمًا، بسيفٍ في يده، يضع على الشعلة قلنسوةً حديدية أو مِخمدًا، كما لو أنه مستعدٌ لإسقاطها إذا أظهرت جيوش الجنوب والغرب راياتها مرَّةً أخرى في المدينة؛ لذلك لم يكن هناك طفلٌ في نوتنج هيل يلعب في الشوارع دون أن تُذكِّره أعمدة المصابيح تلك بخلاص بلاده في العام المريع.

"واين العجوز كان مُصيبًا بشكلٍ ما"، علَّقَ الملك. "السيف يجعل الأشياء جميلة حقًّا. جعلَ العالم بأكمله رومانتيكيًّا الآن. ظنَّ الشعب

ذات مرَّة أنني مُهرِّجٌ لاقتراحي نوتنج هيل رومانتيكيَّةً. عزيزي، عزيزي! (أعتقد أن هذا هو التعبير)، يبدو الأمر كوجودٍ سابق.

مُنعطفًا حول ناصية، وجد نفسه في شارع بامب، قُبالة المتاجر الخمسة التي تفحَّصها آدم واين قبل عشرين عامًا. دلفَ بتراخٍ إلى متجر السيد مِيد، البقَّال. كان السيد ميد أكبر عُمرًا بعض الشيء، كبقيَّة العالم، ولحيته الحمراء، الطويلة والكَثَّة، التي أضاف إليها شاربًا، صارت الآن مُبيضَّةً وباهِتةً الألوان بعض الشيء. كان يرتدي زيًّا طويلًا مُزخرفًا بثراء بالأزرق والبنِّيِّ والقرمزي، منسوجًا بزخرفات شرقيَّةٍ مُعقَّدة، ومُغطًّى برموز وصور عجيبة تُمثِّل بضائع تنتقل من يدٍ إلى يد، ومن أمَّةٍ إلى أُمَّة. حول عنقه كانت سلسلة "الأسطول التجاري الأزرق" مُطعَّمةً بالفيروز، التي كان يرتديها بصفته الرئيس العظيم للبقَّالين. المتجر بأكمله كان يحمل الطابع المُترف والمُتجهِّم لمالِكه. كانت البضائع معروضة بشكل لافت للنظر كما في الأيام الخوالي، لكنها الآن مُولَّفة ومُرتَّبة في مجموعات بحسٍّ من الانسجام اللوني، وهو أمرٌ طالما تجاهله البقَّالون الكئيبون لتلك الأيام المنسيَّة. كانت البضائع معروضة بشكل بسيط، لكن ليس كما يعرض بقَّالٌ عجوز مخزونَه، بل بالأحرى كما يعرض عبقريٌّ مُتعلِّم كُنوزه. كان الشاي مُخزَّنًا في أواني زرقاء وخضراء كبيرة، منقوش عليها المقولات التسع الأساسية لحكماء الصين. أواني أخرى ببرتقالي وأرجواني متداخلَين، أقل تخشُّبًا وتسلُّطًا، وأكثر تواضعًا وغموضًا، كانت تحوي -بشكل رمزي- شايَ الهند. صفٌّ من السلال المعدنية الفضِّيَّة البسيطة تحوي الأغذية المُعبَّأة. كلٌّ منها مُزخرفة بشكلٍ ما، بدائي لكن متناغمة، كصَدَفة، أو قَرْن، أو سمكة، أو تفَّاحة، لتشير إلى أي مادة تحويها.

"جلالتك"، قال السيد مِيد، بوقار شرقيٍّ كاسح. "هذا شرفٌ لي، لكنه شرف أكبر للمدينة".

انتزع أوبيرون قبَّعته.

"سيد ميد"، قال، "إن نوتنج هيل، في عطائها وأخذها، لا يمكن أن تُتاجر في أي شيء سوى الشرف. هل يصادف أنك تبيع العِرق سوس؟".

"العِرق سوس، يا سيدي"، أجابه السيد مِيد، "ليس أقلَّ مزايانا أهمِّيَّةً من قلب الجزيرة العربية الغامض".

ومُتَّجهًا بوقار نحو علبة خضراء وفضِّيَّة، مصنوعة على شكل مسجدٍ عربي، تابعَ خدمة زبونه.

"كنت أفكِّر فحسب، سيد مِيد"، قال الملك مُتأمِّلًا، "لا أعرف لماذا أفكِّر في هذا الآن، لكنني كنت أفكِّر في عشرين عامًا خَلَت. هل تتذكَّر تلك الأيام قبل الحرب؟".

رفعَ البقال -بعد أن لفَّ عيدان العِرق سوس في ورقة (منقوش عليها عبارة شاعرية ما)- عينيه الرماديتين الكبيرتين حالمًا، وتطلَّعَ إلى السماء المُكفهرَّة في الخارج.

"أوه نعم، جلالتك"، قال. "أتذكَّر تلك الشوارع قبل أن يحكمنا السيد الرئيس. لا أتذكَّر كيف كنَّا نشعر تمامًا. كل تلك الأغاني والمعاركة العظيمة تغيِّر المرء كثيرًا، ولا أعتقد أن بمقدورنا حقًّا معرفة كل ما ندين به للرئيس، لكنني أتذكَّر قدومه إلى هذا المتجر ذاته قبل اثنين وعشرين عامًا، وأتذكَّر الأمور التي قالها. الشيء العجيب، حسبما أتذكَّر، أنني رأيتُ ما قاله غريبًا حينها. لكن الآن فالأشياء التي كنتُ أقولها، قدْرَ ما أستطيع تذكُّرها، هي ما تبدو عجيبةً لي، عجيبةً كطرائف رجل مجنون".

"آها!"، قال الملك، وتطلَّعَ إليه بهدوء لا يُسبَر غَورُه.

"لم أفكِّر قَطُّ في كوني بَقَّالًا حينها"، قال. "أليس ذلك في غاية الغرابة لأيِّ إنسان؟ لم أفكِّر في شيءٍ من كل الأماكن الرائعة التي تأتي

منها بضائعي، ولا الطُّرق الرائعة التي تُصنع بها. لم أدرك أنني كنتُ -لكل الأسباب العملية- ملكًا بعبيدٍ يطعنون بالرماح الأسماك بالقرب من البِركة المُقدَّسة، ويجمعون الفواكه في جُزرٍ من العالم السُّفلي. كان عقلي خاويًا تجاه المسألة. كنتُ في غاية الجنون".

استدار الملك بدوره، وحدَّقَ في الظلام، حيث المصابيح العظيمة التي تُحيي ذكرى المعركة وقد بدأت في التوهُّج بالفعل.

"هل هذه هي نهاية واين العجوز البائس؟"، قال، مُتحدِّثًا لنفسه تقريبًا. "تهييج الجميع بقدر ما يحترق هو في اللهيب. هل انتصار صديقي واين الذي لا مثيل له، أن يكون واحدًا في عالَم من الواينات؟ هل انتصرَ وصار إنسانًا مبتذلًا من العامَّة بفعل الانتصار؟ ألا بُدَّ للسيد مِيد، البقَّال، أن يتحدَّث بنفس سموِّه؟ يا إلهي! يا له من عالم غريب لا يمكن لرجل أن يظلَّ فريدًا فيه حتى بوقوعه فريسةً للجنون!".

ثمَّ خطا حالمًا خارجًا من المتجر.

توقَّفَ أمام المتجر التالي تمامًا كما فعل الرئيس منذ عقدين من الزمان.

"كم يبدو هذا المتجر مخيفًا على نحو استثنائي!"، قال. "لكنه مع ذلك مخيف على نحو مُشجِّع، مُغرٍ. يبدو كشيءٍ في قصة أطفال قديمة مرحبة تصيبك بالرعب بالشديد، ومع ذلك تدرك أن الأمور تنتهي بخير دائمًا. الطريقة التي تنحني بها تلك الأقواس الواطئة كأجنحة خُفَّاش أسود هائلة مطوية، والطريقة التي وضعت بها تلك الأوعية ذات الألوان العجيبة تحتها لتلتمع ككرات عين العمالقة. يبدو كوخ ساحر خَيِّر. إنه متجر الصيدلاني كما يبدو".

فورَ أن انتهى من كلامته بالكاد، تقَدَّمَ السيد باولز، الصيدلاني، إلى باب متجره مرتديًا قلنسوةً ورداءً مخمليًّا أسود طويلًا، ذا طابع

رُهبانيٌّ لكن لا يخلو من مسحة شيطانية. كان شَعرُه ما يزال تامَّ السواد، ووجهه أكثر شحوبًا من العجائز. البقعة الوحيدة من الألوان عليه كانت نجمة حمراء منحوتة من حجر ثمين ما ذي صبغة قوية، مُعلَّقةً على صدره. كان عضوًا في جمعية النجمة الحمراء الخيرية، المؤسَّسَة على المشاكي التي يحملها الأطبَّاء والكيمائيون.

"مساؤك طيِّب يا سيِّدي"، قال الصيدلاني. "عجبًا، بالكاد قد أكون مخطئًا في افتراض أنك جلالة الملك. تفضَّل بالدخول ومشاركتي زجاجة من النشادر أو أيًّا ما يروق لك؛ ذلك أنه هناك أحد المعارف القديمة لجلالتك في متجري (إذا سمحت لي القول) يقصف ويفرط في احتساء ذلك الشراب الآن".

دلف الملك إلى المتجر، الذي كان كحديقة لعلاء الدين تغصُّ بالظلال ودرجات الألوان؛ ذلك أن مُخطَّط ألوان الصيدلاني كان أكثر تألُّقًا من مُخطَّط البقَّال، بل ومُرتَّبًا بشكل أكثر رهافةً وخيالًا. أبدًا -إذا كان لنا أن نستخدم العبارة- لم يُقدَّم إكليل من الأدوية كهذا إلى عينٍ ذات حسٍّ فنِّيٍّ.

لكن حتى قوس قزح المُقدَّس لذلك المساء الداخلي يتراجع أو حتَّى يختفي تمامًا أمام الشكل البشري الواقف في منتصف المتجر. كان جسده، الضخم والفخيم، مُتَّشحًا بمخمل أزرق لامع، مُطرَّزًا على أغنى طراز من عصر النهضة، بشقوقٍ لإظهار فجوات والتماعات أصفر صاخب أو ليموني بديع. كان يرتدي سلاسل كثير حول عنقه، وريشاته، من صبغات متعدِّدة من البرونزي والذهبي، تتدلَّى على المقبض الذهبي الهائل لسيفه. كان يحتسي جرعةً من النشادر، مُبديًا إعجابه بلونه العقيقي. تقدَّم الملك بارتباك طفيف نحو الشكل البشري الطويل، الذي كان وجهه يقبع في الظِّلِّ، ثم قال:

"يا إله الحَظِّ العظيم، باركنا!".

نـزعَ الشـكل البـشري قُبَّعتـه المُريَّشـة، مُظهِـرًا نفـس الـرأس القاتـم والوجـه الطويـل، الـذي يشـبه وجـوه الأحصنـة، الـذي كثـيرًا مـا رآه الملـك في السـابق يظهـر مـن مدخـل شـارع بونـد الصاعـد. باسـتثناء لطخـة رماديـة عـلى كل صـدغ، لم يتغـيَّر الوجـه بتاتًـا.

"جلالتـك"، قـال باركـر، "هـذا لقـاء لاسـتعادة الذكريـات النبيلـة، لقـاءً يحـوي ذهبًـا أكتوبريًّـا مُعيَّنًـا. أشرب في صحـة الأيـام الخـوالي"، وأنهـى كأس النشـادر بسلاسـة ويُسرٍ.

"تسـعدني رؤيتـك مُجـدَّدًا يـا باركـر"، قـال الملـك. "انقـضى زمـنٌ طويـل حقًّـا منـذ التقينـا. مـع انشـغالي بأسـفاري في آسـيا الصغـرى، وكتـابي الـذي عـلى وشـك الانتهـاء (قـرأتَ كتاب "حيـاة الأمـير ألـبرت للأطفـال" بالطبع؟)، القتينـا مرَّتـين بالـكاد منـذ الحـرب العظيمـة، منـذ عشريـن عامًـا".

"أتساءل"، قال باركر مُتأمِّلًا، "إذا كان أن أتحدَّث بحرية إلى جلالتك؟".

"حسـنًا"، قـال أوبـيرون، "لقـد تأخَّـرَ النهـار عـلى بـدء الحديـث بوقـار. انطلـق وثرثـر، صديقـي مـن عصـور الحريـة".

"حسـنًا، جلالتـك"، أجابـه باركـر، خافضًـا صوتـه، "لا أعتقـد أن الحـرب القادمـة بعيـدةً عنَّـا".

"ماذا تعني؟"، سأله أوبيرون.

"لـن نتحمَّـل هـذه الوقاحـة بعـد الآن"، انفجـر باركـر باهتيـاج. "لسـنا عبيـدًا فقـط لأن آدم وايـن خدعنـا قبـل عشريـن عامًـا بأنبـوب ميـاه. نوتنـج هيـل هـي نوتنـج هيـل، وليسـت العالَـم. نحـن في سـاوث كنسـينجتون، لدينـا أيضًـا ذكرياتنـا... نعـم، وآمالنـا. إذا كانـوا قاتلـوا في سـبيل هـذه المتاجـر المبهرجـة السـخيفة وحفنـة مـن أعمـدة المصابيـح، فلـماذا لا نتقاتـل في سـبيل "هـاي سـتريت" العظيـم ومتحـف التاريـخ الطبيعـي المقـدَّس؟".

"يا للسماوات!"، قال أوبيرون المذهول. "هل ستتوقَّف المعجزات أبدًا؟ هل تحقَّقت العجيبتان الأكثر عَظَمة؟ هل تحوَّلتَ إلى إيثاريٍّ، وحوَّلتَ واين إلى أناني؟ هل أنت الوطني، وهو المستبدُّ؟".

"إن الشَّرَّ لا يأتي من واين نفسه بالكامل"، أجاب باركر. "إنه تائه في الأحلام الآن غالبًا، ويجلس بسيفه القديم بجوار المِدفأة. لكن نوتنج هيل هي المُستبدَّة، جلالتك. مجلسها وحشودها صاروا منتشين للغاية بنشر طُرق ورُؤى واين القديمة عبر المدينة بأكملها، لحدِّ أنهم يحاولون التدخُّل في شؤون الجميع، والتسلُّط على الجميع، وتمدين الجميع، وإخبار الجميع ما هو الصالح لهم. لا أنكر التأثير العظيم الذي أحدثته حربه القديمة، المجنونة كما يبدو، في الحياة المدنية لعصرنا. حدثَ ذلك عندما كنتُ ما أزال شابًّا، وأعترف أن حياتي ازدادت اتِّساعًا نتيجة ذلك. لكننا لكن نسمح بالسخرية من مُدننا وتجميدها من يومٍ لآخر بسبب شيءٍ فعله واين من أجلنا قبل قرابة ربع قرن. أقبع هنا مُنتظرًا الأخبار حول مسألة بعينها. يُشاع أن نوتنج هيل اعترضت على تمثال الجنرال ويلسون الذي كانوا يضعونه قُبالة قصر تشيبستو. إذا كان هذا حقيقيًّا، فهو خَرْقٌ مُخزٍ مُتطرِّف للشروط التي استسلمنا بموجبها لتيرنبول بعد معركة البرج. كان يُفترض أن نحتفظ بعاداتِنا وحُكمنا الذاتي. إذا كان الأمر هكذا...".

"إنه هكذا"، قال صوتٌ عميق، ثم استدارَ الرجلان.

عند المدخل كان يقف شكلٌ بشري متين البنية، بأرديةٍ أرجوانية، ونَسرٍ فضِّيٍّ يتدلَّى حول عنقه وشاربٍ مُبهرجٍ كريشاته تقريبًا.

"نعم"، قال، مؤكِّدًا إجفال الملك، "أنا الرئيس بَكْ، والأخبار صحيحة. هؤلاء الرجال من نوتنج هيل قد نسوا أننا قاتلنا حول البرج تمامًا كما قاتلوا، وأنه من الحماقة أحيانًا، والوضاعة كذلك، أن تزدري المهزوم".

"لِنَخْطُ إلى الخارج"، قال باركر، بوقارٍ مُتجهِّم.

خطا بَكْ للخارج، وأدارَ عينيه جيئةً وذهابًا عبر الشارع المضاء بالمصابيح.

"أودُّ لو أُجرِّب تحطيم كل هذا"، غمغم، "رغم أنني تجاوزتُ السِّتِّين. أودُّ لو...".

توقَّفَ صوته بصرخةٍ، وتراجع خطوَةً، بيديه على عينيه، تمامًا كما فعل في هذه الشوارع قبل عشرين عامًا.

"الظلام!"، هتفَ، "الظلام مُجدَّدًا! ماذا يعني هذا؟".

ذلك أن كل مصباح في الشارع كان انطفأ في الواقع، ولم يَعُد باستطاعتهم رؤية أجساد بعضهم البعض سوى بضبابية. جاءهم صوتُ الصيدلاني بابتهاجٍ مخيف من قلب الحشد.

"أوه، ألا تعرف؟"، قال لهم. "ألم يخبروكم قطُّ أن هذا هو احتفال المصابيح، الذكرى السنوية للمعركة العظيمة التي كدنا أن نفقد نوتنج هيل فيها قبل إنقاذها في النهاية؟ ألا تعرف -جلالتك أنه في هذه الليلة قبل عشرين عامًا رأينا رجال ويلسون ذوي الأزياء الخضراء يندفعون مُنطلقين عبر الشارع، ليتراجع أمامهم ويلسون وتيرنبول عائدَين إلى شركة الغاز، مُتقاتلين بقبضاتهم كشياطين من الجحيم؟ وأنه حينها، في تلك الساعة العظيمة، وثبَ واين عبر نافذة في شركة الغاز، وبضربةٍ واحدة من يده أحال المدينة بأكملها إلى ظلام، ثمَّ بصرخة كزئير الأسد، سُمِعَت على بُعد أربعة شوارع، انقضَّ على رجال ويلسون، بسيفه في يده، وحصدهم حصدًا، وسط ذهولهم وجهلهم بالخريطة، وطهَّرَ الشارع المُقدَّس مُجدَّدًا؟ وألا أتعرف أنه في تلك الليلة كل عام تُطفأ جميع المصابيح لنصف ساعة فيما ننشِدُ نشيدَ نوتنج هيل في الظلام؟ اسمعوا! ها هو يبدأ".

عبرَ الليل جاءهم دويٌّ طبول، ثم تصاعُدٌ قويٌّ لأصوات بشرية:

"عندما كان العالم متوازنًا، كان هناك ليلٌ في نوتنج هيل، (كان هناك ليلٌ في نوتنج هيل): كان أكثر نُبلًا من النهار، إلى المدن التي تنيرها المصابيح وتتوهَّج فيها المدافئ، ومن البحار ومن الصحاري جاء الشيء الذي لا نعرفه، جاء الظلام، جاء الظلام، جاء الظلام وحلَّ على العدوِّ، واستدارَ حرس الرَّبِّ القدامى لمواجهة أعدائهم؛ ذلك أن حرس الرَّبِّ القُدامى استداروا لمواجهة أعدائهم، لمواجهة أعدائهم، وتساقَطَت النجوم قبل أن تسقط راياتهم؛ ذلك أنه عندما أحاطت بنا الجيوش نابحةً ومُحتشدةً، وعندما سقطت القلعة وانكسرَ السيف، حلَّ الظلام علينا كتنِّين الرَّبِّ، عندما استدار حرس الرَّبِّ القُدامى لمواجهة أعدائهم".

كانت الأصوات على وشك التصاعد في مقطوعة ثانية عندما توقَّفَت بفعل اضطرابٍ وصرخة. كان باركر قد انطلق بصيحة "ساوث كنسينجتون!" وخنجر مسحوب. في وقتٍ أقلَّ من طرفة عين، صارَ الشارع المُزدحم بأكمله ممتلئًا بسباب وتعارُكٍ. تطوَّحَ باركر متراجعًا إلى المتجر، وفي ثانية واحدة سحب سيفه وخنجره، وصاحَ، "هذه ليست المرة الأولى التي أقتحم فيها صفوفكم"، واندفع مُقتحمًا الحشد. كان من الواضح أنه سفك بعض الدماء أخيرًا؛ ذلك أن جعجعةً أكثر عنفًا انطلقت، وصارت سكاكين وسيوف أخرى كثيرة بادية في الضوء الخافت. بدا باركر، بعد أن جرحَ أكثر من رجل، على وشك التراجُع للخلف مُجدَّدًا، عندما خطا بَكْ بغتةً خارجًا إلى الشارع. لم يكن يحمل أيَّ سلاح؛ ذلك أنه كان يحمل الأبَّهة المُسالمة للمواطن العظيم، وليس التكلُّف الشرس القتالي الذي كان قد حلَّ محل التكلُّف الوقور القديم في باركر. رغم ذلك، بضربةٍ من قبضته المضمومة كسر لوح المتجر التالي، متجر التحف القديمة، وبعد أن أغمدَ يده، انتشلَ شيئًا

كالسيف الياباني، وهتف عاليًا، "كنسينجتون! كنسينجتون!"، هارعًا إلى نجدة باركر.

انكسر سيف باركر، لكنه كان يطيح فيمن حوله بخنجره. وفور أن هرعَ بَكْ إليه، أسقط رجلٌ من نوتنج هيل باركر على الأرض، لكن بَكْ وجَّهَ ضربةً إلى الرجل فوقه، ووثبَ باركر ناهضًا مجدَّدًا، والدماء تسيل من وجهه.

بغتةً، انشقَّت كل هذه الصيحات بفعل صوتٍ رهيب، بدا أنه سقط من السماء. كان مريعًا بالنسبة لبَكْ وباركر والملك، لأنه نزلَ كما يبدو من السماوات الخاوية، لكنه كان أكثر ترويعًا لأنه كان صوتًا مألوفًا، وفي نفس الوقت صوتًا لم يسمعوه منذ زمن طويل جدًّا.

"أضيئوا المصابيح"، قال الصوت من فوقهم، وللحظة لم يكن هناك أيُّ ردٍّ، بل هياج فحسب.

"باسم نوتنج هيل والمجلس العظيم للمدينة، أضيئوا المصابيح".

ثمَّ كان لغطٌ وضبابية للحظة مُجدَّدًا، ثم انبثق الشارع بأكمله وكل جسم داخله بغتةً خارجًا من الظلام، فيما كل مصباح ينبعث إلى الحياة. ومُتطلِّعين لأعلى رأوا، واقفًا على شرفةٍ بالقرب من سقف واحد من المنازل العالية، وجه آدم واين وشكله البشري، شعره الأحمر يتطاير وراءه، محزَّزًا بالرمادي قليلًا.

"ما هذا يا شعبي؟" قال. "هل يستحيل تمامًا أن تنجزوا شيئًا صالحًا دون الإصرار في نفس الوقت على أن تكونوا أشرارًا؟ إن مجد نوتنج هيل، عبر تحقيق استقلالها، يكفي لي حُلمًا لسنين طويلة، فيما أجلس بجوار النار. ألا يكفيكم ذلك حقًّا، أنتم مَن لديكم شؤون أخرى كثيرة لاستثارتكم وتسليتكم؟ نوتنج هيل هي أمَّةٌ فحسب. لماذا قد تتنازل وتصبح مجرَّد امبراطورية؟ تريدون إسقاط تمثال الچنرال ويلسون، الذي كان رجال بايزووتر على حقٍّ تمامًا في تشييده

في ويستبورت غروف. حمقى! مَن شيَّدَ ذلك التمثال؟ هل شيَّدته بايزووتر؟ لا. نوتنج هيل هي مَن شيَّدته. ألا ترون أنه إنجاز مجيد أننا أصبنا المُدن الأخرى بعدوى مثاليَّةِ نوتنج هيل؟ إننا نحن مَن خلقنا، ليس جانبنا فحسب، بل كلا الجانبين في هذه الجدلية. أيُّها الحمقى الوضيعون للغاية، لماذا ترغبون في تدمير أعدائكم؟ لقد فعلتم أكثر من ذلك لهم. لقد خلقتم أعداءكم. ترغبون في هدم تلك المطرقة الفضِّيَّة الهائلة، التي تنتصب كمسلَّةٍ، في قلب برودواي أوف هامرسميث (المطرقة). حمقى! قبل أن تنهض نوتنج هيل، هل توقَّعَ أيُّ شخص يعبر هامرسميث برودواي أن يرى مطرقةً فضِّيَّةً هائلة؟ تتمنَّون محو الشكل البشري البرونزيِّ الهائل لفارسٍ يقف على جسر نايتبريدج. حمقى! مَن فكَّرَ في ذلك قبل أن تنهض نوتنج هيل؟ بل إنني سمعتُ، بألمٍ عظيم سمعتُ، أن العين الشيطانية لحسدنا الامبراطوري قد اتَّجهَتْ نحو الأفق البعيد للغرب، وأننا اعترضنا على النُّصب التذكاري الأسود العظيم لغرابٍ يعلوه تاج؛ إحياءً لذكرى مناوشات راڤينسكورت بارك (ساحة الغربان). من خلقَ هذه الأشياء؟ هل كانت موجودة قبل مجيئنا؟ ألا يمكنكم أن تقنعوا بالقَدَرِ الذي كان كافيًا لأثينا، الذي كان كافيًا للناصرة، بالقَدَر، بالغاية المتواضعة، لخلق عالم جديد. هل كانت أثينا غاضبة لأن الرومان وأهل فلورنسا استخدموا مصطلحاتهم الخاصة للتعبير عن وطنيَّتهم؟ هل كانت الناصرة غاضبةً لأن قرية صغيرة كانت المعيارَ لكل القرى الصغيرة التي لا يمكن -كما يقول المختالون- أن يخرج منها أيُّ خير؟ هل طلبت أثينا من كل إنسان أن يرتدي عباءة الكلاميد اليونانية؟ هل يضطر كلُّ أتباع الناصرة إلى ارتداء العمامات الآن؟ لا! لكن روح أثينا انطلقت قُدمًا وجعلت البشر يحتسون شراب الشُّوكران، وانطلقت روح الناصرة قُدمًا وجعَلَت البشر يقنعون بالصَّلْب. وبالمثل انطلَقَت روح نوتنج هيل قُدمًا وجعلت البشر يدركون ما تعنيه الحياة في مدينة. تمامًا

كما دشَّنَّا رموزنا واحتفالاتنا، دشَّنوا هم رموزهم واحتفالاتهم؛ فهل أنتم في غاية الجنون لتنازعوهم في ذلك؟ إن نوتنج هيل على حقٍّ؛ طالما كانت على الحقِّ. صاغت نفسها بحسب احتياجاتها التي لا مفرَّ منها، تقبَّلَت مصيرها النهائي الخاص؛ لأنها أُمَّةٌ، فقد خلَقَت نفسها، ولأنها أمَّةٌ، بمقدورها تدمير نفسها. دومًا ستظل نوتنج هيل هي الحَكَم. إذا كنتم -بسبب مسألة تمثال الچنرال ويلسون هذه- تنون شنَّ الحرب على بايزووتر...".

انطلق هديرٌ من الهتافات بفعل كلماته، وبعدها كان التحدُّث مستحيلًا. شاحب الشفتين، حاولَ الوطنيُّ العظيم مرَّةً تلو أخرى أن يتحدَّث، لكن حتى سُلطَته لم تستطع قمع الحشود الصاخبة والقاتمة في الشارع من تحته. لم يَقُل شيئًا آخر؛ لأنه لن يكون مسموعًا. هبطَ أخيرًا بحزنٍ من العِلِّيَّة التي يعيش فيها، واختلطَ بالزحام عند سفح المنزل. بعد أن وجدَ الچنرال تيرنبول، وضعَ يده على كتفه بوقار وانفعال عجيب وقال:

"غدًا، صديقي العجوز، سنجتاز تجربة جديدةً، نَدِيَّةً كزهور الربيع. سنعرف طعم الهزيمة. مررنا أنت وأنا بثلاث معارك معًا، وفاتتنا، بشكلٍ أو بآخر، هذه البهجة الغريبة. من المؤسف أننا لن نستطيع ربما تبادُل تجاربنا؛ لأننا -كما يحدث غالبًا بشكل مزعج- سنكون أمواتًا كلانا ربما".

بدا تيرنبول مندهشًا على نحو باهت.

"لا أمانع كثيرًا أن أكون ميِّتًا"، قال، "لكن لماذا تقول إننا سنُهزَم؟".

"الإجابة بسيطة جدًّا"، أجابه واين بهدوء. "لأنه ينبغي أن نُهزَم. طالما مررنا بأبشع المآزق قبل الآن، لكن فيها جميعًا كنتُ على يقين أن النجوم في صفِّنا، وأننا سنخرج منها سالمين حتمًا. لكنني الآن أدرك

أنـه لا ينبغـي لنـا أن ننجـو؛ انتـزعَ هـذا منِّـي كلَّ شيء يمكننـي الانتصـار بـه".

جفـلَ وايـن قليـلًا فيـما يتحـدَّث؛ ذلـك أن كلا الرَّجُلَـين أدركا أن شـكلًا بشريًّـا ثالثًـا كان يُنصـت إليهـما... شـكل ضئيـل بعينـين متسـائلتين.

"هل تظنُّ حقًّا، عزيزي واين"، قال الملك، "أنك ستُهزم غدًا؟".

"لا يمكـن أن يوجـد شـكٌّ حيـال ذلك أيًّـا كان"، أجابـه آدم واين، "السـبب الحقيقـي لذلـك تحدَّثـتُ عنـه لتَـوِّي. لكـن كانصيـاع لمذهـب المادِّيَّـة، سـأضيف أن لديهـم جيشًـا مُنظَّـمًا يتكـوَّن مـن مائـة مدينـة متحالِفَـة ضـد مدينتـنا الوحيـدة. هـذا في حـدِّ ذاتـه، رغـم ذلـك، ليـس ذا أهميـة".

بدا كوين، بعينيه المستديرتين، مُصمِّمًا على نحو عجيب.

"أنت متأكِّد تمامًا"، قال، "أنكَ حتمًا ستُهزم؟".

"أخشى"، قال تيرنبول بتجهُّم، "أنه لا يوجد شكٌّ حيال ذلك".

"إذن"، قـال الملـك، ملوِّحًـا بذراعيـه، "امنحـوني مِطـرَدًا! ليمنحني أحدكم مِطَـردًا! أودُّ أن يشـهد الجميـع أننـي، أوبـيرون، ملـك انجلـترا، أتنـازل هنـا والآن، وأتوسَّـل لرئيـس نوتنـج هيـل أن يسـمح لي بالانضـمام إلى صفـوف جيشـه. امنحـوني مِطـرَدًا!".

انتـزع واحـدًا مـن أحـد الحُـرَّاس العابريـن، وواضعًـا إيَّـاه عـلى كتفـه، خطـا بقـوَّةٍ ووقـار في إثـرِ الصفـوف الهاتفـة لحاملـي المَطـارِد التـي كانـت، في تلـك اللحظـة، تجـوب الشـوارع في أرتـال. لم يكـن تدخُّـلَ -رغـم ذلـك- بـأيِّ شـكل في مسـألة تحطيـم تمثـال الچـنرال ويلسـون، الـذي حـدث قبـل الصبـاح.

الفصل الثاني

المعركة الأخيرة

كان النهار غائمًا عندما هبطَ واين ليموت مع جيشه بالكامل إلى حدائق كنسينجتون، كان غائمًا مجدَّدًا عندما ابْتُلِعَ ذلك الجيش من قِبَل الجيوش الهائلة لعالَمٍ جديد. أشرقت الشمس بشكل متقطِّع على فترات، أثناءها كان رئيس نوتنج هيل، بكل هدوء الناظر المتأمِّل، يحدِّق عبر الجيوش المعادية في المساحات الشاسعة من الخضرة على الناحية المقابلة: الحقول الطويلة من الأخضر والأزرق والذهبي التي تمتدُّ عبر الحديقة في مُربَّعات ومستطيلات كفرضية لإقليدس قد نُسِجَت بزخرفة غاية في الثراء. لكن نور الشمس كان باهتًا بل ومُبتلًّا، وسريعًا ما اختفى وابْتُلِعَ تمامًا. تحدَّثَ واين إلى الملك، بنغمةٍ غريبة هي مزيجٌ من البرود والتراخي، بشأن العمليات العسكرية. كان الأمر -كما قال الليلة الفائتة- أن حرمانه من شعور الشرف الوهمي، جعله -في الواقع- محرومًا من كل شيء. كان باليًا عفى عليه الزمن، وواقعًا

في خِضَمِّ بحرٍ من المخاطرة والمنافسة، بحرٍ من امبراطوريات تحارب امبراطوريات، ومن صوابات محتملة وأخطاءٍ محتملة. عندما سقطت عيناه على الملك، رغم ذلك، الذي كان يخطو بوقار شديد بقبَّعة عالية ومَطرِدٍ، سطَعَت الشمس بخفوتٍ.

"حسنًا، جلالتك"، قال، "ينبغي لك على الأقل أن تكون فخورًا اليوم. إذا كان أطفالك يقاتلون بعضهم البعض، فعلى الأقل مَن يَفُز يظلُّوا أطفالك. الملوك الآخرون يفرِّقون العدالة، فيما أنت تُفرِّق الحياة. الملوك الآخرون يحكمون أممًا، فيما أنت تخلق الأمم. صنع الآخرون الممالك، وأنجبتَها أنتَ. انظر إلى أطفالك يا أبي!"، ثم مدَّ يده نحو العدو.

لم يرفع أوبيرون عينيه.

"انظر كيف ببهاءٍ"، هتف واين، "تظهر المدن الجديدة... المدن الجديدة من الناحية الأخرى للنهر. انظر حيث تتقدَّم باترسي إلى هناك... تحت راية الكلب المفقود، وبوتني... ألا ترى "الرجل على الدُّبِّ الأبيض" يتألَّق على رايتهم عندما تسقط عليها الشمس؟ إنه عصر جديد قادم، جلالتك. نوتنج هيل ليست امبراطورية عادية، إنها مثل أثينا بالأحرى: أمٌّ لطريقة الحياة، لأسلوب العيش، الذي سيجدِّد شباب العالم... شيء يشبه الناصرة. أتذكَّر في شبابي، في الأيام الخوالي الكابية، المختالين يكتبون الكتب حول كيف يمكن للقطارات أن تمضي أسرع، وأن العالم بأكمله سيصير امبراطورية واحدة، وأن عربات الترام ستصل إلى القمر. وحتَّى كطفل اعتدتُ أن أقول لنفسي، (بل الاحتمال الأكبر أننا سننطلق في الحروب الصليبية من جديد، أو أننا سنعبد آلهة المدينة). وقد كان! ومبتهجٌ أنا، رغم أن هذه هي معركتي الأخيرة".

حتَّى بينما يتحدَّث جاءهم صوتُ تقارُعٍ حديدي من اليسار فأدار رأسه إليه.

"ويلسون!" هتفَ، بما يشبه البهجة. "ويلسون الأحمر قد هجمَ من يسارنا. لا أحد يستطيع كبح لجامه؛ إنه يأكل السيوف. إنه جنديٌّ شرس كتيرنبول، لكنه أقل صبرًا... أقل عظمةً في الحقيقة. ها هو باركر يتحرّك. كم تحسَّنَ باركر، كم يبدو وسيمًا! ليس السرُّ في الريشات فحسب، بكل في روح الحياة اليوميَّة للمرء. ها!".

ثمَّ جاءتهم قعقعةٌ حديدية أخرى من ناحية اليمين، أظهَرَت أن باركر قد أطبق على نوتنج هيل من الجانب الآخر.

"تيرنبول هناك!"، هتف وايِن. "انظر إليه يُطبق عليهم! باركر محاصر! تيرنبول يهجم، يفوز! لكن يسارنا قد انكسر. حطَّمَ ويلسون باولز ومِيد، وربما يلتفُّ حول جناحنا. إلى الأمام، يا حرَّاس الرئيس!".

وحينها تحَرَّكَ المنتصف بأكمله إلى الأمام، ووجهُ وايِن وشَعرُه وسيفه يتوهَّجون في الطليعة.

هرعَ الملك إلى الأمام بغتةً.

في اللحظة التالية كشَفَت رجَّةٌ هائلة أنهم قابلوا العَدُوَّ. ومن فوقه تمامًا عبر غابة أسلحتهم رأى أوبيرون النسر الأرجواني لبَكْ من نورث كنسينجتون.

على اليسار كان ويلسون الأحمر ينطلق عاصفًا عبر الصفوف المتكسِّرة، شكله البشري الأخضر الضئيلة بادٍ حتَّى في تشابُك الرجال والأسلحة، بشاربه الأحمر وإكليله من الغار. ضرب باولز رأسه بالسيف ومزَّقَ جزءًا من الإكليل، تاركًا ما تبقَّى داميًا، وبزمجرة كزمجرة الثور اندفع ويلسون إليه، وبعد صلصلة مبارزة بالسيف، غرس حدَّ سيفه في الصيدلاني، الذي سقط هاتفًا "نوتنج هيل!". وحينها ترنَّحَ رجال نوتنج هيل، واكتسحتهم بايزووتر في خضَمِّ الفوضى. كان ويلسون قد جرفَ كل شيء أمامه.

على اليمين، رغم ذلك، كان تيرنبول قد انطلقَ مندفعًا نحو رجال باركر حاملًا راية الأسد الأحمر، فيما حُمِلَت راية الطيور الذهبية بصعوبة في مواجهتها. تساقط رجال باركر سريعًا. في المركز كان واين وبَكْ يشتبكان، بعنادٍ وارتباك. مع استمرار القتال بينهما، كان الأمر متكافئًا تمامًا. لكن اقتتالهم كان مسرحيةً هزلية؛ ذلك أنه وراء الجيوش الثلاثة الصغيرة التي يشتبك معها واين الضئيل كان يستلقي البحر الهائل للجيوش المتحالفة، التي لم تَبْدُ رغم ذلك سوى كمشاهدين هازئين، وكأن بمقدورها التفريق بين الجيوش الأربعة بحركة إصبع.

بغتةً تحرَّكوا. بعض من ألوية المقدِّمة، شيوخ الرعاة من شيبرد بوش، برماحهم وصوفهم، شوهدوا يتقدَّمون، وكذلك القبائل البدائية من بادينجتون جرين. كانوا يتقدَّمون لسبب وجيه جدًّا، كان بَكْ، من نورث كنسينجتون، يرسل بإشارات مهتاجة؛ كان محاصرًا، ومفصولًا عن بقية جيشه تمامًا. كانت كتائبه تصارع حشدًا من الناس، معزولًا في بحر أحمر من رجال نوتنج هيل.

كان الحُلَفاء في غاية الاستهتار والثقة بالنفس؛ ذلك أنهم سمحوا بتحطيم قوَّة باركر إلى شظايا على يد تيرنبول، وفي اللحظة التي تمَّ فيها ذلك، اندفع قائد نوتنج هيل العجوز الأريب برجاله وهاجمَ بَكْ من المؤخِّرة ومن الجانبين. في اللحظة نفسها هتفَ واين، "هجوم!" وضربه من الأمام كصاعقة.

تشرذمَ ثُلُثَا رجال بَكْ إلى شظايا قبل أن يتمكَّن حلفاؤهم من الوصول إليهم. ثم ظهرَ بحر المُدن براياتها كالقواطع وابتلعَ نوتنج هيل للأبد. لم تنته المعركة؛ ذلك أن أحدًا من رجال واين لم يُسلِّم، واستمرَّت المعركة حتى الغروب، وطويلًا بعد ذلك. لكن الأمر قد حُسِم؛ انتهت حكاية نوتنج هيل.

عندما رأى تيرنبول ذلك، توقَّفَ لوهلة عن القتال وتطلَّع من حوله. ضربَ ضوء شمس المساء وجهه، بدا كوجه طفل.

"لقد عشتُ شبابي"، قال. ثم مختطفًا فأسًا من أحد الرجال، اندفع إلى معمعة رماح "شيبرد بوش"، ومماتَ في موضعٍ ما بعيد في أعماق صفوفه المتراجعة. استمرَّت المعركة في زمجرتها، ذُبِحَ كلُّ رَجُلٍ من نوتنج هيل قبل حلول الليل.

كان واين يقف بجوار شجرةٍ وحيدًا بعد المعركة. اقتربَ منه بضعة رجال بفؤوس. ضربه أحدهم. بَدَت قَدَمُه وكأنها انشقَّت جزئيًا، ولوَّحَ بيده، واستند على الشجرة.

اندفع باركر في إثره، بسيفٍ في يده، مرتعشًا من الاستثارة.

"كم هي كبيرة الآن، سيدي"، هتفَ، "امبراطورية نوتنج هيل؟".

ابتسم واين في الظلام المُحتشد.

"كبيرة دائمًا كهذا"، قال، ولوَّحَ بسيفه فيما يشبه دائرة من الفضَّة.

سقطَ باركر، مُجروحًا في عنقه، ووثب ويلسون من فوق جسده كنَمِرة، مندفعًا إلى واين. في نفس اللحظة جاءتهم من وراء سيِّد الأسد الأحمر صيحةٌ ووهجٌ أصفر، وحشدٌ من حاملي مَطارِد ويست كنسينجتون حارثين المنحدر صعودًا، غارقين في العشب حتى رُكَبِهم، حاملين الراية الصفراء لمدينتهم أمامهم، وصائحين عاليًا.

في نفس الثانية سقطَ ويلسون تحت سيف واين، مسحوقًا وكأنه ذبابة. ارتفع السيف العظيم مجدَّدًا كطائر، لكن ويلسون بدا وكأنه يرتفع معه، بعد أن انكسر سيفه، لينقضَّ على حلق واين ككلب. كان قائد حاملي المَطارِد الصُّفْر قد وصلَ إلى الشجرة ولوَّحَ بفأسه فوق واين المتصارع. بسبابٍ دوَّمَ الملك بمِطرَده، وغرز الشَّفرة في وجه الرجل. تراجعَ وتدحرج على المنحدر، في نفس الوقت الذي تراجع فيه

ويلسون متطوِّعًا مجددًا. ومجددًا نهض على قدميه، ومجددًا اندفع إلى حلق واين. سقط مجددًا، لكنه كان هذه المرة يضحك بانتصار. في يده كان يقبض على الشارة الحمراء والصفراء التي كان واين يرتديها بصفته رئيس نوتنج هيل. انتزعها من موضعها الذي حُمِلَت فيه لخمسة وعشرين عامًا.

بصيحةٍ ضيَّقَ رجال ويست كنسينجتون على واين، ورايتهم الصفراء الهائلة ترفرف فوق رأسه.

"أين شارتك الآن يا رئيس؟" هتف قائد ويست كنسينجتون.

ثم انطلَقَت ضحكةٌ.

انقضَّ واين على حامل الراية ودفعه ساقطًا للأمام. ومع تمايُل الراية، قبضَ على الثنيَّات الصفراء ومزَّقَ منها جذاذةً. ضربهَ واحدٌ من حاملي المَطارِد على كتفه، جارحًا إيَّاه بشكل دامي.

"هذا لون!"، هتف، حاشرًا الأصفر في حزامه، "وهذا!"، هتفَ، مشيرًا إلى دَمِه الأحمر، "لونٌ آخر".

في نفس اللحظة كانت ضربة مِطرَد ثقيل ومباغت قد تركت الملك مصعوقًا أو ميِّتًا. في الرؤى الفائرة للوعي المتلاشي، رأى مجدَّدًا شيئًا ما ينتمي لزمنٍ مَنسيٍّ تمامًا، شيئًا رآه قبل زمنٍ طويل في مطعم. رأى، بعينيه الدائختين، الأحمر والأصفر، لونَيْ نيكاراجوا.

لم يرَ كوين النهاية. انقضَّ ويلسون، مهتاجًا بالبهجة، مجددًا على آدم واين، ودوَّمَ السيف العظيم لنوتنج هيل عاليًا مرَّةً أخرى. ثمَّ انحنى الرجال لا إراديًّا على وقع صوت اندفاع السيف هابطًا من السماء، وويلسون من بايزووتر يُسحق ويُباد على الأرض كذبابة. لم يتبقَّ منه سوى حطام، لكن الشَّفرة التي سحقته سُحِقَت هي أيضًا. في موته كان قد اختطف السيف العظيم وتعويذته، كان سيف واين

مكسورًا عند المقبض. اندفاعة واحدة من العدوِّ أطاحت بواين على الشجرة. كانوا قريبين للغاية على أن يستخدموا المطَارِد أو حتَّى السيوف، كانوا متواجهين صدرًا لصدر، ومنخرًا بمنخر. لكن بَكْ نجح في تحرير خنجره.

"اقتلوه!"، هتف، بصوتٍ مخنوق عجيب. "اقتلوه! صالحًا كان أم طالحًا، إنه ليس واحدًا منَّا! لا تنخدعوا بالوجه!... يا إلهي! ألم نكن عميانًا طوال الوقت!"، ثم سحب ذراعه لتوجيه طعنة، وبدا أنه أغلق عينيه.

لم يُسقط واين يده المُتشبِّثة على فرع الشجرة. لكن ضربة كاسحة انقضَّتْ على صدره وجسده الضخم بأكمله، كزلزالٍ على تلال عظيمة. وبتلك الاختلاجة انتزعَ الفرع من الشجرة، مع ألسنة الخشب المُمزَّق؛ ومُلوِّحًا به مرَّة واحدة فقط، تركَ المقرعة المُتشظِّية تسقط على بَكْ، كاسرةً عنقه. سقطَ مُخطِّط الطُّرُق العظيمة على وجهه ميِّتًا، بخنجره ذي مقبض الصُّلب.

"من أجلك وأجلي، ومن أجل كل الرجال الشجعان، يا أخي"، قال واين، بإنشاده العجيب، "ها هو نبيذٌ طيِّبٌ يُصَبُّ في خانٍ في نهاية العالم".

أطلق الرجال المحتشدون ضربةً وانحناءةً أخرى نحوه، كان الظلام حالكًا على أن يقاتلوا بجلاء. أمسك بشجرة السنديان مُجدَّدًا، مُدخلًا يده هذه المرَّة في شقٍّ واسع متشبِّثًا بأمعاء الشجرة. اندفع الحشد بأكمله، بعدد ثلاثين رجلًا تقريبًا؛ لانتزاعه من الشجرة، تراكموا عليه بكل أثقالهم وأعدادهم، لكن شيئًا لم يتحرَّك. لم يكن للعزلة أن تكون أكثر سكونًا من مجموعة الرجال المشدودين هذه. ثم كان هناك صوت خافت.

"يده تنزلق"، هتف رجلان بابتهاج.

"لا تعرف عنه الكثير"، قال آخر بتجهُّم (رجل من الحرب القديمة). "الاحتمال الأكبر أن تنشقَّ عظامه".

"لا هذا ولا ذاك... بحقِّ الرَّبِّ، لا هذا ولا ذاك!"، قال واحدٌ من الرجلين.

"ما هو إذن؟"، سأله الآخر.

"الشجرة تسقط"، أجابه.

"لتسقط الشجرة، ولتفترش الأرض[1]"، قال صوت واين خارجًا من الظلام، حاملًا نفس النغمة الحلوة -لكن المريعة- التي طالما حَمَلها، وكأنه قادم من الأفق البعيد، قبل أو بعد الحدث الكبير. لكن حتَّى بينما يقاتل كثعبان الماء، أو يطلق ضرباته كالمجنون، كان يتحدَّث كمُشاهد من بعيد. "لتسقط الشجرة، لتفترش الأرض"، قال. "طالما دعا الرجال ذلك بالمنطق الكئيب. إنه جوهر كلِّ بهجة. أفعل الآن ما فعلته طوال حياتي، وهو السعادة الوحيدة، وهو الكونيَّة الوحيدة. أتشبَّث بشيءٍ ما. ليسقط، ليفترش الأرض. يا حمقى، انطلقوا وانظروا إلى ممالك الأرض، وتأكَّدوا أنها حُرَّة وحكيمة وكوزموبوليتانيَّة، وهو كل ما يمكن للشيطان منحه لكم، كل ما كان بمقدوره منحه للمسيح، فقط ليترفَّع هو عنه. أفعل ما للحكيم حقًّا أن يفعله. عندما يخرج طفلٌ إلى الحديقة ويعانق شجرة، قائلًا: "لتكن هذه الشجرة كل ما أملك"، ففي تلك اللحظة تستقرُّ جذورها في الجحيم وفروعها على النجوم. البهجة التي لديَّ هي تلك التي يعرفها العاشق عندما تُمثِّل له امرأةٌ كل شيء. هي ما يعرفه المتوحِّش عندما يُمثِّل له وثنٌ كل شيء. هي ما أعرفه عندما تكون نوتنج هيل كل شيء لي. لديَّ مدينةٌ. لتصمد أو تسقط".

---

(1) إشارة من العهد القديم، سِفر الجامعة (3:11): "إذا وقعت الشجرة نحو الجنوب أو نحو الشمال ففي الموضع حيث تقع الشجرة هناك تكون". (المترجم)

فيـما يتحـدَّث، ارتفعـت بقعـة الأرض نفسـها كـشيءٍ حـيٍّ، ومنهـا ارتفعـت ببـطء، كأفـاعٍ متوَّجـة، جـذور شـجرة البلُّـوط. ثـم اكتسـح الـرأس الهائـل للشـجرة، الـذي بـدا كسـحابةٍ خـضراء بـين سُـحبٍ رماديـة، السـماء بغتـةً كالمكنسـة، ومالـت الشـجرة بأكملهـا كسـفينة، سـاحقةً الجميـع في سـقوطها.

الفصل الثالث

صوتان

في مكانٍ ما كان الظلام سائدًا فيه لساعات، كان هناك أيضًا صمتٌ مُطبِق لساعات. ثم تحدَّثَ صوتٌ خارجًا من الظلام، صوتٌ لم يكن بمقدور أحد معرفة من أين جاء، وقال عاليًا:

"هكذا إذن انتهت امبراطورية نوتنج هيل. كما بدأت بالدماء، انتَهَت كذلك بالدماء، والأشياء كلها نفسها دائمًا".

كان هناك صمت مُجدَّدًا، ثم كان هناك صوتٌ، لكن لم يكن بنفس النغمة، بل بدا أنه ليس نفس الصوت.

"إذا كانت الأشياء كلُّها هي نفسها دائمًا؛ فهذا لأنها بطولية دائمًا. إذا كانت الأشياء كلها هي نفسها دائمًا؛ فهذا لأنها جديدة دائمًا. لكل إنسان تُمنح روح واحدة، لكل روح تُمنح قوَّة صغيرة، تلك القوة التي تتنامي وتبتلع النجوم. إذا كانت تلك القوَّة تحلُّ بالرجال عصرًا

بعد عصر؛ فأيًا ما تمنحه لهم عظيم. أيٌّ ما يجعل الرجال يشعرون بالتقادم والشيخوخة فهو وضيع: امبراطورية كانت أم متجرًا لأحجار الصوان. أيٌّ ما يجعل الرجال يشعرون بالجِدّةِ والشباب فهو عظيم: حربًا عظيمةً كانت أم قصَّةَ حُبٍّ. وفي أكثر كُتُب الرَّبِّ إظلامًا توجد حقيقة مكتوبة هي أيضًا أحجية. هي حقيقة عن الأشياء الجديدة التي يُبليها البشر: حقيقة عن الموضة وعروض الزواج والتشذيبات والتغيُّر. إن الأشياء القديمة هي ما تمنح الذهول والسُّكْر. إن الأشياء القديمة هي الشابة. لا يوجد مُتشكِّك لا يشعر بما شكَّكَ فيه الكثيرون قبله. لا يوجد رجل ثريٌّ، مُتقلقل، لا يشعر بأن كل تقليعاته الجديدة عتيقةٌ في الحقيقة. لا يوجد عابد للتغيُّر لا يشعر على عنقه بالوزن الهائل لإرهاق الكون. لكن نحن -مَن نفعل الأشياء القديمة- نتغذَّى على الطبيعة بطفولةٍ أبدية. لا يوجد رجل واقع في الحب يعتقد أن أيَّ أحد وقعَ في الحبِّ قبله. لا توجد امرأة لديها طفلٌ تعتقد أنه كانت هناك أشياء كالأطفال من قبل. لا يوجد بشر يحاربون من أجل مدينتهم يُضنيهم حِمْل الامبراطوريات البائدة. نعم، يا صوت الظلام، العالَم هو نفسه دائمًا، ذلك أنه غير متوقَّع دائمًا".

انطلَقَت هبَّةُ رياحٍ خافتة عبر الليل، ثم أجاب الصوت الأول:

"لكن في هذا العالم يوجد بعض الناس، حكماء كانوا أم حمقى، لا يجدون النشوة في شيء. يوجد بعض الناس يرون كلَّ هِياجاتك ومشاغباتك كسحابةٍ من ذُباب. يدركون، رغم أن الرجال يسخرون من نوتنج هيل خاصَّتِك ويتدارسون ويرون الحكايات وينشدون لأثينا وأورشليم، أن أثينا وأورشليم كانتا ضواحي عقيمة كضاحيتك نوتنج هيل. يدركون أن الأرض نفسها ضاحية، ويمكنها الابتهاج، بوحشةٍ ووقار فحسب، فيما يتحركون عليها".

"إنهم فلاسفة أو أنهم حمقى"، قال الصوت الآخر. "ليسوا بشرًا. البشر يحيون -كما قلتُ- مبتهجين من عصرٍ لآخر بشيءٍ ما أكثر نداوةً وتجدُّدًا من التقدُّم... في الحقيقة فإنه مع كل رضيع تولَد شمسٌ جديدة وقمرٌ جديد. لو كان البشر القديم رجل واحد، فربما انقسم ذلك الرجل تحت وطأة ذاكرة الولاءات الكثيرة جدًّا، تحت عبء البطولات المتنوِّعة جدًّا، تحت حِمْل ورعب كل خير البشر. لكنها كانت بهجة الرَّبِّ أن يعزل روح الفرد بحيث تعلم بوجود كل الأرواح الأخرى بالسمع فحسب، وإلى كل روح يأتي الخير والفرَح بنفس عنف وشباب البرق، لحظيًّا وبمنتهى النقاء. أمَّا قانون الفشل الذي يقبع في كل الأنظمة البشرية فلا يؤثِّر عليها في الحقيقة أكثر من تأثير ديدان القبر الذي لا مفرَّ منه على لَعِبِ الأطفال في المروج. سقَطَت نوتنج هيل، ماتت نوتنج هيل. لكن هذا ليس بالمشكلة الرهيبة. عاشت نوتنج هيل".

"لكن"، أجاب الصوت الآخر، "إذا كان ما تحقَّقَ نتيجة هذا الجَهْد ما هو إلَّا الرضا المبتذَل للبشرية، فلماذا يكدُّ البشر فيه ويموتون أثناءه؟ هل أنجَزَت نوتنج هيل أيَّ شيء لا يمكن لحفنة من المزارعين أو قبيلة من المتوحِّشين إنجازه بدونها؟ ماذا كان ليحدث لنوتنج هيل لو كان العالَم مختلفًا؟ قد يكون سؤالًا عميقًا، لكن ها هو سؤال أعمق: ماذا كان أن يحدث للعالَم لو لم توجد نوتنج هيل أبدًا؟".

أجاب الصوت الآخر:

"نفس ما كان سيحدث للعالم وكلِّ الأنظمة النَّجمية إذا أنبتت شجرة تفاح ستَّ تفاحات بدلًا من سبعة: شيءٌ ما كان سيضيع للأبد. أبدًا لم يوجد في العالم شيءٌ يشبه نوتنج هيل على الإطلاق. أبدًا لن يوجد شيء يُماثلها حتى قيام القيامة. لا أستطيع أن أؤمن بأي شيء سوى أن الرَّبَّ قد أحبَّها تمامًا وحتمًا كما أحبَّ أيَّ شيءٍ فريد ولا مثيل

لـه. لكـن حتـى ذلـك لا يهمُّنـي. لـو كان الـرَّبُّ -بـكل رعـوده- قـد أبغضهـا، فقـد أحببتُهـا".

ومـع ذلـك الصـوت ارتفـع شـكلٌ بـشري طويـل وغريـب خارجًـا مـن الـركام في الضـوء الخافـت.

انطلق الصوت الآخر، بخشونة، وبعد برهةٍ طويلة.

"لكـن لنفـتَرِضْ أن المسـألة بأكملهـا كانـت احتيـالًا وخداعًـا. لنفـترض أن أيًّـا كان المعنـى الـذي تختـار في خيالـك منحـه لهـا، أن المعنـى الحقيقـي للأمـر بأكملـه كان مهزلـةً سـاخرة. لنفـترض أنـه حماقـة لا غـير. لنفـترض...".

"كنـتُ فيـه"، أجـاب الصـوت مـن الشـكل البـشري الطويـل والغريـب، "وأعـرف أنـه ليـس كذلـك".

بدا شكل بشري أصغر حجمًا على وشك الارتفاع في الظلام.

"لنفـتَرِض أننـي الـرَّبُّ"، قـال الصـوت، "ولنفـترض أننـي خلقـتُ العـالم بـتراخٍ وكسـل. لنفـترض أن النجـوم، التـي تظـنُّ أنهـا أبديـة، ليسـت سـوى الألعـاب الناريـة البلهـاء لصبـي مدرسـة أبـديٍّ. لنفـترض أن الشـمس والقمـر، اللذيـن تغنُّونَ لهـما بالتنـاوب، ليسـا سـوى عينَـيْ عمـلاق هائـل، سـاخر، تنفتحـان بالتنـاوب في رمشـةٍ لا تنتهـي أبـدًا. لنفـترض أن الأشـجار -في عينَـيَّ- هـي بنفـس حماقـة فِطـر سـامٍّ متعملـق. لنفـترض أن سـقراط وشـارلمان ليسـا بالنسـبة لي سـوى بهائـم تـزداد غرابتهـا بمشـيها عـلى أقدامهـا الخلفيـة. لنفـترض أننـي الـرَّبُّ، وقـد خلَقـتُ الأشـياء، لأضحـك عليهـا".

"ولنفـترض أننـي الإنسـان"، أجـاب الآخـر. "ولنفـترض أننـي منحـتُ إجابـةً تُحطِّـم الضحـكات ذاتهـا. لنفـترض أننـي لم أردَّ إليـكَ السـخرية، لم أُسَـفِّه منـك، لم ألعَنْـكَ. لكـن لنفـتَرِضْ أننـي -واقفًـا مبـاشرةً تحـت السـماء، بـكل قـوَّة في كينونتـي- وجَّهـتُ لـكَ الشـكر عـلى جنَّـةِ الحمقـى التـي

خلقتَها. لنفترض أنني أُثني عليك، بألم نشوةٍ محضة، على الدُّعابة التي منَحتْني بهجةً مريعةً. إذا كنا انتزعنا من الأطفال ألعابهم ومنحناهم جدِّيَّة الحروب الصليبية، إذا كُنَّا أغرقنا حديقتك الهولندية الغرائبية بدماء الشهداء، فقد حوَّلنا الحضانات إلى معابد. وحينها لأسألك باسم السماء: مَن الفائز؟".

انغلَقَت السماء على ذُرى التلال وبدأت الأشجار في التحوُّل من الأسود إلى الرمادي، بعلاماتٍ عشوائية على انبلاج الصبح. بدا الشكل البشري النحيل وكأنه يزحف نحو الشكل الأضخم، وكان الصوت أكثر بشريَّةً.

"لكن لنفترض، يا صديقي"، قال، "لنفترض، بمعنى أكثر حدَّةً وواقعيةً، أن الأمر كله سخريةٌ لاذعة. لنفترض أنه كان هناك -من بداية هذه الحروب العظيمة- مَن كان يراقبها بشعورٍ عَصيٍّ على التعبير، شعور بالانعزال، بالمسؤولية، بالسخرية، بالألم. لنفترض أنه كان هناك مَن يُدرِك أن الأمر كُلَّه مَزحةٌ".

أجابه الشكل البشري الطويل:

"لم يكن بوسعه ذلك؛ لأن الأمر لم يكن كُلُّه مَزحةً".

ثمَّ أزاحت هَبَّةُ رياحٍ بعيدًا بعضَ السُّحب التي كانت تحجب الأفق، وكشَفَت عن شريطٍ من الفضَّة وراء ساقيه الداكنتين الهائلتين. انبعثَ الصوت الآخر، وقد زحفَ مُقتربًا.

"آدم واين"، قال، "يوجد رجال لا يمنحون اعترافاتهم سوى في لحظة الموت، هناك أناسٌ يلومون أنفسهم فقط عندما لا يعودون قادرين على مساعدة الآخرين. هنا، على ميدان النهاية الدامية لكل شيء، جئتُ لأخبرك ببساطة ما لم تدركه من قبل أبدًا. هل تعرف مَن أنا؟".

"أعرفك، أوبيرون كوين"، أجاب الشكل البشري الطويل، "ويسعدني أن أخفِّف مَن على روحك عبء أيِّ شيء يقبع عليها".

"آدم واين"، قال الصوت الآخر، "بشأن ما ينبغي أن أقوله: لا يمكنك -بالإدراك السليم- أن تكون سعيدًا بتخفيف الأحمال عنِّي. واين، الأمر كله مَزحة. عندما خلقتُ هذه المدن، لم أهتمَّ بها أكثر من اهتمامي بالقنطورس الخرافي، أو بحورية بحر على شكل رَجُل، أو سمكةٍ بأقدام، أو خنزير بريش، أو أيِّ عبث آخر. عندما تحدَّثتُ إليكَ بجدِّيَّة وتشجيع عن راية الحُرِّيَّة والسلام لمدينك، كنتُ أمزح بشكل عملي فجٍّ مع چنتلمان ساذج، مَزحة عملية فجَّة استمرَّت لعشرين عامًا. رغم أن لا أحد قد يصدِّقني في ذلك، ربما، إلَّا أن الحقيقة هي أنني رجل خَنوعٌ ورقيق القلب. أبدًا لم أجرؤ في الأيام الأولى من آمالك، أو في الأيام المحورية من سيطرتك، على إخبارك بهذا، أبدًا لم أجرؤ على تحطيم الهدوء الرهيب في وجهك. يعلم الرَّبُّ لماذا أفعل ذلك الآن، بعد أن انتهت مسرحيتي الهزليَّة بمأساة، وتحطَّمَ شعبك بأكمله! لكنني أقولها الآن. واين، كل هذا كان مَزحة".

غشيهم الصَّمتُ، وهبَّ النسيم المتجدِّد مُصفيًا السماء أكثر وأكثر، تاركًا وراءه مساحات هائلة من الفجر الأبيض.

أخيرًا تحدَّثَ واين، ببطء شديد:

"فعلتَ كل ذلك فقط كمَزحة؟".

"نعم"، قال كوين، باقتضاب.

"عندما واتَتكَ الفكرة"، تابع واين حالمًا، "بتكوين جيشٍ لبايزووتر ورايةً لنوتنج هيل، لم تكن هناك ومضة واحدةً ولا إشارة في عقلك على أن أشياء كهذه قد تكون حقيقية وحماسية؟".

"لا"، أجابه أوبيرون، مُديرًا وجهه الأبيض المستدير بصدقٍ بهيٍّ وكابٍ، "لم أجد شيئًا من ذلك".

وثبَ واين هابطًا من المرتفع فوقه ومدَّ يده.

"لن أكتفي من شُكركَ"، قال، ببهجةٍ عجيبة في صوته، "على الخير العظيم الذي جلبتَه في واقع الأمر إلى العالَم. هذا ما جالَ ببالي أن أقوله لك منذ لحظات، حتَّى عندما ظننتُ أن صوتك كان صوت جبروتٍ هازِئٍ، ضحكته أقدمُ من رياح السماء. أنت وأنا، أوبيرون كوين، طالما دُعينا مرارًا وتكرارًا طوال حياتنا بالمجانين. ونحن مجانين حقًّا. نحن مجنونَيْن؛ لأننا لسنا رَجُلَيْن، بل رجُلٌ واحد. نحن مجنونَيْن؛ لأننا فصَّان لنفس الدماغ، ولأن ذلك الدماغ انشقَّ إلى اثنين. وإذا طلبتَ الدليل على ذلك، فلن يصعب إيجادُه. الأمر فحسب هو أنك -الساخر- لم تكن في تلك الأيام السوداء مُجرَّدًا من بهجة الوقار. بينما أنا، المُتعصِّب، كان عليَّ أن أتلمَّس طريقي دون أن أخلو من السخرية. هذا هو الأمر، رغم أننا نبدو على النقيض في كل شيء، فقد كُنَّا على النقيض مثل رجل وامرأة، يتوقان في نفس اللحظة لنفس الشيء العملي. نحن الأب والأم لميثاق المدن".

تطلَّعَ كوين لأسفل إلى ركام الأوراق والأخشاب، وبقايا المعركة والفرار الجماعي، تسطع الآن في ضوء النهار المتزايد، وقال أخيرًا:

"مع ذلك لا شيء يغيِّر من التضادِّ... حقيقة أنني سخرت من هذه الأشياء وأنت عشقتها".

توهَّجَ وجه واين الثائر بشيءٍ يشبه الآلهة، واستدار ليضربه شروق الشمس.

"أعرف شيئًا سيغيِّر من ذلك التضادِّ، شيئًا يقع خارجنا، شيئًا لم ننتبه له كثيرًا طوال حيواتِنا ربما. الكائن البشري الخالد والمتوازن سيغيِّر من ذلك التنافُر والتضادِّ؛ ذلك أن الكائن البشري لا يرى تنافرًا

حقيقيًّا بين السخرية والوقار، الكائن البشري، الإنسان العادي، الذي لا يمكن للعباقرة مثلي ومثلك سوى أن يعبدوه كالآلهة. وعندما تأتي الأيام القاتمة والموحشة، فسنصبح أنت وأنا ضرورةً، أنا المتعصِّب المحض، وأنت الساخر المحض. عالجنا فيما بيننا خطأً كبيرًا. ارتقينا بالمدن الحديثة إلى ذلك الشِّعر الذي يدرك كل مَن يعرف النوع البشري أنه أكثر ابتذالًا بما لا يُقاس من العادي والمبتذل. لكن وسط البشر الصاخبين لن توجد حربٌ بيننا. لسنا سوى فضِّي الدماغ في واحد من الفلَّاحين. الضحك والحب في كل مكان. الكاتدرائيات، التي شُيِّدَت في عصورٍ أحبَّت الرب، تمتلئ بالزخرفات الغرائبية التجديفية. تسخر الأم باستمرار من الطفل، تسخر العاشقة باستمرار من العاشق، الزوجة من الزوج، الصديق من الصديق. أوبيرون كوين، طويلًا للغاية ما كُنَّا منفصلَيْن؛ لنجتمع مرّةً أخرى. لديك مِطرَد ولديَّ سيف، لنبدأ تجوالاتنا حول العالم؛ ذلك أننا عُنصُراه الجوهريَّان. هيَّا، انبلج الصُّبح بالفعل".

في الضوء الأبيض الخاوي تردَّدَ أوبيرون للحظة. ثم قدَّمَ التحية الرسمية بمِطرَده، وانطلقا معًا إلى العالم المجهول.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نبذة عن المؤلف

چي كيه تشستيرتون (1874-1936)

جيلبرت كيث تشيسترتون: روائي وناقد إنجليزي وشاعر، كتب العديد من المقالات، والروايات، والقصص القصيرة، ومن أهم أعماله الروائية: "الأرثوذكسي"، "الأب براون"، "الرجل الأبدي"، "الرجل الذي كان الخميس" التي صدرت عن مركز المحروسة عام 2021.

نبذة عن المترجم

عماد منصور، 1983 -

مُتَرجِم وروائي من مواليد القاهرة، حاصل على ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية من جامعة القاهرة، ترجمَ العديد من المقالات النقديَّة والسينمائيَّة في دوريَّاتٍ مثل: مجلة "عالم الكتاب"، و"مجلة الفيلم". صدَرَت له رواية "تحت السَّمع والبَصَر" عام 2014، وترجمة "يوميَّات كافكا" عام 2019، وعن دار المحروسة صدَرَت له ترجماتٌ مثل: "ألواح موسى" لتوماس مان، والترجمة العربية الأولى لرواية "ماتيلدا" لماري شيلي، و"الرجل الذي كان الخميس" لچي كيه تشستيرتون، و"طفل فيلا" لدالين ماتي، و"ليليث" لچورچ ماكدونالد.

telegram مكتبة
@soramnqraa

نابليون في نوتنج هيل

"توجد -على أيِّ حال- ألغازٌ"، قال لنفسه، "حتَّى للرجل الذي يحمل عقيدةً. توجد شكوكٌ تبقى حتَّى بعد اكتمال الفلسفة الحَقَّة في كل درجة ومسمار. وها هو أحدها. هل الحاجة البشرية الطبيعية، الشرط الإنساني الطبيعي، أسمى أم أدنى من تلك الوضعيات الخاصة للروح التي تصرخ مطالِبةً بالأمجاد الخطيرة والغامضة؟ تلك القوى الخاصَّة للمعرفة أو التضحية التي لا تصبح مُمكِنةً إلَّا بوجود الشَّرِّ؟ أيُّهما يهرع أولًا لانفعالاتنا: صِحَّة العقل المُكابِدة الكامنة في السلام أم الفضائل نصف المجنونة الكامنة في المعارك؟"

"نابليون في نوتنج هيل"، نُشِرَت في عام 1904، الرواية الأولى لتشستيرتون. صُنِّفَت كأفضَلِ روايةٍ أولى في القَرنِ العِشرين."

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

ISBN 978-977-313-918-6

المحروسة